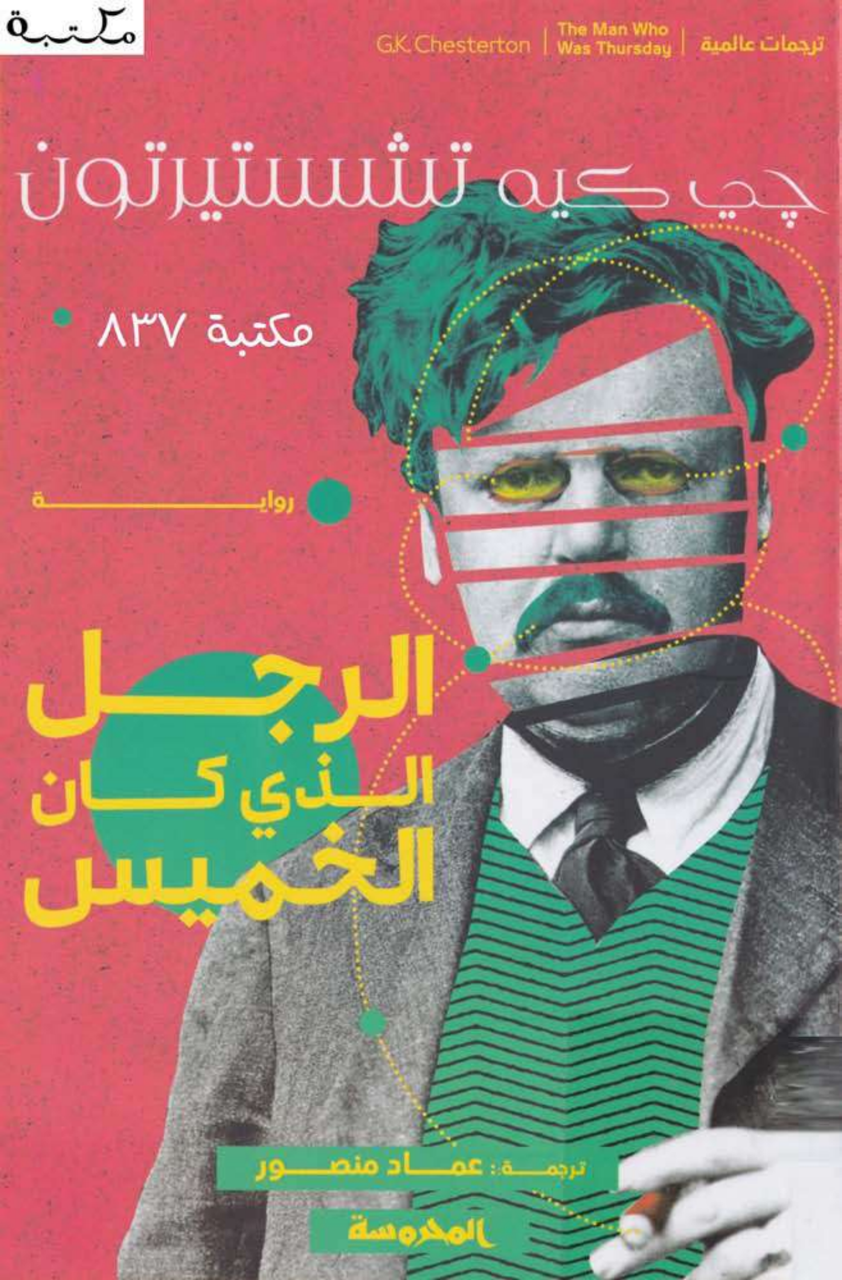


مكتبة
ترجمات عالمية
The Man Who Was Thursday
G.K. Chesterton
چي كيه تشستيرتون
مكتبة ٨٣٧
رواية
الرجل الذي كان الخميس
ترجمة: عماد منصور
المحروسة



مَ

الرَّجُلُ الَّذِي كانَ الخَميسَ

چي كيه تشستيرتون

عنوان الكتاب: الرَّجُلُ الَّذِي كانَ الخَميسَ
The Man Who Was Thursday
المؤلف: چي كيه تشستيرتون G. K. Chesterton
ترجمة: عماد منصور
مراجعة لغوية: محمود شرف



قطعة رقم 7399 ش 28 من ش 9 – المقطم – القاهرة
ت، ف:- 28432157 02 002



رئيس مجلس الإدارة: فريد زهران
مدير النشر: عبدالله صقر

رقم الإيداع: ١٨٢٨ / ٢٠٢١
الترقيم الدولي: 978-977-313-832-5

مكتبة | ٨٣٧
سُر مَن قرأ

الرَّجُلُ الَّذِي كانَ الخَميسَ

چي كيه تشستيرتون

ترجمة
عماد منصور

رواية

الطبعة الأولى 2021





بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

تشستيرتون، چي كيه،

الرجل الذي كان الخميس: رواية/ چي كيه تشستيرتون؛ ترجمة: عماد منصور.-ط1

القاهرة: مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات، 2021

229 ص؛ 21.5×14.5 سم

تدمك 978-977-313-832-5

1 - القصص الانجليزية

أ-منصور، عماد (مترجم)

ب- العنوان

823

رقم الإيداع 2021/1828

إلى إدموند كليرهيو بينتلي[1]:

سحابةٌ كانت على عقول الرجال، وهواءٌ مستغرِقٌ في النحيب،
نعم، سحابةٌ سقيمةٌ كانت على الروح عندما كنّا صبيانًا معًا.
عِلمٌ أعلن العَدَم وفنٌّ بات مفتونًا بالخراب؛
كان العالم شائخًا ومنتهيًا؛ لكنّي وأنتَ كُنّا مبتهجين؛
من حولنا -في ترتيب غريب تجمّعَت رَذائِلُهم القعيدة-
الشّهوة التي فَقَدَت ضحكَتَها، والخوف الذي فقد خِزيَه.
كالشّعرة البيضاء في الطائر الذهبي، والتي أضاءت متاهتنا المظلِمَة،
أظهر الرجال ريشتهم البيضاء بفَخر.
كانت الحياة كذُبابَةٍ اختفت في الأفق، والموت كلَسعَة نَحلَةٍ؛
كان العالَم قديمًا جدًّا عندما كُنّا أنا وأنت صغارًا.
زيّفوا الخطيئة الجميلة إلى أشكال لا يمكن تَسمِيَتُها؛
كان الرجال خَجولين من الشّرف، لكننا لم نعرف الخجل.
وإن كنا ضعفاء وحمقى، فليس لذلك أخفقنا، ليس لذلك؛
عندما حَجَبَت الآلِهةُ الكاذبةُ السّماواتِ، لم تستطِع مَنعَ التراتيل عن آذاننا
أطفالًا كُنّا- قِلاعُنا من الرمال لا تَقِلُّ ضعفًا عَنّا،
عاليًا بنيناها لتحطيم أمواج ذلك البحر المرّ.
حمقى كُنّا في تنافُر الألوان، لا شيء سوى الثرثرة والعَبَث،
عندما كانت كل أجراس الكنيسة صامِتَةً، كان يمكن سماع أجراسنا وألعابنا.

---

(1) Edmund Clerihew Bentley (1956-1875): روائي وفكاهي إنجليزي، أحد أصدقاء تشستيرتون المقرّبين- (المترجم)

لسنا عاجزين تمامًا، دافعنا عن القلعة؛ راياتنا المنمنَمَة منشورة؛
عمالقةٌ يعملون بجدٍّ لرفع تلك السحابة عن العالم
ثانيةً أجد الكتاب الذي وجدناه، أشعر بالوقت المندفع
من باومانوك البعيدة ذات شكل السَّمَكة[1]، تصدر صيحة أشياء أكثر نقاءً؛
والقرنفل الأخضر يتلاشى كما تتلاشى الحرائقُ في الغابات،

مصطخبةً في رياح كلِّ العوالم كانت عشرة ملايين ورقة من العُشب؛
أو حكيمة وعَذبَة ومفاجئة كغناء طيرٍ في المطر-
انبثقت الحقيقة عن توسيتالا[2] واللَّذَّة عن الألم.
نعم، بحديثٍ رائقٍ ولطيف ومُباغِت كغناء طَيْرٍ يسكن في الضَّباب؛
تحدَّثَت دونيدن إلى ساموا[3]، والظَّلامُ إلى النهار.
لكننا كُنَّا صغارًا؛ عِشنا حتى رأينا الربَّ يكسر تعويذاتِه المريرة.
الربُّ والجمهورية الصالِحةُ جاءا عائِدَيْن مُتشابِكَي الأذرُع:
رأينا مدينة مانسول، حتى مع ارتعاشها، واستقرارها-
طوبى للذين آمنوا ولم يَرَوا.

هذه حكاية عن تلك المخاوف القديمة، وعن الجحيم الخاوي ذاته،
لكنَّ أحدًا سواكَ لن يفهم حقيقةَ ما تحكيه
عن آلهة الخِزي الجبَّارة وترويعها للرجال، وانكسارها مع ذلك.
عن الشياطين الهائلة التي تُخفي النجوم، وسقوطها في ومضة طلقَةٍ مع ذلك.
الشكوك التي كانت شديدةَ السهولة في مطارَدَتِها، شديدة البشاعة في
مقاوَمتها-

---

(1) "بادئًا الرحيل من باومانوك ذات شكل السَّمَكة حيث ولدت"، مطلع قصيدة لوالت ويتمان- (المترجم)

(2) Tusitala: فصيلة من العناكب القافزة، والاسم يعني "كاتب الحكايات" في اللغة الساموية، لغة ساموا واللغة الثانية في نيوزيلندا- (المترجم)

(3) دونيدن مدينة في نيوزيلندا، وساموا بلد جنوب المحيط الهادي- (المترجم)

أوه، مَن سيفهم ذلك سواكَ؛ نعم، مَن سيفهم؟
الشُكوكُ التي قادَتنا عبر الليل في أثناء حديثنا المتلاطِم،
والنهار الذي كان يحطِّم الشوارع دومًا على العقول.
بيننا، بسلام الربِّ، يمكن حَكْيُ تلك الحقيقة الآن؛
نعم، هناك في قوة الجذور المدهِشَة، وخير التقدُّم في العمر.
أخيراً وجدنا عقيدةً واتحادًا وأشياءَ مشتركة،
لي أن أكتبها الآن بأريحيّة، ولك أن تقرأها بسلام.

چي كيه تشستيرتون



الفصل الأول

شاعِران من سافرون بارك

كانت ضاحية سافرون بارك تستقرُّ على الجانب الغربي من لندن، محمرَّة ومُشعَّثة كسحابةِ غروب. شُيِّدَت الضاحية من الحجر الفاتحِ اللون بالكامل؛ كان خَطُّ أفقها مُدهِشًا، ومُخطَّطُ أرضها جامحًا. كانت ثورة بنَّاء مُستَغرِق في التأمُّل، مصبوغٍ بالفَنِّ بعضَ الشيء، يرى أن عمارتها مُشيَّدة على الطراز الإليزابيثي أحيانًا، وعلى طراز الملكة آن أحيانًا أخرى، وهذا بالطبع تحت تأثير أن كِلا العَصرَيْن مُتطابِقان. كانت توصف، على نحوٍ مُبرَّر بعض الشيء، بأنها مُستَعمَرة فنِّيَّة، رغم أنها لم تنتج أيَّ فَنٍّ بأي صورة مُحدَّدة. لكن رغم غموض مزاعمها بأنها مركز فكريٌّ، إلَّا أن مزاعمها بأنها مكانٌ بهيج كانت غيرَ قابلة للتشكيك. فالغريب الذي ينظر للمرَّة الأولى إلى تلك المنازل الحمراء الغرائبية لا يَسَعُه سوى أن يفكِّر كيف أن شكل الناس لا بُدَّ أنه عجيب جدًّا حتى يلائموا تلك المنازل. ولن يخيب أمله عندما يقابل

قاطنيها في هذا الخصوص. لم يكن المكان بهيجًا فحسب، لكن يتمتَّع بالكمال، فقط إذا استطاع الغريب اعتبارَه ليس كخداعٍ لكن كحُلمٍ. حتى إذا لم يكن الناس "فنَّانين"، فإن "الكل" رغم ذلك كان يتمتَّع بِحِسٍّ فَنِّيٍّ. ذلك الشاب ذو الشعر الطويل، البني المحمرّ، والوجه الماجن- ذلك الشاب لم يكن شاعرًا في الحقيقة؛ لكنه بالتأكيد كان قصيدة. ذلك الجنتلمان العجوز ذو اللحية البيضاء الجامحة والقبعة البيضاء الجامحة- ذلك الدَّجَّالُ الموقَّر لم يَكُن فيلسوفًا حقًّا؛ لكنه على الأقل كان مسألةً فلسفية بالنسبة للآخرين. ذلك الجنتلمان العالِم ذو الرأس الأصلع على شكل البيضة، والعنق العاري بشكل الطَّير لم يكن يتمتَّع بحَقٍّ في المظهر العلمي الذي يدَّعيه. لم يكن قد اكتشف أيَّ جديد في الأحياء؛ لكنْ أيُّ مخلوق بيولوجي أكثر غرابةً من المخلوق الذي اكتشفه في نفسه؟ لهذا، ولهذا فقط، علينا أن ننظر إلى المكان ككُلٍّ على نحوٍ لائق، يجب اعتباره ليس ورشةَ عَملٍ للفنانين، بل عمل فني هشٍّ، لكن مكتمل. ومَن يَخْطُ إلى جوِّه الاجتماعي سيشعر كما لو أنه قد خطا إلى كوميديا مكتوبَةٍ.

على الأخَصِّ، فإن هذه اللا واقعيَّة الجذَّابة تحتوي المكانَ بالكامل مع حلول الليل، عندما تظلم الأسقف المبَهرَجَة مقابل تَوهُّج الليل وتبدو القرية المجنونة بأكملها كسحابَةٍ عابِرَةٍ مُنفَصِلَة. يتَّضح هذا أكثر وأكثر في الليالي الكثيرة للاحتفالات المحلية، عندما تُضاء الحدائق الصغيرة في المناسبات التي لا تنتهي، وتتوهَّج المشاكي الصينية على الأشجار القزمة كفواكِهَ مُتوحِّشة وشرسة. اكتسب كلُّ هذا أقوى شكلٍ في أمسية مُعيَّنة، ما زالت موضع ذكرى غائِمَةٍ في تلك الضاحية، وفيها كان الشاعر ذو الشعر المحمرّ بطلًا. لم تكن بالتأكيد الأمسية الوحيدة التي كان بَطَلَها. في ليالي كثيرة فإن العابرين بحديقته الخلفية الصغيرة كان يمكنهم سماعُ صَوتِه الصادح التعليميّ راسِمًا القوانين للرجال، وللنساء على الأخَصّ. كان سلوك النساء في مواقِفَ كهذه واحدًا من

التناقُضات التي يغصُّ بها المكان؛ ذلك أن معظم النساء كُنَّ من النوع الذي يُسمَّى بغموض مُتحرِّرًا، مُظهراتٍ شَكلًا من أشكال الاحتجاج ضد التفوُّق الذُّكوري. مع ذلك، فإن تلك النسوة الجديدات كُنَّ دائمًا ما يمنحن الرجالَ أسمى آيات المجامَلَة، وهو شيء لم يكن لأيِّ امرأةٍ عاديَّةٍ أن تمنحه، بأن يُنصِتنَ إليهم أثناء حديثهم. والسيد لوسيا جريجوري، الشاعر ذو الشعر الأحمر، كان بالتأكيد (بمعنًى ما) رجلًا جديرًا بالإنصات إليه، حتى وإن لم يُثِر سوى الضحكات في نهاية حديثه. تحدَّث حينها عن الانحراف القديم لفوضى الفَنِّ وفَنِّ الفوضى بعذوبةٍ ماجِنَةٍ بعض الشيء مَنَحَت مُتعةً لحظيَّةً على الأقل. كان يجد العَونَ إلى حَدٍّ ما في الشذوذ الملفِت لمظهره، وهو ما استغلَّه، مع تَتابُع عباراته، إلى أقصى حَدٍّ. شَعرُه الأحمر الغامق المفروق في المنتصف كان كشَعرِ امرأةٍ حرفيًّا، منحنيًا في خُصلات متراخِيَةٍ لعذراءَ في لوحةٍ من عصر ما قبل رفائيل. هذا الوجه البيضاوي للقِدِّيسين، كان -رغم ذلك- يبرز فجأةً عريضًا ووحشيًّا، وقد اكتسَبَت ذَقنُه الازدراءَ الذي يُميِّز أهل لندن من الكوكنيِّ. هذا التَّبايُن كان يُرعِبُ ويُبهِجُ معًا أعصابَ الحاضرين العُصابِيِّين بطبعهم. بدا جريجوري وكأنَّه تجديفٌ وكفرٌ يمشي على قَدَمَيْن، خليطٌ من الملائكة والقِرَدَة.

هذه الأمسية بالذات، وإن لم يَكُن لأي شيء آخر، سيتذكَّرها الحاضرون في ذلك المكان بسبب غروبها العجيب. بدا الأمر وكأنه نهايةُ العالَم؛ ذلك أن السماء بأكملها قد احتجبت بريش طيور محسوسٍ وحيٍّ تمامًا، كان بمقدور المرء القول فحسب إن السماء كانت مُمتلِئَة بالريش، الذي أوشك على مُلامَسَةِ الوجوه. عبر المساحة الهائلة للقُبَّة السماوية انبثق الريشُ رماديًّا، مع أغرب درجات البنفسجيِّ، ولونٍ غير طبيعي، وَرديٍّ أو أخضرَ شاحِبٍ رُبَّما؛ لكن في اتجاه الغرب كان الأمر برُمَّته غيرَ قابل للوصف، شفَّافًا وشهوانيًّا، والريش ذو الأحمر الملتهب في الأطراف قد حجبَ الشَّمسَ وكأنها شيء في غاية الروعة

لحدٍّ أنه قد يُعمي العيون إن رأته. اقترب الشيء كُلُّه من الأرض بشدّة، وكأنه لا يعبِّر عن شيء سوى عن إخفاءٍ في غاية القسوة. بدت سماء الربِّ العليا وكأنها سرٌّ يُعبِّر عن تلك الضآلة البهيَّة التي تُمثِّل روح الوطنية المحلِّيَّة. بدت سماؤنا ذاتها ضئيلة.

قد يتذكَّر بعضُ السُّكَّان تلك الأمسيةَ بتلك السماء المظلِمَة فحسب، لكن آخرون يتذكَّرونها لأنها كانت علامةً على الظهور الأول في المكان لشاعرِ سافرون بارك الثاني. لزمن الطويل كان الشاعر الثوري ذو الشعر الأحمر مُسَيطِرًا بلا مُنازِعٍ؛ وفي ليلة الغروب تلك انتهت عُزلَتُه بغتةً. كان الشاعر الجديد -الذي قدَّم نفسه باسم جابرييل سايم- ذا مظهر فنَّانٍ رقيق جدًّا. بلِحيَةٍ جميلة مُستدقَّة، وشَعرٍ أصفر شاحب. لكنَّ انطباعًا قد تنامى أنه كان أقلَّ خُنوعًا ممَّا يبدو. اكتسب ظهوره تميُّزًا وأهميَّةً بعد اختلافه مع الشاعر الشهير، جريجوري، بشأن طبيعة الشِّعر بأكمله. قال إنه (سايم) كان شاعِرَ قانون، شاعِرَ نِظام؛ بل قال إنه كان شاعِرَ المحترمين؛ لذلك نظر إليه جميع سُكَّان سافرون بارك كما لو أنه قد سقطَ لتوِّه من تلك السماء المستحيلة.

في واقع الأمر، فإن السيد لوسيان جريجوري، الشاعر الفوضوي، ربط بين الحَدَثَيْن.

"قد يكون الأمر هكذا"، قال -بطريقته الغنائية المفاجِئَة-: "قد يكون الأمر أنه في ليلة السُّحب والألوان الوحشيَّة تلك قد سقَطَت على الأرض مُعجِزَةٌ على شكل شاعِرٍ جدير بالاحترام. تقول إنَّكَ شاعِرُ القانون؛ وأقول إنَّكَ بمثابة تَناقُضٍ بين المصطلحات. أتعجَّب فحسب أنه لم يكن هناك نيازِكُ وزَلازِلُ في الليلة التي ظهرتَ فيها في هذه الحديقة".

تحمَّل الرَّجُل ذو العينين الزرقاوين الخانعتين واللحية المستدقَّة الشاحبة هذه التعليقاتِ الصَّاخِبَةَ بوَقارٍ خاضِعٍ لافت. بينما ضحكَ

الطرف الثالث في المجموعة، روزاموند، شقيقة جريجوري، التي كانت تحمل نفسَ خُصلات الشَّعر الأحمر لشقيقها، لكن بوجهٍ أكثر لطفًا تحتها، بخليطٍ من الإعجاب والاعتراض التي اعتادت على إبدائه لعرّاف الأسرة.

استأنف جريجوري حِسَّه الساخر الخطابيَّ جدًّا.

"إن الفنان هو صِنوُ الفوضوي"، صاح قائلًا. "لكنَّكَ قد تُبدِّل بين الكلمات دائمًا. الفوضوي هو فنان. الرجل الذي يلقي بقنبلة ما هو إلَّا فنان؛ لأنه يفضِّل جلالَ اللَّحظَة على كل شيء. يرى كيف أن انفجار ضوء مشتَعِلٍ، قَصْفَةَ رَعدٍ واحِدَة، أكثرُ قيمَةً بكثير من الأجساد العادية لحفنَةٍ من رجال الشرطة. والفنَّان يتجاهل كُلَّ الحكومات، ويلغي كُلَّ الأعراف. يجد الشاعِرُ البهجةَ في الفوضى لا غير. وإن لم يَكُن الأمرُ كذلك، فإن أكثر الأشياء شعريَّةً في العالَم ستكون سِكَّةَ الحديد تحت الأرض".

"إذن فهي كذلك"، قال السيد سايم.

"هُراء!" قال جريجوري، الذي كان عقلانيًّا جدًّا عندما يحاول أيُّ شخصٍ آخر مُناقَضَتَه. "لماذا يبدو كُلُّ الموظَّفين والحَفَّارين في قطارات السكك الحديدية شديدي الحزن والإرهاق هكذا؟ سأخبرك لماذا. لأنهم يعرفون أن القطار يمضي في طريقه الصحيح. لأنهم يعرفون أنهم سيصلون إلى أيِّ مكانٍ يقطعون تذكرةً إليه. لأنهم بعد عبورهم ميدانَ سلون فإنهم يعرفون أن المحطَّة التالية هي فكتوريا، ولا شيء غير محطَّة فكتوريا. أوه، يا لِنَشوَتِهم الجامحة! أعيُنُهم كالنجوم، وأرواحهم في جَنَّة عدن ثانيةً، إذا كانت المحطة التالية هي بيكر ستريت بلا تفسيرٍ!".

"بل أنتَ مَن تفتقد إلى الشاعرية"، أجابه الشاعر سايم. "إذا كان ما تَقولُه عن الموظَّفين صحيحًا، فلَن يَسعَهم إلَّا أن يكونوا مُبتَذلين

تمامًا كشِعرِكَ. الشيء النادر، الغريب هو أن تصل إلى هدفك؛ والشيء الواضح، البَشِعُ أن تُفَوِّتَه. نشعر وكأن الأمر قد غَدَا مَلحميًّا عندما ينجح رجلٌ بسَهمٍ جامح واحد في إصابة طَيْرٍ بعيد. أليس مَلحَميًّا أيضًا أن يَصِلَ مُحرِّكٌ جامِحٌ واحد إلى وجهته في محطَّة بعيدة؟ الفوضى تبعث على الملل؛ لأنه في الفوضى قد يصل القطار حقًّا إلى أي مكان، إلى بيكر ستريت أو إلى بغداد. لكنَّ الإنسان ساحِرٌ، وسِحره بالكامل يتمثَّل في هذا، أن يقول مثلًا فكتوريا، ثم انظُرْ! إنها فكتوريا. لا، تَناوَلْ كُتُبَكَ من النثر والشعر المحضِ؛ دعني أقرأ جدول رحلات، بدموع الفخر. خُذْ بايرون الذي يخصُّكَ، الذي يحتفل بهزائم الإنسان؛ وامنحني برادشو[1] الذي يخصُّني، الذي يحتفل بانتصاراته. امنحني برادشو بالتأكيد!".

"أعليكَ أن ترحل؟" تساءل جريجوري بسخرية.

"دعني أخبرك"، تابع سايم بشغفٍ، "إنه في كل مرَّةٍ يصل القطار إلى المحطَّة أشعر وكأنه جاء بعد أن حَطَّم واخترق حشودًا من المحاصِرين، وأن الإنسان قد ربح جولةً أخرى ضدَّ الفوضى. تقول بازدراءٍ إنه عندما يغادر المرءُ ميدانَ سلون فإنه حتمًا سيصل إلى محطة فكتوريا. وأقول إن المرء قد يفعل ألفَ شيء آخر بدلًا من ذلك، وأنني متى وصلتُ حقًّا إلى هناك ينتابني شعورُ النجاح في الهروب في آخر لحظة. وعندما أسمع الحارس يصيح بكلمة "محطَّة فكتوريا"، فإنها ليس بكلمةٍ عديمة المعنى. بالنسبة لي هي صيحَةُ منادي الحرب مُعلِنًا نجاح الغزو. هي بالنسبة لي "فكتوريا"[2] حقًّا، انتصارُ آدَمَ".

هزَّ جريجوري رأسه الثقيلة المحمرَّة، بابتسامَةٍ هادئة حزينة.

---

(1) John Bradshaw (1855-1939): فنَّان ومِعماريٌّ إنجليزيٌّ- (المترجم)

(2) "Victoria": انتصار باللغة اللاتينية- (المترجم)

"حتـى وإن كان الأمـر كذلـك"، قـال، "فإننـا نحـن الشـعراء دائمًـا مـا نطـرح السـؤال "ومـاذا تُمثِّـل لـك ڤكتوريـا الآن وقـد وصلـتَ إليهـا؟"، تظـنُّ أن ڤكتوريـا هــي أورشـليم الجديـدة، نعلـم أن أورشـليم الجديـدة لـن تكـون إلا ڤكتوريـا بالنسـبة لـك. لكـن نعـم، سيسـتاء الشَّـاعِرُ حتـى وإن كان في شـوارع الجَنَّـة؛ فالشـاعر دائمًـا في حالـة ثـورة".

"هـا نحـن ثانيـةً"، قـال سـايم باهتيـاج، "مـا الـشيء الشِّـعريُّ في أن تكـون في حالـة ثـورة؟ قـد تقـول أيضًـا إنـه مـن الشـعري أن تُصـابَ بـدُوارِ البحـر. أن تكـون مريضًـا هـو أن تكـون في حالـة ثـورة. أن تكـون مريضًا وأن تكـون ثائـرًا قـد يكـون الـشيءَ النَّاجِـعَ في مواقِـفَ يائِسَـةٍ مُعيَّنـة؛ لكننـي لأَشـنُقُ نفسـي إن اسـتطعتُ رؤيـة لمـاذا تـرى الشِّـعريةَ فيهـما. الثـورة في المطلـق هـي شيء مُثـيرٌ للاشـمئزاز[1]- باعِـثٌ عـلى القـيء".

جَفلَـت الفتـاة عنـد سـماعها الكلمـة القبيحـة، لكـن سـايم لم يكـن ليلقـي لهـا بـالًا في اسـتثارته الشـديدة.

"أن تمـضي الأشـياء بأحسـن حـال"، صـاح قائـلًا"، "هـذا هـو الشِّـعريُّ حقًّـا! عمليـات الهضـم داخلنـا، مثـلًا، تتـمُّ بقَداسَـةٍ وسِرِّيَّـةٍ كـما ينبغـي، هـذا هـو أسـاس كُلِّ الشِّـعر. نعـم، الـشيء الأكـثر شـعريَّةً، الأكـثر شـعريَّةً مـن الأزهـار، الأكـثر شـعريَّةً مـن النجـوم- الـشيء الأكـثر شـعريَّةً في العـالم هـو ألّا تكـون مريضًـا".

"حقًّا"، قال جريجوري بغطرسة، "فإن الأمثلة التي اخترتَها..."

"عُذرًا"، قال سايم بتجهُّم، "نسيتُ أننا ألغينا كل الأعراف والمنطق".

للمرة الأولى ظهرت لطخة حمراء على جبين جريجوري.

"أنـتَ لا تنتظـر منِّـي"، قـال لـه، "أن أخلـق ثـورة في المجتمـع في هـذه الحديقـة؟".

---

(1) لعب بالكلمات بين "revolt" (ثورة) و"revolting" (مثير للاشمئزاز)- (المترجم)

تطلَّع سايم مباشرةً إلى عينيه وابتسم بعذوبةٍ.

"لا، لا أتوقَّع ذلك"، أجابه؛ "لكنَّني أفترض أنه إذا كنتَ جادًّا بشأن فوضويَّتِكَ، فهذا ما ستفعله بالضبط".

طَرَفَت عينا الثور الكبيرتان في جريجوري فجأةً كما لو كانتا عينَيْ أسدٍ غاضب، وكان من الممكن تقريبًا تَخيُّل عُرفَ الأسد الأحمر لديه وهو يرتفع.

"لا تعتقد إذن"، قال بصوت مخيف، "أنَّني جادٌّ بشأن فوضويَّتي؟".

"هلَّا أعدتَ ما قلت؟" قال سايم.

"ألستُ جادًّا بشأن فوضويَّتي؟" صاح جريجوري، بقبضتين مضمومَتَيْن.

"يا رفيقي العزيز!" قال سايم، ثم انصرف مبتَعِدًا.

لِدَهشَتِه، لكن مع ابتهاجٍ غريبٍ، وجد أن روزاموند جريجوري ما زالت في صُحبَتِه.

"سيِّد سايم"، قالت، "هل يقصد الناس الذين يتحدَّثون مثلك ومثل أخي ما يقولون حقًّا؟ هل تقصد ما تقوله الآن؟".

ابتسم سايم

"هل تقصدين أنتِ ما تقولينه؟".

"ماذا تقصد؟" سألت الفتاة، بعينين رزينَتَيْن.

"عزيزتي آنسة جريجوري"، قال سايم بلطف، "توجد أنواعٌ كثيرة من الصِّدق وانعدام الصدق. عندما تقولين "شكرًا" مقابل تقديم الملح، هل تعنين ما تقولينه؟ لا. عندما تقولين إن "العالَم مُستَدير" هل تعنين ما تقولين؟ لا. هذه حقيقيٌّ، لكنَّكِ لا تعنينه. الآن أحيانًا ما يجد رجلًا مثل أخيكِ شيئًا يعنيه حقًّا. قد يكون نِصفَ الحقيقة،

ربع الحقيقة، واحد على عشرة من الحقيقة؛ لكنّه حينها يقول أكثر ممَّا يعنيه- مندفعًا برغبته المحضة في أن يعنيه فحسب".

كانت تتطلّع إليه من أسفل حاجِبَيْن مستويين؛ ووجهٍ رزين ومنفتح، وقد سقط عليه ظِلُّ تلك المسؤولية المفْرِطَة التي تكمن في جوهر النساء الأكثر تفاهةً وطيشًا، النظرة الأمومية القديمة قِدَم العالم.

"أي أنه فوضويٌّ حقًّا؟" سألَت.

"فقط بالمعنى الذي أتحدَّث عنه"، أجابها سايم؛ "أو إذا شئتِ، بانعدام المعنى الذي أتحدَّث عنه".

قارَبَت بين حاجِبَيْها العريضَيْن وقالت بغتةً:

"أي أنه لن يستخدم قنابل أو شيء مشابِهٍ؟".

انفجر سايم في ضحكة عظيمة، بَدَت كبيرةً على هيئته الرقيقة والمتأنِّقة بعض الشيء.

"يا إلهي، لا!" قال لها، "يجب أن يَتمَّ هذا بطريقةٍ مجهولةِ الاسم".

وعند ذلك انفجَرَت زوايا فَمِها مُشَكِّلةً ابتسامة، وفكَّرَت ببهجةٍ لحظيَّةٍ في عبثية جريجوري، وفي أنه سيكون بمأمَنٍ.

خطا سايم بجوارها إلى مقعد في ركن الحديقة، وتابعَ صبَّ آرائه. لأنه كان رَجُلًا صادقًا، ورغم خُيلائه الظاهريَّة، فقد كان مُتواضِعًا في جوهره، ودائمًا ما يكون الرَّجُلُ المتواضِعُ أكثرَ مَن يتحدَّث، بينما يراقب الرجل المتغطرسُ نفسَه عن كثب. كان يدافع عن المحترمين بعُنفٍ ومبالَغة. ينفعل في مديحه للانضباط واللياقة. طوال الوقت كانت رائحة زهور الليلك تحيط به. ذات مرَّةٍ تَناهى إلى سَمعِه في شارعٍ بعيدٍ ما صوت أرغن يبدأ في العزف، وبدا له أن كلماته البطولية كانت تنتقل إلى نغماته الخافِتَة من تحتِ أو من وراء العالم.

حـدَّق وتحـدَّث إلى شَـعرِ الفتـاة الأحمـر وتأمَّـل في وجهها طـوال مـا بـدا بضعـة دقائـق؛ ثـم نهـض قائِمًـا، شـاعرًا أن المجموعـات في مـكانٍ هكـذا يجـب أن تختلـط معًـا. لدهشـته، اكتشـف أن الحديقـة بأكملهـا كانـت خاويـةً. كان الجميـع قـد رحـل منـذ زمـن طويـل، ثـم رحـل هـو نفسـه باعتـذارٍ سريـع بعـض الـشيء. غـادَر بشـعور الشَّـمبانيا المسْـكِر في رأسـه، وهـو مـا لم يسـتطع تفسـيرَه لاحقًـا. لم تشـارك هـذه الفتـاة عـلى الإطـلاق في الأحـداث العاصفـة التـي ستتكشَّـف بعـد ذلـك؛ لم يرهـا ثانيـةً حتـى انتهـت حكايَتُـه بالكامـل. ومـع ذلـك، عـلى نحـوٍ لا يمكـن وصفـه، داوَمَـت عـلى الظهـور كموتيفـة موسـيقيَّة في كل مغامراتـه المجنونـة اللاحقـة، ومـضى مَجـدُ شَـعرِها الغريـب كخَيـطٍ أحمـر ذهبـيٍّ عـبْرَ كلِّ الزخـارف المظلِمَـة والرديئـة التـي كانـت تظهـر ليـلًا. لأن كل مـا تـلى ذلـك كان غـيرَ مُحتَمَـلٍ جـدًّا، لحـدِّ أنـه ربمـا كان حُلـمًا.

عندمـا خـرجَ سـايم إلى الشـارع المضـاء بالنجـوم، وجـده خاويًـا في لحظتهـا. ثـم أدرك (بطريقـةٍ عجيبـة مـا) أن الصَّمـت كان بالأحـرى صَمتًـا حَيًّـا وليـس مَيِّتًـا. مباشرةً خـارج البوابـة انتصـب مصبـاحُ شـارع، ينسـاب شـعاعه عـلى أوراق الشـجرة التـي انحنـت مـن فـوق السـور وراء سـايم. وعـلى بُعـدِ قَـدَمٍ تقريبًـا مـن عمـود المصبـاح انتصب شـكل بـشري مُتصلِّب وسـاكِنٍ كعمـود المصبـاح نفسـه. كانـت القُبَّعـة العاليـة والمعطـف الصُّـوفيُّ الطويـل ذو اللـون الأسـود؛ والوجـه، تحـتَ الظِّـلِّ غـير المترابـط، بنفـس الإظـلام تقريبًـا. لا شيء سـوى أهـدابِ شَـعرٍ هائـج أمـام الضـوء، وكذلـك شيء مـا عَـدائي في وضعيَّـة الجسـم، أعلـن أنـه كان الشـاعِرَ جريجـوري. في هيئتـه شيءٌ مـا يشـبه قاتِـلًا مُسـتأجَرًا مُقَنَّعًـا ينتظـر غريمـه والسَّـيف في يـده.

أبـدى تحيَّـةً مثيرةً للشـكوك، ردَّهـا سـايم بطريقـة أكـثر رسـميَّةً بعـض الشيء.

"كنتُ أنتظرك"، قال جريجوري. "هل لي أن أتحدَّث معك قليلًا؟".

"بالتأكيد. بشأن ماذا؟" سأله سايم باندهاشٍ ضعيف نوعًا.

ضرب جريجوري عصاه بعمود المصباح، ثم بالشجرة. "بشأن هذا وذاك"، صاح قائلًا: "بشأن النظام والفوضى. هناك نظامُكَ الثمين، ذلك المصباح الحديدي الهزيل، القبيح والمجدِب؛ وهناك الفوضوية، غنيَّة، حيَّة، مُتوالِدَة ذاتيًا- هناك الفوضوية، المشرِقَة بالأخضر والذَّهبيّ".

"الأمر سيّان"، أجابه سايم بصبر، "في اللحظة الآنية لا ترى سوى الشجرة بجوار المصباح. أتساءَل إن كُنتَ سترى أبدًا المصباح تحت ضوء الشجرة". وبعد توقُّفٍ قصير قال: "لكن هل لي أن أسألَكَ، هل تقف هنا في الظلام فقط من أجل استئناف جدالنا الصغير؟".

"لا"، صاح جريجوري، وفي صوتٍ تَردَّدَ عبر الشارع قال: "لم أقف هنا لاستئناف جدالنا، لكن لإنهائه".

غشيهما الصَّمتُ ثانيةً، وأنصت سايم، رغم أن لم يفهم شيئًا، غريزيًا علَّه يسمع شيئًا جادًّا. بدأ جريجوري بصوتٍ ناعم وبابتسامة مُرِبكَة بعض الشيء.

"سيد سايم"، قال له، "نجحتَ هذه الأمسيةَ في إنجاز شيء مُبهِر بعض الشيء. فعلتَ بي شيئًا لم ينجح في فعله أيُّ رَجُلٍ وَلَدَته امرأةٌ من قبل".

"حقًّا!".

"الآن أتذكَّر"، استأنف جريجوري حديثه متأمِّلًا، "نجحَ شخصٌ آخر في ذلك. قبطان سفينة بخارية بائسة (إن كان تذكُّري صحيحًا) في ساوثيند. لقد نجحتَ في تهييجي".

"أنا آسفٌ جدًّا"، أجابه سايم بوقار.

"أخشى أن غضبي وإهانتَك لي صادمان جدًّا لحدٍّ أن تمسَحَهُما بمجرَّد اعتذار"، قال جريجوري بهدوء شديد. "لا نزالُ بيننا يمكنه مَسحُ إهانَتِك، إذا أوقَعتُكَ مَيِّتًا فلن أستطيع مسحها. هناك طريقة واحدة فقط يمكن بها مسح تلك الإهانة، وهي الطريقة التي أختارها. سأُثبِتُ لك، بأكبر شَرَفٍ وتضحية مُمكِنَة بحياتي، أنك مُخطِئٌ فيما قُلتَه".

"فيما قُلتُه؟".

"قُلتَ إنني غيرُ جادٍّ في كوني فوضويًّا".

"هناك درجات من الجِدِّيَّة"، أجابه سايم. "وأنا لم أُشكِّك أبدًا في أنَّكَ صادِقٌ للغاية في هذا المعنى، أنَّك اعتقدتَ أنا ما قلتَه يستحقُّ القول، أنك اعتقدتَ أن مفارقةً وتَناقُضًا ما سيوقِظُ الرجال على حقيقةٍ طالَ إهمالها".

حدَّق جريجوري فيه بثَباتٍ وألم.

"ولا تعتقد بأيِّ معنًى آخر أنني جادٌّ؟" سأله جريجوري، "تعتقد أنني كسولٌ مُتبَطِّلٌ لا أفعل شيئًا سوى أن أُلقي بالحقائق من وقتٍ لآخر. أي أنَّكَ لا تعتقد -بمعنى أعمق وأكثر فَتكًا- أنني جادٌّ؟".

ضرب سايم عصاه بعُنفٍ على أحجار الطريق.

"جادٌّ!" صاح قائلًا. "يا إلهي الطَّيِّب! هل هذا الشارع جاد؟ هل هذه المشاكي الصينية اللعينة جادَّةٌ؟ هل الناس بأكملهم جادُّون؟ يأتي أحدُهم هنا وينطق بكثيرٍ من الهُراء، وربما بعض المعنى أيضًا، لكن ينبغي أن أنظر بتدنٍّ شديد إلى الرجل الذي لا يُبقي على شيء ما في خلفيَّة حياته يكون أكثرَ جِدِّيَّةً من كل هذا الحديث- شيء ما أكثر جِدِّيَّة، سواءً كان دينًا مُقدَّسًا أو مجرَّدَ شراب".

"حسنًا جدًّا"، قال جريجوري، وبدأ وجهه في الإظلام "سترى شيئًا أكثر جدِّيَّةً من الشراب ومن الدين".

وقف سايم منتظرًا بمظهر الخنوع المعتاد حتى يفتح جريجوري شفتَيْه ثانيةً.

"تحدَّثتَ لِتَوِّكَ عن أن تكون ذا دين. هل حقيقيٌّ أنك تدين بدينٍ ما؟".

أوه"، قال سايم بابتسامةٍ مُتوهِّجَة، "كُلُّنا كاثوليك الآن".

"إذن فهل لي أن أسألَكَ أن تُقسِمَ بأيِّ آلِهَةٍ أو قِدِّيسين يشملها دينُكَ على أنك لن تكشف عمَّا سأخبرك به الآن لأي مخلوق من بني آدم، وخاصَّةً الشرطة بالتأكيد؟ هل تقسم على ذلك؟ إذا عاهدتني على هذا النُكران المريع، إذا وافَقتَ على تحميل روحِكَ بعهدٍ لا ينبغي عليك أبدًا تَحمُّله، ومعرفةٍ لا ينبغي لك أبدًا حتَّى أن تحلم بها؛ فإنني أعِدُكَ بالمقابل...".

"ستَعِدُني في مقابل ذلك بماذا؟"، تساءل سايم، مع تَوقُّفِ الآخَرِ عن الحديث.

"أعِدُكَ بأمسيَةٍ شديدة الإمتاع". انتزع سايم قُبَّعَتَه بغتَةً.

"إن عَرضَكَ..."، قال له سايم"، "شديدُ الحماقة بحيث لا يُمكِنُ رَفضُه. تقول إن الشاعر فوضويٌّ بطَبعِه. أختلف معك؛ لكنِّي آمل على الأقلِّ أن يكون ذا رُوح رياضية دومًا. اسمحْ لي، هنا والآن، أن أقسِمَ كَمسيحيٍّ، وأن أُعاهِدَكَ كرفيقٍ صالحٍ وكفَنَّانٍ زَميلٍ، أنني لن أُبلِّغ عن أيِّ شيء بخصوص هذا، أيًّا كان هذا، إلى الشرطة. والآن، بحقِّ كولني هاتش[1]، ما الأمر؟".

---

(1) Colney Hatch: منطقة في ضواحي لندن، اشتهرت منذ منتصف القرن التاسع عشر بوجود مصحَّةٍ نفسية سيئة السُّمعة تحمل نفس الاسم- (المترجم)

"أعتقد"، قال جريجوري، بهدوءٍ لا يُلائِمُ الموقف، "أن علينا أن نستدعي عربةَ أُجرَة".

أصدر تصفيرتَيْن طويلتين، وجاءت عربة يَجرُّها حصانٌ تُقَعقِعُ على الطريق. صعدَ الاثنان إليها بصَمتٍ. ثم منح جريجوري عبرَ الحاجز الشبكي عنوانَ حانَةٍ غير معروفة على ضفَّة نهر التيمز في تشيسويك. تحرَّكت العربة بخفَّةٍ، واستأنفت طريقَها ثانيةً، وفيها هجرَ هذان المدُهشان بلدَتَهما المدهِشَة.

امسح الكود .. انضم إلى مكتبة



الفصل الثاني

سِرُّ جابرييل سايم

توقَّفَت العربة أمام خمَّارةٍ كئيبة ومُلطَّخة بالشحم، إلى داخلها قاد جريجوري رفيقَه بسرعة. جلسا في ركن مُسوَّرٍ وخافِتِ الإضاءة يشبه الحجرة، على منضدةٍ خشبيَّةٍ مُتَّسِخَة ذات قدمٍ خشبيَّةٍ واحدة. كانت الحُجرَة مُظلِمَة وصغيرة للغاية، بحيث يمكن رؤية القليل جدًّا من الساقي الذي استَدعَيَاه، بخلاف الانطباع الغامض والمكفهرّ لشيءٍ ما ضَخمٍ مُلتَحٍ وبَطيء الحَرَكَة.

"هل تتناول عشاءً خفيفًا؟" سأل جريجوري بأدب. "طبق كبد الإوَزِّ ليس جيِّدًا هنا، لكنني أرشِّح لحوم الصيد".

استقبل سايم الملاحظة بتبلُّدٍ في الحِسّ، مُتخيِّلًا أنها مُزحة. لكنه تقبَّل حسَّ الفكاهة، وقال بلا مبالاة مُهذَّبة:

"أوه، أحضِرْ لي بعضًا من صلصة سرطان البحر".

لدهشته التي تفوق الوصف، لم يَقُلْ الرجل سوى "بالتأكيد يا سيدي!"، وانطلق لإحضارها كما يبدو.

"ماذا ستشرب؟" استأنف جريجوري حديثه، بنفس المظهر المستهتر والاعتذاريِّ في آنٍ. "سأتناول كريمة النعناع فحسب؛ لقد تناولتُ عشائي بالفعل. لكن لا بأس في بعض الشمبانيا. دعنا نبدأ بنصف زجاجة من شمبانيا بومبيري على الأقل؟".

"شكرًا!" قال سايم الهادئ. "أنت في غاية الكرم".

في النهاية، انقطعت محاولاته الاعتباطية بعض الشيء لخلقِ حديثٍ بالحضور المفاجئ الصاعق لسرطان البحر. تَذوَّقه سايم، ووجده شهيًّا بالفعل. ثم بدأ فجأة في التهام الطعام بسرعة وشهيَّةٍ.

"اعذُرني إن كنتُ قد استمتعت بهذا الوضوح!" قال لجريجوري، متبسمًا. "لا يصادفني الحظُّ كثيرًا في أن يُراوِدَني حُلمٌ كهذا. من الجديد عليَّ أن يؤدِّي كابوسٌ إلى سرطان البحر. العكس هو المعتاد بالنسبة لي".

"لستَ نائمًا، أؤكِّد لك"، قال جريجوري. "بل أنت، على العكس، قريب من أكثر لحظات وجودك إثارةً وواقعيةً. أها، ها هي الشمبانيا التي طلبتَها. أعترف بأنه قد يوجد بعض الاختلاف، لِنَقُلْ مثلًا، بين الترتيبات الداخلية لهذا الفندق الممتاز ومظهره الخارجي البسيط. لكن هذا كله مجرَّد تواضُعٍ من جانبنا. نحن الأكثر تواضُعًا على ظهر الأرض".

"ومَن نحن؟" سأل سايم، مُفرِغًا كأس الشمبانيا.

"الأمر بسيط جدًّا"، أجابه جريجوري. "نحن الفوضويُّون الجادُّون، الذين لا تؤمن بهم".

"أوه!" قال سايم باختصار. "تستمعون حقًّا بالشراب".

"نعم، أنت جادٌّ بشأن كل شيء"، أجابه جريجوري.

ثم بعد توقُّفٍ قصير أضاف:

"إذا بـدأت هـذه الطاولـة خـلال لحظـات قليلـة في الاسـتدارة قليـلًا، فـلا تُرجِـعْ ذلـك إلى غزواتـك عـلى الشـمبانيا. لا أتمنَّـى أن تظلـمَ نَفسـكَ".

"حسـنًا، إذا لم أكُـن ثمِـلًا، فأنـا مجنـون"، أجابـه سـايم بهـدوء مُطلَـق؛ "لكننـي أثِـقُ في قـدرتي عـلى التَّـصرُّف كجِنتلـمان في كِلتَـيْ الحالتـين. هـل تسـمح لي بالتَّدخـين؟".

"بالتأكيد!" قال جريجوري، مُقدِّمًا علبة سيجار. "جرِّبْ واحدةً".

تنـاوَلَ سـايم السـيجار، قـصَّ طرفـه بقاطـع السـيجار الـذي أخرجـه مـن جيـب معطفـه، وضعـه في فمـه، أشـعله ببـطء، ثـم أطلـق سـحابةً طويلـة مــن الدخــان. كان لــه أن يفتخــر أنــه أدَّى كل هــذه الطقــوس برباطــة الجـأش تلـك؛ لأنـه قبـل أن يبـدأ فيهـا مباشرةً كانـت الطاولـة قـد بـدأت في الـدَّوَران، ببـطء أولًا، ثـم بسرعـة، كـما لـو كانـت جلسـةً مجنونـةً لتحضـير الأرواح.

"يجـب ألّا تمانـع في ذلـك"، قـال جريجـوري، "إنـه شـكل مـن أشـكال إضاعـة الوقـت".

"تمامًـا"، قـال سـايم بهـدوء، "مجـرَّد إضاعـة وقـت. هـذا مـا هـو عليـه الأمـر!".

في اللحظـة التاليـة انطلـق دخـان سـيجاره، الـذي كان يتمـوَّج عـبر الغرفـة في التفافـاتٍ ثُعبانيَّـة، مبـاشرةً إلى أعـلى كـما لـو كان مدخنـةَ مَصنَعٍ، وسـقط الاثنـان، مـع المقاعـد والطاولـة، عـبر الأرضيـة كـما لـو كانـت الأرض قـد ابتلعتهـما. هَوَيَـا مُقَعقِعَـيْن عـبر مدخنَـةٍ مُصطَخِبَـة بسرعـةٍ كمصعَـدٍ انفكَّـت حِبالُـه، ثـم وَصَـلَا إلى القـاع بضربـةٍ مفاجئـة. لكـن عندمـا قـام جريجـوري بفتـح زوجٍ مـن الأبـواب وسـمح بدخـول ضـوءٍ أحمـرَ تحـتَ

أرضيٍّ، كان سايم ما زال يدخِّن بقدمه ملقاةً على الأخرى، ولم تهتزّ شَعرةٌ صفراء فيه.

قاده جريجوري عبر مَمرٍّ مُقبَّب واطئ، في نهايته كان الضوء الأحمر، صادرًا عن مشكاةٍ قُرمزيّة هائلة، بحجم المدفأة تقريبًا، مُثبَّتة على حائط صغير، لكن حديديٍّ وثقيل. في الباب كان هناك ما يشبه العَينَ السحرية أو الحاجز المشبك، وعليه قَرَعَ جريجوري خمسَ مرات. سأله صوتٌ ثقيل بلكنة أجنبية مَن يكون. وعلى هذا أجاب بإجابة غير مُتوَقَّعَةٍ بعض الشيء، "السيد چوزيف تشامبرلين". بدأت المفاصل الثقيلة في التحرُّك؛ من الواضح أنها كانت كلمةَ السِّرِّ.

داخل الباب كان الممرُّ لامعًا كما لو أن شبكة من الصُّلب قد اصطفَّت على طوله. عند النظرة الثانية، رأى سايم أن هذا الممرَّ المتلألئ كان في الحقيقة مُبطَّنًا بصفوفٍ وصفوف من البنادق والمسدَّسات، مُكدَّسَةً أو مُتداخِلَةً فيما بينها.

"عليَّ أن أطلب منك أن تعذرني على كل هذه الشكليات"، قال جريجوري؛ "علينا أن نتَّبِعَ قواعِدَ صارِمَةً هنا".

"أوه، لا تعتذر"، قال سايم. "أعرف شغفَكَ بالقانون والنظام"، ثم خطا إلى الممرِّ المبَطَّن بأسلحة الصُّلب. بشَعرِه الطويل والجميل، ومعطفه من الصوف المسرِف في الأناقة بعض الشيء، بدا كشكلٍ بشريٍّ هَشٍّ وعجيب أثناء سيره عبر ممرِّ الموت الساطع.

عَبَرَا خلال ممرَّاتٍ كثيرة كهذه، وانتهى بهما الأمر أخيرًا إلى غرفة عجيبة من الصلب بحوائط منحنية، دائرية تقريبًا في شكلها، لكنها تُقدِّم -بمدرَّجاتها من المقاعد الطويلة- شيئًا يشبه مظهر قاعة محاضرات عِلميَّة. لم تكن هناك بنادق أو مسدَّسات في هذا الجزء، لكن حول حوائطها كانت تتدلَّى أشكالٌ أكثرُ فَزَعًا وريبةً. أشياء تشبه بُصَيلات نباتات حديدية، أو بيوض طيورٍ حديدية. كانت قنابِلَ،

والغرفة نفسها بَدَت كالجزء الداخلي من قنبلة. ضرب سايم بسيجاره على الحائط لنثر رماده المحترق، وانطلق إلى الداخل.

"والآن، عزيزي السيد سايم"، قال جريجوري، طارِحًا نفسه متمددًا على المقعد الطويل تحت أكبر قنبلة، "الآن وقد ارتحنا تمامًا، دعنا نتحدَّث بشكلٍ مُلائِم. لا توجد أي كلمات بشرية قد تمنحكَ فكرة عن سبب إحضاري لك هنا. كان واحدًا من تلك الانفعالات الاعتباطية، كالقَفزِ من على جرف أو الوقوع في الحب. يكفي أن أقول إنَّكَ كنتَ رفيقًا مهيِّجًا على نحوٍ لا يمكن التعبير عنه، وفي الحقيقة، ما زِلتَ كذلك. سأنْقُضُ عشرين قَسَمًا على السِّرِّيَّة من أجل لَذَّة رَبطِكَ بالأوتاد. حتى طريقتك في إشعال السيجار لها أن تجعل كاهنًا يَنقُضُ عهد الاعتراف[1]. حسنًا، قلتَ إنَّكَ مُتيقِّنٌ تمامًا أنني لستُ فوضويًا جادًّا. هل يمنحك هذا المكان شعورًا بالجدِّيَّة؟".

"يبدو لي وكأنه يتمتَّع بمغزى ما يختفي تحت كل مباهجه"، وافَقَه سايم؛ "لكن اسمَحْ لي أن أطرح عليك سؤالَيْن. لا حاجةَ للخوف من منحي معلومات؛ لأنك -كما تذكُر- نجَحتَ بحكمةٍ كبيرة في اقتناص وعدٍ منِّي بعدم إخبار الشرطة، وهو وعدٌ سألتزم به بالتأكيد. مَحضُ الفضول إذن هو ما يدفعني إلى طرح تساؤلاتي. بادئ ذي بدء، ما حقيقة كل هذا؟ على ماذا تعترض؟ هل تنشد إلغاء الحكومة؟".

"بل إلغاء الرَّبِّ!" قال جريجوري، فاتِحًا عينيه كالمتطرفين. "لا نسعى فحسب إلى قَضِّ مَضاجِع حفنَةٍ من أنظِمَةِ الاستبداد والشرطة؛ ذلك النوع من الفوضويَّة يوجد بالفعل، لكنه مجرَّد فرع من فروع اللا مُمتَثِلين. لكنَّنا نحفر إلى مستوياتٍ أعمق، ونُفجِّر إلى مستوياتٍ أعلى، وصولًا إلى إلغاء كل تلك التمييزات الاعتباطية بين الرذيلة والفضيلة،

(1) في الكنيسة الكاثوليكية، يُعتَبرَ عهدُ أو خاتمُ الاعتراف واجبًا مُطلَقًا على الكهنة ألاَّ يكشفوا عن أي شيءٍ يعلمونه من التائبين أثناء سِرِّ التَّوبة- (المترجم)

الشرف والخيانة، والتي يستند إليها ذوو حِسِّ التَّمرُّد العادي أنفسهم. تَحَدَّث العاطفيُّون السُّخَفاءُ في الثورة الفرنسية عن حقوقِ الإنسان! نكره الحقوق كما نكره المظالم. ألغينا الصواب والخطأ".

"واليمين واليسار"، قال سايم بحماس رقيقٍ، "آملُ أن تقضي عليهما أيضًا؛ فهما لا يُسَبِّبان لي سوى المتاعب".

"تحدَّثتَ عن سؤال ثانٍ"، قال جريجوري بغتةً.

"بكلِّ سرور"، استأنف سايم حديثه. "في كل أفعالك الحالية وكل ما يحيط بك توجد دائمًا محاولة علمية لتحقيق الكِتمان. أعرف حالةً كهذه تعيش فوق متجرٍ، لكن هذه هي المرة الأولى التي أجد فيها أناسًا يعيشون باختيارهم تحت خمَّارة. لديكم بابٌ حديديٌّ ثقيل. لا يمكنك المرور منه دون الاستسلام لذُلِّ تَسمِيَةِ نفسِكَ بالسيد تشامبرلين. تحيطون أنفسكم بأدواتٍ من الصُّلب تجعل المكان -اسمح لي بقَوْلِ هذا- مثيرًا للإعجاب أكثر من كَونِه منزلًا. هل لي أن أسأل لماذا إذن، بعد بَذْلِ كل هذا الجهد في حصار وتَتْرِيسِ أنفسكم في أمعاء الأرض، تتباهون بسِرِّكم عبر التحدُّث إلى امرأةٍ حمقاءَ في سافرون بارك؟".

ابتسم جريجوري.

"الإجابة بسيطة"، قال له. "أخبرتُكَ أنني فوضويٌّ جادٌّ، ولم تصدِّقني أنت ولا هُنَّ. وما لم آخُذكَ إلى هذه الغرفة الجهنَّميَّة فلن تُصدِّقني".

دَخَّن سايم سيجاره متأمِّلًا، وتطلَّع إليه باهتمام. تابعَ جريجوري حديثه.

"قد تَجِدُ المتعة عندما تعرف تاريخ هذا الشيء"، قال له. "عندما أصبحتُ للمرة الأولى واحدًا من الفوضويِّين الجُدُد جرَّبتُ كل أنواع التَّنكُّر المحترمة. ارتديتُ زيَّ الأساقفة. قرأتُ كل ما كُتِبَ عن الأساقفة في كُتيِّباتنا الفوضوية، "الخرافة: مصاصة الدماء" و"كهنة الفريسة".

فهمتُ منهما بالتأكيد أن الأساقفة هم رجالٌ عجائزُ غريبون ومُفزِعون يُخفون سرًّا وحشيًّا عن النوع الإنساني. كانت معلوماتي مُضلّلة. في محاولتي الأولى للمشي كالأساقفة في قاعة استقبالٍ صحتُ بصوتِ الرَّعد، "يسقط! يسقط المنطق البشري المتعجرف!"، اكتشفوا بطريقةٍ ما أنني لستُ أُسقُفًا على الإطلاق. اعتقلوني على الفور. ثم تنكَّرتُ في زيٍّ مليونير؛ لكنني دافعتُ عن رأس مال بذكاءٍ كبيرٍ لحدٍّ أنَّه حتى الأحمق كان بإمكانه رؤية أنني فقير تمامًا. ثم حاولتُ أن أكون ضابِطًا في الجيش. ورغم أنني شخصٌ مُحسِنٌ مُحِبٌّ للإنسانية بطبعي، لكنني أتمتَّع، آملُ ذلك، باتِّساع أُفُقٍ كافٍ لفهم موقف الرجال، أمثال نيتشه، الذين يعجبون بالعنف- الحرب المجنونة المتغطرسة للطبيعة وكل تلك الأشياء. ألقيتُ بنفسي في دور ضابط الجيش. كنت أسحب سيفي من غمده وأُلوِّح باستمرار، وأصيح قائلًا "أريد دماءً!" بشرود ذِهنٍ، كرَجُلٍ يطلب نبيذًا في مطعم. كثيرًا ما قلتُ "لِيَفْنَ الضُّعَفاء؛ إنه القانون". حسنًا، يبدو أن ضُبّاط الجيش لا يفعلون ذلك. اعتقلوني ثانيةً. في النهاية انطلقتُ يائِسًا إلى رئيس مجلس الفوضويِّين المركزي، وهو أعظمُ رجلٍ في أوروبا قاطِبَةً".

"ما اسمُه؟" سأله سايم.

"ليس لك أن تَعرِفَه"، أجابه جريجوري. "تلك عظمته. قيصر ونابليون خَلَقَا عبقريَّتهما حتى يُسمَعَ عنها، وسُمِعَ عنهما. لكنه يخلق عبقريَّتَه حتى لا يُسمع عنها، ولم يُسمَع عنها. لكنَّك تَعجَزُ أن تكون معه في نفس الغرفة لخمس دقائق دون الشعور أن قيصر ونابليون هما أطفالٌ بين يدَيْه".

كان صامِتًا وبل وشاحِبًا لوَهلَةٍ، ثم استأنف:

"لكن متى مَنَحَكَ نصيحةً فهي دائمًا شيءٌ مُربِكٌ كحِكمَةٍ ساخرة، ومع ذلك عمليَّة كبنك إنجلترا. سألته ذات مَرَّة "ما التَّنكُّر الذي

يُخفيني عن العالم؟ ما الشيء الأكثر احترامًا بالنسبة لي من الأساقفة وضباط الجيش؟"، تَطلَّع إليَّ بوَجهِه الكبير الغامض رغم ذلك. "تريد تَنكُّرًا آمِنًا، أليس كذلك؟ تبحث عن زيٍّ يضمَنُ عدم أذيَّتِكَ؛ زيٌّ لا يمكن لأحدٍ أن يبحث فيه عن قنبلة؟" أومأتُ. ثم رفعَ صوته الذي يشبه الأسد. "إذن، فعليك ارتداء زيِّ الفَوضويِّين يا أحمق!" زَمجَرَ حتى اهتزَّت الغُرفَة. "لا أحد يتوقَّع منكَ القيام بأي شيء خطيرٍ حينها". ثم أدارَ ظَهرَه العريض إليَّ بدون كلمة أخرى. أخذتُ بنصيحته، ولم أندم عليها أبدًا. بشَّرتُ بالدم والقتل لتلك النسوة نهارًا وليلًا، وكُنَّ -يا إلهي- يَسمَحن لي بدَفعِ عَربات أطفالهنَّ".

جلسَ سايم مُراقِبًا إيَّاه ببعض الاحترام في عينيه الكبيرتَيْن الزرقاوين.

"لكن ضَمَمتَني إلى المجموعة"، قال له. "هذه مُراوَغَةٌ ذكيَّةٌ فعلًا".

ثم بعد تَوقُّفٍ أضاف:

"ماذا تدعون رئيسكم الجبَّار هذا؟".

"عادةً ما ندعوه الأحد"، أجابه جريجوري ببساطة. "كما ترى، يوجد سَبعَةُ أعضاء في المجلس الفوضوي المركزي، يتَّخذون أسماء أيام الأسبوع. يُدعى الأحد، وبعض مُعجَبيه يدعونه الأحدَ الدامي. من اللافت للنظر أنَّكَ ذكَرتَ هذه المسألة؛ لأن نفس الليلة التي ظهرتَ فيها بلا دعوة (إذا كان لي أن أقول ذلك) تصادِفُ الليلةَ التي ينتخب فيها فرعنا في لندن، الذي يجتمع في هذه الغرفة، نائبه لشُغلِ المنصب الشاغر في المنصب. لأن الجنتلمان الذي لعب في فترة ماضية -بانضباطٍ واستحسانٍ عامٍّ- الدَّورَ الصَّعبَ للخميس، مات بغتةً؛ بالتالي، دعونا إلى اجتماع هذا المساء لانتخاب خليفته".

نهضَ وخَطَا مُتهادِيًا عبر الغرفة بشكلٍ من أشكال الحرَج الساخر.

"أشعر بشكلٍ ما وكأنَّكَ أمِّي التي وَلَدَتني، يا سايم"، تابع بتلقائيَّةٍ. "أشعر أن بإمكاني البَوحَ لكَ بكل شيء؛ لأنك وعدتني بعدم إخبار أي شخصٍ. في الحقيقة، سأبوح لك بشيءٍ لن أقوله حتَّى للفوضويِّين الذي سيحضرون إلى الغرفة خلال عشرِ دقائق. سنجتاز، بالطبع، شكلًا من أشكال الانتخابات، لكنني لا أمانِعُ في إخبارِك بنتيجة الانتخابات الأكيدة". تطلَّع إلى الأسفل بتواضُعٍ لوَهلَةٍ. "من المستَقَرِّ عليه تقريبًا أنني سأكون الخميس".

"صديقي العزيز"، قال سايم بحميميَّةٍ، "أُهَنِّئُكَ. نجاحٌ عظيم".

ابتسم جريجوري بخنوعٍ، وخَطَا عبرَ الغرفة، متحدِّثًا بسرعة.

"حقيقة الأمر أن كل شيء غَدَا جاهِزًا لي على هذه الطاولة" قال له، "وربما يكون الاحتفال أقصرَ احتفالٍ مُمكِن".

خَطَا سايم أيضًا إلى المنضدة، ووجد عليها عَصَا مَشْيٍ مُلقاةً، تَحوَّلَت عند فحصها عن قُربٍ إلى عصًا تُشبِهُ السَّيف، ومُسدَّسًا "كولت" كبيرًا، وحقيبة شطائر، وقِنِّينةَ براندي كبيرة. وعلى المقعد، بجوار المنضدة، كانت مُلقاةً عَباءَةٌ أو إزارٌ يبدو ثَقيلًا.

"عليَّ فقط أن أنتهي من الشكل الرسمي للانتخاب"، تابع جريجوري بحركاتٍ من يده، "ثم أتناول هذه العباءة والعصا، وأحشو هذه الأشياء في جيبي، ثم أخطو خارجًا من بابٍ في هذه الحانة يفتح على النهر، حيث يَستقرُّ قارِبٌ بُخاريٌّ في انتظاري، وحينها- أوه، حينها، البهجة الوحشة لكوني الخميس!"، ثم صفَّق بيديه.

نهض سايم، ثم جلس ثانيةً بتراخيه المتعجرف المعتاد، لكن بهيئة مُتردِّدَةٍ غير مُعتادَة.



"لمـاذا أعتقـد"، تسـاءل بغمـوض، "أنَّـكَ شـخصٌ مُحـترَمٌ للغايـة؟ لمـاذا تنـال إعجـابي الإيجـابي، يـا جريجـوري؟"، توقَّـف لبرهـة، ثـم أضـاف بمـا يُشـبِه الفضـولَ المتَجـدِّدَ، "هـل هـذا لأنَّـكَ أحمـق؟".

كان هناك صَمتٌ تأمُّليٌّ بينهما ثانيةً، ثم صاح قائلًا:

"حسـنًا، اللعنـة عـلى كل شيء! إنـه أغـرب موقِـفٍ شَـهِدتُه في حيـاتي، وسـأتصرَّف بنـاءً عـلى ذلـك. جريجـوري، لقـد مَنَحتُـكَ وعـدًا قبـل مجيئـي إلى هـذا المـكان. وهـو وَعـدٌ سـأفي بـه وإن وضعـوني بـين كمَّاشـاتٍ مُنصَهِـرَةٍ حمـراءَ. فهـل تمنحنـي -مـن أجـل سـلامتي الشـخصية- وعـدًا صغـيرًا مـن نفـس النـوع؟".

"وعد؟" تساءل جريجوري، مُتعجِّبًا.

"نعـم"، قـال سـايم بجدِّيَّـةٍ كبـيرة، "وعـد. أقسَـمتُ أمـام الله أننـي لـن أُفـشيَ سِرَّكَ إلى الشرطـة. هـل تقسـم بالإنسـانية، أو بـأيِّ شيءٍ وحـشيٍّ تؤمـن بـه، أنَّـكَ لـن تُفـشيَ سِرِّي إلى الفوضويِّـين؟".

"سِرُّكَ؟" تساءل جريجوري مُحَدِّقًا في سايم. "ألديكَ سِرٌّ؟".

"نعم"، قال سايم، "لديَّ سِرٌّ". ثم بعد بُرهَةٍ قصيرة، "هل تُقسِم؟".

حَمْلَقَ جريجوري فيه بجِدِّيَّةٍ للَحظات، ثم قال بغتةً:

"لا بُـدَّ أنَّـكَ أغويتنـي، لكنَّـي أشـعر بفضـولٍ وحـشيٍّ تجاهَـكَ. نعـم، أقسـم أننـي لـن أخـبر الفوضويِّـين بـأيِّ شيءٍ تُخـبرني بـه. لكـن احْـذَرْ، فإنَّهـم سـيصلون إلى هنـا قريبًـا جـدًّا".

نهـض سـايم ببـطءٍ وألقـى بيَدَيْـه الطويلتـين البيضاوَيْـن في جيـب سرواله الطويـل الرمـادي. وفـور أن فعـل هـذا بالـكاد تناهـى إلى سَـمعِهما خمـسُ طَرقـاتٍ عـلى الحاجـز الخارجـي، مُعلِنَـةً وصـول أول المتآمِريـن.

"حسـنًا"، قـال سـايم ببـطء، "لا أعـرف كيـف سـأُخبِرُكَ بالحقيقـة بشـكلٍ أسرع مـن القـول إنَّ حيلَتَـكَ بارتـداء زيِّ شـاعِرٍ هائِـمٍ عـلى وجهـه لا

تقتـصر عليـكَ أو عـلى رئيسِـكَ. نعـرف مـا هـي المراوغـة ومحاولـة الهـروب في سـكوتلاند يـارد".

حاول جريجوري الوقوفَ مستقيمًا، لكنه تمَايَلَ ثلاثَ مَرَّاتٍ.

"ماذا تقول؟" تساءَلَ بصوتٍ غيرِ بَشَريٍّ.

"نعـم"، قـال سـايم ببسـاطَةٍ، "أنـا مُحقِّـقُ شُرطَـةٍ. لكننـي أعتقـد أن أصدقـاءَكَ قادِمـون".

مـن المدخـل جاءَتهـم الهَمهَمَـةُ بالكلـمات "السـيد چوزيف تشـامبرلين". تكـرَّرَت مرَّتَـين ثـم ثـلاثَ مَـرَّات، ثـم ثلاثـين مـرَّة، وأصبـح مـن الممكـن سَـماعُ وَقْـعِ أقـدام حشـود چوزيـف تشـامبرلين[1] (فكـرة شـعائرية) عـلى طـول الممـرِّ.

---

(1) Joseph Chamberlain (1914 -1836): شـخصيَّة حقيقيَّـة، وهـو رَجـلُ دولَـةٍ بريطـاني، كان ليبراليًّا مُتعصِّبًا في بدايـة حياتـه السياسـيَّة- (المترجـم)

الفصل الثالث

الرَّجُلَ الَّذي كانَ الخَميسَ

قبـل ظهـور أيٍّ مـن الوجـوه الجديـدة عنـد المدخـل، كان جريجـوري قـد أصبـح فريسـةً للمُفاجَـأة الصّاعِقَـة. كان واقِفًـا بجـوار الطاولـة عاجـزًا عـن الحركـة، بضجيـجٍ في حَلقِـه كوَحـشٍ بَـرِّيٍّ. ثـم أمسـك بمسـدَّس الكولت ووجَّهـه إلى سـايم. لم يَجفَـلْ سـايم، بـل رفـع يـدًا شـاحِبَةً مُهذَّبـة.

"لا تَكُـن سـخيفًا"، قـال لـه، بوقـار قِسِّـيس مُخنَّـث. "ألا تـرى أن هـذا ليـس ضروريًّـا؟ ألا تـرى أننـا في نفـس القـارب معًـا؟ نعـم، بـل ومُصابـون بـدُوار البحـر المـرِح.

كان جريجـوري عاجـزًا عـن التحـدُّث، لكنـه عاجِـزٌ أيضًـا عـن إطـلاق النـار، بسـبب التَّمَعُّـن في السـؤال الـذي طرحـه سـايم.

"ألا تـرى أننـا هَزَمنـا بعضنـا البعـض؟" صـاح سـايم. "لا أسـتطيع إخبـار الشرطـة أنـك فوضـويٌّ. لا يُمكِنُـكَ إخبـارُ الفوضويِّـين أننـي رجـل

شرطة. ليس بإمكاني سوى مراقبَتِكَ، عارفًا ما أنت عليه؛ لا يمكنك سوى مراقبتي، عالمًا ما أنا عليه. باختصار، إنه نزال وحيد، معنوي، رأسي ضِدَّ رأسِكَ. أنا رجل شرطة محروم من مساعدة الشرطة. وأنت، صديقي البائس، فوضويٌّ مَحرومٌ من مساعدة القانون والتنظيم الجوهري جدًّا بالنسبة للفوضويَّة. الفرق الوحيد يصبُّ لصالحك. فأنت لستَ مُحاطًا برجال شرطة فضوليِّين؛ بينما أنا مُحاطٌ بفوضويِّين فضوليِّين. لا يمكنني خِيانَتُكَ، لكن بإمكاني خيانَةُ نفسي. بِرَبِّكَ! انتَظِرْ وستراني أفضحُ نفسي. سأفعل ذلك بإتقانٍ".

أنزلَ جريجوري المسدَّسَ ببُطءٍ، مُحدِّقا ما زال في سايم كما لو كان وحشًا بحريًّا.

"لا أؤمن بالخلود"، قال أخيرًا، "لكن إذا نَقَضتَ عَهدَكَ، بعد كل هذا، فتأكَّد أن الرَّبَّ قد خلق الجحيم من أجلِكَ حتى تعوي فيه للأبد".

"لن أنقُضَ عهدي"، قال سايم بصرامة، "ولن تَنقُضَ عَهدَكَ. ها هم أصدقاؤكَ".

دخلَ جَمعُ الفوضويِّين إلى الغرفة مُتثاقِلين، بمشيَةٍ مُتسكِّعَة ومُرهَقَة بعض الشيء؛ لكنَّ رَجُلًا ضئيلًا من بَينِهم، بِلحيَةٍ سوداءَ ونظَّارات -رَجُلٌ يشبه طراز السيد تيم هيلي[1]- خرج من بين الجَمْعِ، وتقدَّم إلى الأمام حامِلًا بعض الأوراق في يده.

"الرَّفيق جريجوري"، قال، "أعتقد أن هذا الرجل واحِدٌ من المندوبين؟".

---

(1) Tim Healy (1855-1931): سياسيٌّ وقوميٌّ أيرلندي، كان واحدًا من أكثر أعضاء "مجلس العموم" إثارةً للجدل- (المترجم)

تَطلَّع جريجوري إلى أسفل، مأخوذًا بالمفاجأة، وهَمهَمَ بِاسمِ سايم؛ لكن سايم أجاب بما يكاد أن يكون وقاحةً:

"يسعدني أن أرى أن بوَّابَتكم تتمتَّع بحراسةٍ كافية تجعل من الصعب أن يدخل من خلالها أي شخص من غير المندوبين".

رغم ذلك، كانت انحناءة الرجل الضئيل ذو اللحية السوداء مشوبَةً بشيءٍ يشبه الشكِّ.

"أي فَرعٍ تُمثِّله؟" سأله بجِدّة.

"بالكاد يمكنُ تَسمِيَتُه بفرعٍ"، قال سايم، ضاحِكًا؛ "قد أدعوه جِذرًا على الأقلِّ".

"ماذا تعني؟".

"الواقع هو..."، قال سايم بهدوء، "الحقيقةُ أنني أنتمي إلى السَّبتيِّين. لقد أُرسِلتُ إلى هنا خِصِّيصًا للتأكُّد من إبدائِكم الاحترامَ الَّلازِمَ للأحد".

أسقطَ الرَّجُلُ الضئيل إحدى أوراقه، وارتعشت وجوهُ المجموعة بأكملها بالخوف. بالتأكيد أحيانًا ما يُرسِلُ الرئيسُ مَرهوبُ الجانِبِ -الذي كان اسمه الأحد- سُفَراءَ على أوقاتٍ غير منتظمة إلى اجتماعات الفروع.

"حسنًا، يا رفيق"، قال الرجل ذو الأوراق بعد بُرهَةٍ، "أعتقد أنه يجدر بنا مَنحُكَ مِقعَدًا في الاجتماع؟".

"إذا طُلِبَت نصيحتي كصديق..."، قال سايم بنزعة خَيريَّةٍ شديدة، "أعتقد أنه يجدر بكم فعلًا".

عندما سمعَ جريجوري انتهاءَ المحادثة الخطيرة، وما جلبته من أمانٍ مفاجئٍ لغريمه، نهض بغتةً وخَطَا عبر الغرفة مستغرقًا في التفكير المؤلِم. كان بالفعل غارقًا في عذاب الدبلوماسية المبرِّح. لأنه

مـن الواضـح أن وقاحـة سـايم الملهَمـة سـتنجح في النهايـة في إنقـاذه مـن كل الأزمـات العارِضَـة. لـن يـأتي منهـا أَمَـلٌ كبـير. لم يسـتطع هـو نفسـه أن يفضـح سـايم؛ مـن ناحيـةٍ بدافـع الـشرف، ومـن ناحيـة أيضًـا لأنـه إذا فضحـه وفشـلَ لسـبب مـا في تدمـيره فـإن سـايم -الـذي نجـح في الهـروب- سـيكون مُتحـرِّرًا مـن كل التزامـات السِّرِّيَّـة، سـايم يمـضي فحسـب إلى أقـرب نقطـة شرطـة. أيًّـا كان الأمـر، كانـت مناقشـة اسـتمرَّت ليلـة واحـدة فحسـب، ومُحقِّـق سِرِّيٌّ واحـد فحسـب يعـرف بشـأنها. ليـس عليـه سـوى أن يكشـف عـن أقـل قـدرٍ مُمكِـنٍ مـن خُطَطِهـم تلـك الليلـة، ثـم يخاطـر بمنـح سـايم فرصـةً للهـروب.

خطـا عـبر مجموعـة الفوضويِّـين، التـي كانـت تتـوزَّع عـبر المقاعـد الطويلـة في القاعـة.

"أعتقـد أنـه حـان الوقـت لنبـدأ"، قـال: "القـارب البخـاري ينتظـر في النهـر بالفعـل. ألتمـس أن يـترأَّس الرفيـق باتونـز الجلسـة".

جـاءت الموافقـة عـلى هـذا برفـع الأيـدي، ثـم جلـس الرجـل الضئيـل ذو الأوراق متعجِّـلًا عـلى المقعـد الرئـاسي.

"يـا رفـاق"، بـدأ، حـادًّا كطلقـة رصـاص، "إن اجتماعنـا الليلـة ذو أهمِّيَّـةٍ بالِغَـة، رغـم أنـه لا يحتـاج لأن يطـول. طالمـا تـشرَّف هـذا الفـرع بانتخـاب الأخامـس للمَجلِـس الأوروبي المركـزي. انتخبنـا أخامِـسَ كثيريـن مُبجَّلـين. نـرثي جميعًـا وفـاة العامِـل البطـل الـذي شـغل المنصـب حتـى الأسـبوع الفائـت. كـما تعرفـون، كانـت خدماتـه للقضيـة كثـيرةً. نظَّـم ضربـة الديناميـت العظيمـة في برايتـون التـي كان لهـا -تحـت ظـل ظـروف أفضـل- أن تَقتُـلَ الجميـع عـلى رصيـف الميـناء. تعرفـون أيضًـا، أن موتـه كان نُكرانًـا للـذَّات كـما كانـت حياتـه؛ لأنـه مـات عـبر إيمانـه بخليـطٍ صِحِّـيٍّ مـن الطباشـير والمـاء كبديـلٍ للحليـب، وهـو مـشروبٌ كان بربريًّـا في نظـره؛ كونـه يشـتمل عـلى قَسـوَةٍ تِجـاهَ البقـر. والقسـوة، أو أي شيء يقـترب مـن

القسـوة، كانـت تُثـير امتعاضَـهُ دائمًـا. لكننـا لم نجتمـع مـن أجـل التهليـل بفضائلـه، لكـن مـن أجـل مَهمَّـةٍ أصعـب. مـن الصعـب أن نمـدح خِصالَـه كـما يليـق بـه، لكـن الأكـثر صعوبـة هـو إيجـادُ بديـلٍ لهـا. إليكـم، يـا رفاق، تـؤول هـذه الأمسية ومَهمَّـةُ أن تختـاروا مـن بـين الحاضريـن الرَّجُـلَ الـذي سـيكون الخميـسَ. إذا لم يقـترح أيُّ رفيـقٍ اسـمًا، فليـس بوسـعي سـوى إخبـارِ نفسـي أن مُفَجِّـر الديناميـت العزيـز ذلـك، الـذي رحـل عنَّـا، قـد أخـذ معـه إلى الغياهِـبِ المجهولـة السـرَّ الأخـير لفضيلتـه وبراءتـه".

ظهـرت بـين الجَمـعِ رِعشَـةٌ عـلى شـكل تصفيـقٍ غـير مسـموع تقريبًـا، كالـذي يمكـن سـماعه أحيانًـا في الكنيسـة. ثـم نَهَـضَ رجُـلٌ عجـوز ضخـم الجُثَّـة، بلحيـة وَقـورَةٍ، طويلـة وبيضـاء، ربمـا العامـل الحقيقـي الوحيـد الحـاضر، بتَثاقُـلٍ وقـال:

"ألتمـس انتخـابَ الرفيـق جريجـوري خميسًـا"، ثـم جلـس ثانيـةً بنفـس التَّثاقُل.

"هل أجد تأييدًا من أحد؟" سأل رئيس الجلسة.

أبدى رجُلٌ ضئيلٌ بمعطَفٍ مخمليٍّ ولحيَةٍ مُستدقَّة تأييده.

"قبـل أن أضـع المسـألة موضـع التصويـت"، سـأل رئيـس الجلسـة، "أدعـو الرفيـق جريجـوري لإلقـاء بيـان".

نهـض جريجـوري وسـط التصفيـق المتداخِـل، وَجهُـه شـاحبٌ كالمـوتى، لحَـدٍّ أنَّ شَـعرَه الأحمـر بـدا قُرمزيًـا. كان مُبتَسِـمًا وهادئًـا تمامًـا. كان قـد اتَّخـذ قـراره، ورأى أفضـل سياسـة مُمكِنَـةٍ واضحـةً أمامـه كطريـق أبيـض. فرصتـه المثـلى كانـت أن يلقـي خطابًـا غامضًـا، مُتزلِّفًـا، حتـى يخلـق لـدى المحقِّـق انطباعًـا بـأن أخويَّـةَ الفوضويِّـين مسـألة مُتسـامِحَة جـدًّا في نهايـة الأمـر. كان مؤمنًـا بقُدرَتِـه الأدبيـة، وقُدرَتِـه عـلى الإيحـاء بظـلال المعـاني الدقيقـة وانتقـاء الكلـمات المناسـبة. اعتقـد أنـه بإمكانـه أن ينجـح -رغـم الحشـد مـن حولـه- في توصيـل انطبـاعٍ زائـف عـن المؤسَّسـة، بدهـاءٍ

ولطف. كان سايم يعتقد فيما مضى أن الفوضويّين، بكل تَبَجُّحِهم، يتظاهرون بدور الأحمق فحسب. ألّا يُمكِنُه الآن، في ساعة الخطر هذه، أن يجعل سايم يعتقد ذلك ثانيةً؟

"يا رفاق"، بدأ جريجوري، بصوتٍ منخفض، لكن حادٍّ، "لا أحتاج إلى إخباركم بسياستي؛ فهي سياستكم أيضًا. لقد تعرَّض إيماننا للتشويه والافتراء، غدا مُربِكًا ومُحتَجِبًا بالكامل. لكنه لم يتبدَّل أبدًا. هؤلاء الذين يتحدَّثون عن الفوضوية ومَخاطِرها يذهبون إلى كل مكانٍ وأيِّ مكانٍ للتَّحصُّل على معلوماتهم، باستثناء المجيء إلينا، نحن رأس المنبع. يفهمون الفوضويَّة من الروايات الرخيصة؛ يفهمون الفوضويّين من صحف أصحاب المتاجر؛ يفهمون الفوضويّين من "ألي سلوبرس هاف هوليدي" و"ذي سبورتنج تايمز"[1]. لم يفهموا الفوضويين أبدًا من الفوضويِّين أنفُسِهم. لم تُتَح لنا أيُّ فرصة لإنكار الافتراءات الهائلة التي تراكَمَت على رؤوسنا من شرق أوروبا إلى غربها. الرجل الذي دائمًا ما سمع أننا طاعونٌ يمشي على قدَمَيْن لم يسمع رَدَّنا على ذلك. أعرف أنه لن يستمع إلى هذه الليلة، رغم حماسي بتمزيق السَّقف الذي يُظِلُّنا. لأنه عميق، عميق جدًّا تحت الأرض التي يُسمح للمضطهدين بالتجمُّع عليها، تمامًا كما يُسمح للمسيحيين بالتجمُّع في سراديب الموت. لكن إذا كان هنا هذه الليلة، بصُدفَةٍ لا تُصدَّق، رجلٌ ما أساء فهمنا بشدَّة طوال حياته، فإن لي أن أطرح هذا السؤال عليه: "عندما يجتمع هؤلاء المسيحيُّون في تلك السراديب، فما السُّمعة التي يجنونها في الشوارع التي تعلوهم؟ما الحكايات التي تُروَى عن فظائعهم على يَدِ رُومانيٍّ مُتعلِّم تجاه آخر؟ افترض" (سأقول له)، "افترض أننا لا نفعل سوى تكرار مناقضة التاريخ الغامضة تلك. افترض أننا نبدو

---

(1) مجلة Ally Sloper's Half Holiday هي مجلة كاريكاتورية بريطانية، صَدَرت لأول مرة في 1884. وتُعتَبر أوَّل مجلة هَزْلِيَّة تُجسِّد شخصيَّةً متكرِّرةً، و The Sporting Times مجلة رياضية تخصَّصَت في سباق الخيول، ظهرت 1865 وتوقَّفت عن الصدور في 1932. (المترجم)

مُثيريــن للاشــمئزاز كــما يبــدو المســيحيُّون لأننــا في الحقيقــة أبريــاء كالمســيحيِّين. افــترِضْ أننــا نبــدو مجانــين كــما يبــدو المســيحيُّون لأننــا في الحقيقــة خانِعــون"".

كان التصفيــق الــذي تَجــاوَبَ مــن العبــارات الافتتاحيــة قــد بــدأ في التــلاشي تدريجيًّــا، وعنــد الكلمــة الأخــيرة توقَّــف تمامًــا. في هــذا الصَّمــت المفاجــئ، قــال الرجــل ذو المعطــف المخمــليّ، بصــوتٍ حــادٍّ مرتفــع:

"لكنني لستُ خانِعًا!".

"يخبرنــا الرفيــق ويذرســبون"، اســتأنف جريجــوري، "أنــه ليــس خانعًــا. أوه، كــم هــو قليــل مــا يعرفــه عــن نفســه! إن كلماتــه مُتطرِّفَة حقًّــا؛ مظهره شــديدُ التَّوحُّــش، بــل وحتَّــى (بالنســبة لذائِقَــةٍ عاديَّــةٍ) غــير جــذَّاب. لكــن فقــط عــينُ صداقَــةٍ عميقــةٍ ومُرهَفَــةٍ كصداقتــي يمكنهــا رؤيــة الأســاس العميــق للخنــوع الصُّلــب الــذي يســتقرُّ في جوهــره، عميقًــا جــدًّا عــن أن يــراه هــو نفســه. أكــرِّر، نحــن المســيحيُّون الحقيقيُّــون الأوائــل، فقــط جئنــا متأخِّريــن. نحــن بســطاء، تمامًــا كالبســاطة التــي يبجِّلونهــا- انظــروا إلى الرفيــق ويذرســبون. نحــن مُتواضِعــون، تمامًــا كــما كانــوا متواضعــين... انظــروا إليَّ. نحــنُ رُحَــماء... ".

"لا، لا!" صاح السيد ويذرسبون ذو المعطف المخملي.

"أقــول نحــن رُحَــماء"، كــرَّر جريجــوري باهتيــاج، "تمامًــا كــما كان المســيحيُّون الأوائــل رُحَــماءَ. إلَّا أن ذلــك لم يمنــع اتهامَهــم بــأكل لحــم البشر. ونحــن لا نــأكل لحــم البــشر...".

"هذا عار!" صاح ويذربسون. "ولِمَ لا؟".

"الرفيــق ويذرســبون"، قــال جريجــوري، بابتهــاجٍ محمــومٍ، "تــوَّاقٌ لمعرفة لمــاذا لا يأكلــه أحــد (ضحــكات). في مجتمعنــا، عــلى أيِّ حــال، وهــو مجتمــع يُحبُّــه بإخــلاص، ومُؤسَّــسٌ على الحُــبِّ...".

"لا، لا!" قال ويذرسبون، "يسقط الحب".

"ومُؤسَّسٌ على الحب"، كرَّر جريجوري، صارًّا أسنانه، "لن نجد صعوبةً بشأن الأهداف التي يجب أن نتبعها ككيانٍ، والتي يجب أن أتبعها في حالة اختياري كمُمَثِّلٍ لذلك الكيان. مُتعالين باستخفافٍ عن الافتراءات التي تُصوِّرنا كقَتَلَةٍ وأعداء للمجتمع الإنساني، سنمضي قُدُمًا بشجاعة أخلاقية وأحمال فكريَّة هادئة، أي المثل الدائمة للأخَويَّة والبساطة".

عاد جريجوري إلى مقعده وضغط بيده على جبينه. كان الصمت مُفاجئًا وعصيبًا، لكن رئيس الجلسة نهض كإنسانٍ آليٍّ وقال بصوتٍ باهِتٍ:

"هل يُعارض أيُّ شخصٍ انتخابَ الرفيق جريجوري؟".

بدا التَّجمُّع الحاضر وقد التبس عليه الأمر وخاب أملُه على نحوٍ غير واعٍ، فيما كان الرفيق ويذرسبون يتحرَّك بقَلَقٍ واهتياج في مقعده، مُتمتِمًا من وراء لِحيَتِه الكثيفة. رغم ذلك، وعبر الاندفاع المحضِ للرُّوتين المعتاد فحسب، كان من المفترض تقديمُ الاقتراح وعَرضُه على الحاضرين. لكن رئيس الجلسة كان على وشك فتح فَمِه لتقديمه، عندما قفز سايم على قَدَمَيْه وقال بصوتٍ هادِئٍ وخفيض:

"نعم، سيدي الرئيس، أنا مُعتَرِض".

إن الحقيقة الأكثر فعالية في فَنِّ الخطابة هي أي تغيير غير مُتَوَقَّع في الصوت. وكما هو واضح كان السيد جابرييل سايم على درايَةٍ واضحة بفَنِّ الخطابة. بعد أن قال هذه الكلمات الرَّسميَّة الأولى بنغمة مُعتَدِلَة وبساطَةٍ مختصرة، نَطَقَ بالكلمة التالية برنينٍ وقُوَّةٍ صَدَحَت كما لو كانت بندقيَّةً انطلق عيارُها.

"يا رفاق!"، صاح قائلًا، بصوت جعل كُلَّ رجُلٍ يقفز خارجًا من حذائه، "هل أتينا هنا من أجل هذا؟ هل نعيش تحت الأرض كالجرذان حتَّى نستمع إلى حديث كهذا؟ هذا حديث قد نسمعه أثناء تناوُلِنا الكعكَ في وجبات المدارس الدينية. هل نحشو هذه الجدران بالأسلحة ونُسيِّجُ ذلك البابَ بالموت خشيةَ أن يأتي أحدٌ ويسمع الرفيق جريجوري يقول لنا، "كُن صالِحًا، تَكُنْ سعيدًا"، و"النزاهة هي السياسة المثلى" و"الفضيلة مُكافَأةٌ في حَدِّ ذاتها"؟ لم أسمع بكلمة في خطاب الرفيق جريجوري لن يستمع إليها قِسِّيسٌ بِكُلِّ ابتهاجٍ (صيحات استحسان). لكنني لستُ قِسِّيسًا (هتافات مُتجدِّدة)، الرجل المناسب لأن يكون قِسِّيسًا صالِحًا لا يمكن أن يكون خَميسًا ذا عَزمٍ وتصميمٍ والتزام (صيحات استحسان)".

"أخبرَنا الرفيق جريجوري، بنغمة اعتذاريَّة جدًّا فحسب، أننا لسنا أعداء المجتمع. لكنني أقول إننا أعداء المجتمع، بل أعداء على أسوأ شاكِلَة. نحن أعداء المجتمع؛ لأن المجتمع عدوٌّ للبشرية، عدوُّه الأقدم والأكثر قسوةً (صيحات استحسان). أخبرنا الرفيق جريجوري (بنغمة اعتذاريَّة أيضًا) أننا لسنا قَتَلَةً، لكننا في الحقيقة سَيَّافون (هتافات)".

منذ أن نهض سايم كان جريجوري قد جلس مُحَدِّقًا فيه، يمتلئ وجهه بالحماقة المندهشة. الآن في برهة توقُّفِه القصيرة، تباعَدَت شفتاه المتشقِّقتان وقال، بوضوحٍ آليٍّ، عديم الحياة:

"أنتَ أيُّها المنافق الملعون!".

تطلَّع سايم مباشرةً إلى تلكما العينَيْن المرتعبتين بعينيه الزرقاوين الشاحبتين، وقال بترفُّعٍ:

"يتَّهِمني الرفيق جريجوري بالنِّفاق. يعرف كما أعرف أنني أفي بِكُلِّ تَعهُّداتي وأنني لا أفعل شيئًا سوى واجبي. لا أتصنَّع الكلمات. لا أتظاهر بذلك. أقول إن الرفيق جريجوري لا يصلح أن يكون الخميسَ رغم

خِصالِـه الطَّيِّـبة؛ بـل لا يصلـح أن يكـون الخميـسَ تحديـدًا بسـبب خِصالِـه الطَّيِّـبة. لا نريـد لمجلـس الفوضويّـة الأعـلى أن يُصـاب بعـدوى الرَّحمـة الجَيَّاشـة (صيحـات استحسـان). لا وقـت لدينـا للتـأدُّب الاحتفـالي، ولا هـذا هـو الوقـت المناسـب مـن أجـل التواضُـع الاحتفـالي. أُعلِـنُ اعـتراضي ضـدَّ الرفيـق جريجـوري وضـدَّ كُلِّ حكومـات أوروبـا؛ لأن الفوضـويَّ الـذي يمنـح نفسـه للفوضويـة قـد نـسيَ التَّواضُـعَ بقـدر مـا نَـسِيَ الكبريـاء (هتافـات). لسـتُ إنسـانًا عـلى الإطـلاق. فأنـا قضيـة (مزيـد مـن الهتافـات). أعلـن اعـتراضي عـلى الرفيـق جريجـوري، بمنتهـى التجـرُّد والهـدوء الـذي أختـار بـه مُسدَّسًـا عـلى مُسـدَّسٍ آخـر مـن رفٍّ عـلى الحائـط؛ وأقـول إننـي أُفَضِّـل، بـدلًا مـن جريجـوري وأسـاليبه عـلى طريقـة الحليـب والماء التـي يمارسـها عـلى المجلـس الأعـلى، أن أُقَـدِّمَ نفـسي للانتخـاب...".

تلاشَـت جُملَتُـه في شـلَّال التصفيـق المصِـمِّ لـلآذان. والوجـوه، التـي ازدادت هياجًـا وتوحُّشًـا بالموافقـة مـع ازديـاد خُطبَتِـه المطوَّلـة تَصَلُّبًـا، غَـدَت الآن مُشـوَّهة بتقطيبـات التَّرقُّـب أو مُمزَّقـة بصيحـات الابتهـاج. في اللحظـة التـي أعلـن فيهـا عـن اسـتعداده للتقـدُّم لمنصـب الخميـس، انبثـق هديـرُ الاسـتثارة والتأييـد، وأصبـح خارجًـا عـن السـيطرة، وفي نفـس اللحظـة اندفـع جريجـوري واقِفًـا عـلى قَدَمَيْـه، والزَّبَـدُ ينـدفـع مـن فمـه، وصـاح ضـدَّ الصِّيـاح.

"توقَّفـوا، أيُّهـا المجانـين الحمقـى!" صـاح قائـلًا، بأعـلى طبقـةٍ صَوتيَّـةٍ يتحمَّلهـا حَلقُـه. "توقَّفـوا، أنتـم أيُّهـا...".

لكـن أعـلى مـن صيـاح جريجـوري وأعـلى مـن صخـب الغرفـة انطلـق صـوتُ سـايم، متحدِّثًـا -مـا زال- بقَصـفٍ عديـم الرَّحمَـة:

"لـن أخطـو إلى المجلـس لإنـكار تلـك الافـتراءات التـي تُسـمِّينا بالقتلـة؛ بـل أخطـو لأصبـح جديـرًا بهـا (هتافـات عاليـة وطويلـة). وإلى القـسِّ الذي يقـول إن هـؤلاء الرجـال هـم أعـداء الديـن، وإلى القـاضي الـذي يقـول إن

هـؤلاء الرجـال هـم أعـداء القانـون، إلى البرلمـانيِّ البديـن الـذي يقـول إن هـؤلاء الرجـال هـم أعـداء النظـام والـذَّوق العـام، إلى كل هـؤلاء أقـدِّم إجابتـي، "أنتـم ملـوكٌ زائفـون، لكنَّكـم أنبيـاء حقيقيـون. جئـتُ لأُدمِّرَكـم وأُحقِّـق نبوءاتكـم"".

اختَفَـت الضوضـاء الثقيلـة تدريجيًّـا، لكـن قبـل أن تتوقَّـف تمامًـا نهـضَ ويذرسـبون فجـأةً عـلى قدميـه، بشَـعرِه ولِحيَتِـه، مُنتَصِبَيْن تمامًـا، وقـال:

"ألتمس -كتعديلٍ- تعيينَ الرفيق سايم في المنصب".

"توقَّفـوا عـن كل هـذا، أقـول لكـم!" صـاح جريجـوري، بوجـهٍ ويدَيْـن مسـعورَتَيْن. "أوقفـوه، إنـه شيء...".

لكنَّ صوت رئيس الجلسة شقَّ حديثه إلى نصفين بلهجةٍ باردة.

"هـل يؤيِّـد أيُّ شـخص هـذا التعديـل"، قـال. ثـم شـوهِدَ رَجـلٌ طويـل، مُرهَـقٌ، بعينـين تعلوهـما الكآبَـةُ ولحيـة صغـيرة أمريكيَّـة، في المقعـد الخلفـي ينهـض ببـطء. كان جريجـوري غارقًـا في الصيـاح لبعـض الوقـت حينهـا؛ والآن حـدث تغيُّر في لهجتـه، أصبـح حديثُـه مُثيرًا للاشـمئزاز أكـثرَ مـن كَونِـه صراخًـا. "سـأنهي كُلَّ هـذا"، قـال، بصـوتٍ ثقيـلٍ كالحجـارة.

"لا يمكن انتخابُ هذا الرَّجُل. إنه...".

"نعـم"، قـال سـايم، سـاكِنًا تمامًـا، "مـاذا يكـون؟". تحرَّكَـت شـفتا جريجـوري مرَّتَـيْن لكـن بـلا صـوت؛ ثـم بـدأت الدمـاء في الزحـف ثانيـةً عائـدةً إلى وجهـه الميِّـت. "إنـه رَجُـلٌ بـلا أيِّ خـبرةٍ في عملنـا"؛ قـال وجلـس فجـأةً.

قبـل أن يفعـل هـذا، كان الرجـل النحيل، الطويـل ذو اللحيـة الأمريكية، قـد نهـض ثانيـةً، مُكـرِّرًا بنغمـة رتيبـة أمريكيـة عالية:

"ألتمس تأييدَ انتخاب الرفيق سايم".

"التعديل سيكون، كالعادة، أوّلَ ما يتمُّ تقديمه"، قال السيد باتونز، رئيس الجلسة، باستعجالٍ آليٍّ.

"المسألة هي أن الرفيق سايم...".

كان جريجوري قد نهض واقِفًا ثانيةً، لاهِثًا ومُنفَعِلًا.

"يا رفاق"، صاح قائلًا، "لستُ مجنونًا".

"أوه، أوه!" قال السيد ويذرسبون

"لستُ مجنونًا"، كرَّر جريجوري، بإخلاصٍ مُخيفٍ أدهَشَ القاعة لوَهلَةٍ، "لكنني أمنحكم نصيحةً لكم أن تُسمُّوها مجنونةً إذا شِئتُم. لكن لا، لن أُسمِّيها نصيحةً؛ لأنَّني لا أستطيع تقديم سببٍ لها. سأسمِّيها أمرًا. ليكن أمرًا مجنونًا، وتصرَّفوا على أساسه. اضربوني، لكن اسمعوني! اقتلوني، لكن أطيعوني! لا تنتخبوا هذا الرجل". كانت الحقيقة مريعةً جِدًّا، حتَّى في الأصفاد، لحدٍّ أنه لوهلة، تمايَلَ انتصار سايم المرهَف والمجنون كعود قَصَبٍ. لكن لم يكن بالإمكان استشفافُ ذلك من عينَيْ سايم الزَّرقاوَيْن الباردتين. بدأ فحسب قائلًا:

"يأمر الرفيق جريجوري...".

ثم انكسر السِّحر، وصاح واحِدٌ من الفوضويِّين مُناديًا جريجوري:

"مَّن أنتَ؟ أنتَ لست الأحد"؛ ثم أضاف فوضويٌّ آخر بصوتٍ أكثر حِدَّة، "ولستَ الخميسَ".

"يا رفاق"، صاح جريجوري، بصوتٍ يشبه صوت شهيدٍ تجاوز الإحساس بالألم في نشوة ألمه، "لا أهتمُّ البَتَّةَ بما إذا كُنتم تُبغضونني كمستبدٍّ أو كعَبدٍ. إذا لم تأخذوا بأمري، فاقبلوا إذلالي. أركع أمامكم. ألقي بنفسي على أقدامكم. أتوسَّل إليكم. لا تنتخبوا هذا الرجل".

"رفيق جريجوري"، قال رئيس الجلسة بعد بُرهَةٍ مُؤلِمَةٍ"، هذا ليس وقورًا تمامًا في الحقيقة".

للمـرَّة الأولى في كل مـا حـدث كان هنـاك صَمـتٌ حقيقـيٌ لبضـع ثـوانٍ. ثـم تداعـى جريجـوري ثانيـةً في مقعـده، رُكامَ رَجُـلٍ شـاحب، وكـرَّر رئيـس الجلسـة، كسـاعة ميكانيكيَّـةٍ تبـدأ في الـدَّقِّ ثانيـةً بغتـةً:

"المسـألة هــي انتخـابُ الرفيـق سـايم لمنصـب الخميـس في المجلـس العـام".

تعـالى الصَّخَـبُ كالبحـر، ارتفعـت الأيـدي كالغابـة، وبعـد ذلـك بثـلاث دقائـق تـمَّ انتخـاب السـيد جابرييـل سـايم، مـن خدمـة البوليـس السـرِّيِّ، لمنصـب الخميـس في المجلـس العـام لفوضويِّـي أوروبـا.

بـدا جميـع الجالسـين وكأنهـم يشـعرون بالقـارب البخـاري المسـتلقي عـلى النهـر، وبعصـا السّـيفِ والمسـدَّس، القابِعَـيْن عـلى الطاولـة. في اللحظـة التـي اكتمـل فيهـا الانتخـابُ وأصبـح غـيرَ قابِـلٍ للإلغـاء، وتلقَّـى سـايم الورقـةَ التـي تُثبِـتُ انتخابَـه، نهـض الجميـعُ واقفـين، وتحرَّكـت المجموعات الهائجـة واختلطـت في القاعـة. وجـد سـايم نفسـه، بطريقـة أو بأخـرى، وجهًـا لوجـه أمـام جريجـوري، الـذي كان مـا زال ينظـر لـه بتحديقَـةٍ تملؤهـا الكراهيـة المذهولـة. كانـا صامِتَـيْن لبضـع دقائـق.

"أنتَ شيطان!" قال جريجوري أخيرًا.

"وأنتَ چنتلمان"، قال سايم بوقارٍ.

"أنـتَ مَـن نَصَـبَ لي الفَـخَّ"، بـدأ جريجـوري، مُرتَعِشًـا مـن رأسـه إلى قدَمَيْـه، "للسُّـقوط في...".

"تَعقَّـلْ"، قـال سـايم باختصـار. "في أيِّ نـوع مـن برلمـان الشـياطين أوقَعتَنـي أنـتَ، إذا تكلَّمنـا عـن الفخـاخ؟ جَعَلتَنـي أقسـم قبـل أن أدفَعَـكَ إلى الفَـخِّ. ربمـا نحـن الاثنـين فعلنـا مـا نعتقـد أنـه صـواب. لكـن مـا يعتقـده كلٌّ منَّـا يختلـف تمامًـا عـن بعضـه البعـض، لحـدِّ أنْ لا شيء بيننـا

حتى نتجادَلَ بشأنه. لا يوجد شيء مُمكِنٌ بيننا سوى الشَّرَف والموت"، ثم سحب رداءه الهائل على كتفه والتقط القِنِّينَةَ من الطاولة.

"القارب ينتظر"، قال السيد باتونز، حاثًّا إيَّاه على الإسراع. "تَفضَّل بالمرور من هنا".

بإيماءة كشَفَت عن مهنته كمستخدَمٍ في متجر تجزئة، قاد سايم عبر مَمَرٍّ قصير، مُبَطَّنٍ بالحديد، يتبعهما جريجوري الغارِقُ في ألمه ما زال. في نهاية الممرِّ كان هناك باب، فتحه باتونز بحدَّة، كاشِفًا عن صورة زرقاء وفضِّيَّة مُفاجِئَة للنهر الغارق في ضوء القمر، وهو ما بدا كمشهدٍ في مسرحية. بالقرب من الباب المفتوح كان يستقرُّ قارِبٌ بُخاريٌّ مُظلِمٌ صغير جدًّا، كتِنِّينٍ رضيعٍ بِعَيْنٍ حمراءَ واحدة.

بعدما خطا جابرييل سايم على الَّلوح، استدار على الفور إلى جريجوري فاغِرِ الفِيه.

"لقد أوفيتَ بوَعدِكَ"، قال برقَّة، ووجهه في الظلام. "أنتَ رَجُلٌ شريفٌ، أشكُرُكَ. حافَظتَ على السِّرِّ حتى أصغر تفصيلَةٍ. هناك شيءٌ واحد بعَينِه وَعَدتَني به في بداية المسألة، ثم مَنَحتَني إيَّاه بالتأكيد في نهايتها".

"ماذا تقصد؟" صاح جريجوري المشوَّش. "بماذا وَعَدتُكَ؟".

"وَعَدتَني بأمسيةٍ مُسلِّيةٍ جدًّا"، قال سايم، ثم ألقى تحيَّةً عسكريَّةً بعصا السيف مع تَهادي القارب البُخاريِّ بعيدًا.

الفصل الرابع

حِكايَةُ مُحقّقٍ سِرّيٍّ

لم يَكُن جابرييل سايم مجرَّدَ مُحقِّقٍ سِرِّيٍّ تظاهَر أنه شاعِرٌ؛ كان في الحقيقة شاعِرًا تَحوَّل إلى مُحقِّقٍ سِرِّيٍّ. كذلك لم تكن كراهيته للفوضويَّة مُدَّعِيَة وغيرَ صادقة. كان واحدًا من هؤلاء الرجال الذين اندفعوا في بداية حياتهم في اتِّجاهٍ مُحافِظٍ للغاية لا يناسب الحماقة المذهلة لأغلب الثوريِّين. لم يُحقِّق ذلك عبر أي تقليدٍ لترويض النفس. كان طابعه المحترم عفويًّا ومُفاجئًا، ثورة ضدَّ الثورة. جاء من عائِلَةٍ من المهاويس، يتَّسِمُ العجائز فيها جميعهم بأفكار جديدةٍ تمامًا. واحد من أعمامه كان دائمًا ما يمشي بلا قُبَّعة، وآخر حاوَلَ ذات مرة بلا نجاح أن يسير بقُبَّعَةٍ ولا شيء آخر. كان أبوه يُشجِّع الفنَّ وتحقيق الذات، وأُمُّه نصيرة للبساطة والنظافة الجَسديَّة. وبالتالي فإن طفولته -في سنواته الهَشَّة- كانت جاهِلَةً بالكامل بأي مشروب بين نقيضَيْ

الأفسنتين[1] والكاكاو البريء، وكلاهما كان يحظى لديه بكراهيَةٍ صِحِّيَّة. كُلَّما وَعَظَته أُمُّه بتزمُّتٍ أقوى من البيوريتانيّة كُلَّما اتَّجه أبوه إلى منحنى أقوى من الوَثَنيَّة؛ ومع مرور الوقت انتهت الأولى إلى فرض المذهب النباتي، وانتهى الأخيرُ إلى الدفاع عن أكل لحوم البشر.

مُحاطًا منذ طفولته بكل نوعٍ مُتخيَّل من التَّمرُّد والثورة، كان على جابرييل أن يثور لتحقيق شيءٍ ما؛ لذلك تمرَّد لتَحقيقِ الشَّيء الوحيد المتبقِّي: سلامة عقله. لكن حينها لم يَعُد في داخله من دماء هؤلاء المتعصِّبين إلَّا ما يكفي بالكاد لمنح احتجاجه من أجل الحسِّ السليم الحدَّ الأدنى من الشراسة المطلوبة. تُوِّجَت كراهيته للفوضى الحديثة كذلك بحادِثة. كان يسير ذات مرَّةٍ في شارعٍ جانبيٍّ عندما وقع هجومٌ بالديناميت. أصابه العمى والصَّمَمُ لِلَحظَةٍ، ثم رأى -بعد انجلاء الدُّخان- النَّوافِذَ المحطَّمة والوجوهَ النازفة. بعدها مضى في طريقه كالمعتاد- هادئًا، مُجامِلًا، ورقيقًا بعضَ الشيء، لكن في عقله أضْحَت بُقعَةٌ بعينها غيرَ سَليمَةٍ عَقليًّا. لم يكن ينظر إلى الفوضويِّين، كما ينظر مُعظَمُنا، على أنهم حفنةٌ من الرجال غير الأسوياء، يجمعون بين الجهل والعقلانية. بل كان ينظر إليهم كخَطَرٍ هائِل غير جدير بالشَّفَقة، كغزوٍ صينيٍّ.

دومًا كان يصبُّ في الصحف وسِلالِ مُخلَّفاتهم شَلَّالًا من القصص والأشعار والمقالات العنيفة، مُحَذِّرًا الرجالَ من فيضان الإنكار البربريِّ هذا. لكن لم يَبدُ أنه كان يقترب من عَدوِّه بأيِّ شكل، بل والأدهى، أنه لم يكن يقترب من أيِّ شخصٍ حيٍّ. أثناء كان من عادته أثناء سَيْرِه على جسر التيمز أن يعضَّ بمرارَةٍ على سيجارٍ رخيص ويتأمَّل في مسألة ازدهار الفَوضويَّة، لم يكن في جَعبَةِ أيِّ فَوضَويٍّ قُنبلةٌ تُضاهي شِدَّةَ وَحشَتِه وعُزلَتِه. في واقع الأمر، دائمًا ما كان يشعر أن الحكومة تَقِفُ

(1) من أقوى المشروبات الكحولية- (المترجم)

وحيدةً ويائسة، بِظَهرِها على الحائط. كان شديدَ التَّوَهُّم لحدٍّ يمنعه أن يفكّر في المسألة بشكلٍ آخر.

كان يسير على الجسر ذات مرّةٍ تحت الغروب الأحمر القاتم. النهر الأحمر يعكس الشمسَ الحمراء، وكلاهما يَعكِسان غَضَبَه. السماء داكنة جدًّا والضوء على النهر مُتَوهِّج جدًّا بالقياس إليها، لِحَدٍّ أن الماء بدا تقريبًا كَلَهَبٍ أكثرَ شراسَةً من الغروب الذي يعكسه. بدا حرفيًّا كتيّارٍ من النار يلتفُّ تحت الكهوف الشاسِعَة لبلاد ما تحت النَّهر.

في تلك الأيام كان رَثَّ الملابس. يرتدي قُبَّعةً سوداء على طراز قديمٍ تُشبِه قِدْرَ المدخَنَةِ، تلفُّه عباءةٌ على طرازٍ أقدمَ، سوداءَ ومُشعَّثة؛ منحتاه مَنظَرَ الأشرار الأوائل في روايات ديكنز وبولوير ليتون. لِحيَتُه وشَعرُه الأصفر أيضًا كانا أكثرَ تَوحُّشًا وحيوانيَّةً ممَّا أصبحا عليه بعد ذلك بزمنٍ طويل؛ مُهذَّبان ومُستَدقّان على مروج سافرون بارك. من بين أسنانه المزمومة يَبرُزُ سيجارٌ أسود، رفيعٌ وطويل، اشتراه في سوهو مقابِلَ بِنسَيْن، وبهذا كُلِّه بدا كعَيِّنَةٍ مَقبولَةٍ جدًّا من الفوضويِّين الذين كان قد أقسم بشَنِّ حربٍ مُقدَّسة عليهم. ربما لهذا تحدَّث إليه رجلُ شُرطَةٍ على الجسر، وقال له، "مساؤكَ طَيِّب".

بدا سايم، في خِضَمِّ أزمة مخاوفه المرضيَّة من أجل الإنسانية، وقد لَدَغَه تَبَلُّدُ الحِسِّ التلقائي الرسمي الذي خلقه ظهور اللون الأزرق في الشَّفَق.

"هل هو مساءٌ طيِّبٌ حقًّا؟" قال بحِدَّة. "أنتم معشر الشُّرطَة تدعون نهايةَ العالم بالمساء الطيب. انظر إلى الشمس الحمراء الدامية وإلى ذلك النهر الدامي! أُخبِرُكَ أنه إذا كان دمًا بشريًّا حرفيًّا، مسفوحًا ومتألِّقًا، فإنكم ستقفون هنا، رغم ذلك، مُتَبلِّدي الحِسِّ كما أنتم أبدًا، تبحثون عن صُعلوكٍ بائِسٍ ما يُمكِنُكم دَفعُه أمامكم. أنتم الشُّرطيُّون

قُساةٌ على الفُقَراء، لكن بإمكاني أن أسامح قَسوَتكم إذا لم تكونوا بهذا الهدوء والبرود".

"إذا كُنّا بهذا الهدوء"، أجابه رجلُ الشرطة"، "فهو هدوء المقاومة المنظَّمة".

"أها؟" قال سايم، مُحَملِقًا.

"الجُنديُّ يجب أن يكون هادئًا في مَعمَعَةِ المعركة"، تابع الشُّرطيُّ. "رباطة جأش الجيوش هو غضب الأمم".

"يا إلهي، هي المدارس غير الطَّائِفيَّة!" قال سايم. "هل هذا هو التعليم غير الطائفي؟".

"لا"، قال الشُّرطيُّ بحُزنٍ، "لم أَنَل أبدًا أيًا من هذه المزايا. ظَهَرَت المدارس غير الطائِفيَّة بعد زماني. أخشى أن ما نِلتُه من تعليمٍ كان قاسيًا جدًّا وعلى طِرازٍ قديم".

"أين تَلقَّيتَه؟" سأله سايم، مُتعجِّبًا.

"أوه، في هارُّو"، قال الشرطيُّ.

انفجر التَّعاطُف الطَّبَقيُّ من سايم قبل أن يتمكَّن من السيطرة عليه؛ وهو تعاطُفٌ -رغم زيفه- يُمثِّل أصدقَ شيء لدى كثير من الرجال.

"لكن، يا إلهي"، قال سايم، "لم يكن ينبغي لك أن تكون شرطيًّا!".

تنهَّد الشُّرطيُّ وهزَّ رأسه.

"أعرف"، قال مُتَجهِّمًا، "أعرف أنني غير جدير بهذا".

"لكن لماذا التحقت بالشرطة؟" سأله سايم بفضولٍ وَقِح.

"غالبًا لنفس السبب الذي من أجله أسَأتُم الظَّنَّ في الشرطة"، أجاب الآخر "اكتَشَفتُ وجود إعلانٍ خاصٍّ للالتحاق بالخدمة لهؤلاء

الـذي تتعلَّق مخاوفهـم مـن أجـل الإنسـانية، بالأحـرى، بانحرافـات الفكـر العِلمـيِّ وليـس بانفجـارات الإرادة البشريَّـة الطبيعيـة والمغتَفَـرَة، والمتطرِّفة رغـم ذلـك. أنـا عـلى ثِقَـةٍ أننـي أوضَحـتُ المسـألة".

"إذا كُنـتَ تعنـي أنَّـكَ أوضَحـتَ رأيَـكَ"، قـال سـايم، "فأظـنُّ أنْ فَعَلـتَ. لكـن أنَّـكَ أوضَحـتَ المسـألة، فهـو آخِـرُ شيءٍ قـد تكـون فَعَلتَـه. كيـف يتـأتَّى لرَجُـلٍ مثلـك أن يتحـدَّث عـن الفلسـفة وهـو يرتـدي خـوذةً زَرقـاءَ عـلى جـسر نهـر التيمـز؟".

"لم تسـمع بالتأكيـد عـن آخـر تَطَـوُّرٍ في نظامنـا الشُّرطـي"، أجابـه الآخـر. "لا أسـتغرب هـذا. فنحـن نبقـي عـلى الأمـر سِرًّا عـن الطبقـة المتعلِّمـة؛ لأن تلـك الطبقـة تَضُـمُّ معظـم أعدائنـا. لكنـك تبـدو في نفـس الإطـار العقـلي بالضبـط. أعتقـد أنـه ينبغـي عليـك الانضـمام لنـا".

"أنضمُّ إليكم في ماذا؟" سأله سايم.

"سـأُخبِرُكَ"، أجابـه الشرطـيُّ ببُـطءٍ. "هـذا هـو الوضـع: رئيـسٌ واحـد مـن أقسـامنا، واحِـدٌ مـن أشـهر رجـال التَّحـرِّي في أوروبـا، طالمـا كان مـن أنصـار الـرأي القائـل بـأن مؤامَـرَةً فِكريَّـةً مَحضَـةً سـتُهدِّد قريبًـا جوهـر وجـود الحضـارة. وهـو عـلى يقـين بـأن دوائـر الفـن والعلـم مُنخَرِطَـة بصَمـتٍ في حملـة عنيفـة ضـدَّ فكـرة العائلـة والدولـة؛ لذلـك قـام بتشـكيل فَيْلَـقٍ خـاص مـن الشرطيـين، شرطيـين هـم فلاسـفة في نفـس الوقـت. وتنحـصر مسـؤوليَّتُهم في مُراقَبَـةِ بدايـات هـذه المؤامـرة، ليـس فقـط بالمعنـى الإجرامـي، ولكـن أيضًـا بالمعنـى الجَـدَليُّ. أنـا نفـسي ديمقراطـيٌّ، عـلى وَعـيٍ كامـل بقيمـة الإنسـان العـادي في مسـائل الفضيلـة والشـجاعة العادِيَّـة. بالتـالي ليـس مـن المسـتَحَبِّ أبـدًا اسـتخدام الشرطـي العـادي في تحقيقـاتٍ هـي أيضًـا اصطيـادٌ للهَراطِقَـة".

كانت عينا سايم تَبرُقان بفُضولٍ مُتعاطِف.

"ماذا تفعل، إذن" سأله.

"عمـل الشرطـي الفيلسـوف"، أجابـه الرجـل ذو الـزّيِّ الأزرق، "هـو في آنٍ أكـثر شـجاعةً وأكـثر براعـةً مـن عمـل التَّحـرِّي العـادي. فرَجُـل التَّحـرِّي العـادي يذهـب إلى الحانـات سـيِّئة السُّـمعة حتـى يقبـض عـلى اللصـوص، بينـما نذهـب نحـن إلى حفـلات الشـاي والفـن للبحـث عـن المتشـائمين. رجـل التَّحـرِّي العـادي يكتشـف مـن دفـتر حسـاباتٍ أو يوميَّـاتٍ أن جريمـةً قـد ارتُكِبَـت. بينـما نكتشـف مـن كتـابٍ لشـعر السـونيتات أن جريمـةً ستُرتَكَبُ. يتوجَّـب علينـا تتَبُّـع مَنشَـأ وأصـل هـذه الأفـكار المريعـة التـي تقـود الرجـال لِتَصِـلَ بهـم في النهايـة إلى التَّعصُّـب الفكـري والجرائـم الفكريـة. وصلنـا في آخـر لحظـة تمامًـا لمنـع جريمـة اغتيـال في هارتلبـول، وكل هـذا بالكامـل يرجـع لحقيقـة أن السـيد ويلكـس (شرطـي شـاب ذكي) قـد نجـح في فهـم قصيـدة تريوليـت مـن ثمانيـة أبيـات بالكامـل".

"هـل تعنـي"، سـأله سـايم، "أنـه توجـد صِلَـةٌ حقًّـا بـين الجريمـة والفكـر الحديـث كما تقـول؟".

"لسـتَ ديمقراطيًّـا بمـا يكفـي"، أجابـه الشرطـي، "لكـن أصَبـتَ عندمـا قلـتَ لِتَـوِّكَ إنَّ تَعامُلَنـا العـاديَّ مـع ذلـك المجـرِمِ الفقـير كان في غايـة الوَحشـيَّة. أقـول لـك إنـه أحيانًـا مـا يصيبنـي السَّـقَم مـن مِهنَتـي عندمـا أرى أن الأمـر لم يَعُـد سـوى حَـربٍ لا تنتهـي عـلى الجَهَلَـةِ والبائسـين. لكـن حركتنـا الجديـدة هـذه هـي أمـرٌ مُختَلِـف تمامًـا. نُنكِـر الادِّعـاءَ الإنجليـزي المتَغطـرِسَ أن غـير المتعلِّمـين مُجرِمـون خَطِـرون بالفطـرة. نتذكَّـر الأباطـرة الرومـان. نتذكَّـر أُمَـراءَ عَصرِ النَّهضَـة العِظـام الذيـن اعتـادوا القتلَ بالسُّـمِّ. نقـول إن المجـرم الخطـير هـو المجـرم المتعلِّـم. نقـول إن المجـرم الخطـير في الأغلـب هـو الفيلسـوف الحديـث الخـارج عـن القانـون بالكامـل. بالمقارَنَـة بـه، فـإن اللصـوص ومُتعـدِّدو الزوجـات هـم رجـالٌ أخلاقيُّـون في جوهرهم؛ قلبـي يميـل لهـم. فهـم يَقبَلـون الفِكـرَةَ الجَوهريَّة للإنسـان؛ لكنهـم يبحثـون عنهـا بشـكلٍ خاطـئ فحَسْـبُ. يحـترم اللصـوص مبـدأ الملكيَّـة. هـم فقـط يتَمَنَّـون أن تكـون الممتلـكات لهـم حتـى يحترمـوا المِلْكيَّـة بشـكل أفضـل.

لكـن الفلاسـفة يـزدرون الملكيَّـة في حَـدِّ ذاتهـا؛ يتوقـون إلى تدمـير فكـرة الحيـازة الشـخصية في جوهرهـا. يحـترم مُتعـدِّدو الزَّوجـاتِ مبـدأ الـزواج، وإلَّا فلـم يكـن لهـم أن يذهبـوا بعيـدًا في الشـكلية الاحتفاليـة وحتَّـى الطقوسـية في زيجاتهـم المتعـدِّدة. لكـن الفلاسـفة يحتقـرون الزَّواجَ كـزَواجٍ. والقَتَلَـة، يحترمـون الحيـاة البشريـة؛ لكنهـم يتوقـون فحسـب إلى اقتنـاص اكتـمال أكـبر للحيـاة البشريـة في ذواتهـم عـبر التضحيـة بمَـن يَبـدون لهـم ذوو حيـاةٍ أقـلَّ قيمـة. لكـن الفلاسـفة يكرهـون الحيـاة نفسـها، حياتهـم نفسـها بقـدر حيـوات الآخريـن".

هزَّ سايم يديه مُوافِقًا.

"كـم أن هـذا صحيـح"، صـاح قائـلًا. "طالمـا شـعرتُ بـه منـذ طفولتـي، لكـن أبـدًا لم أجـد التَّضـادَّ الشَّـفهيَّ المناسِـب. المجـرم العـادي هـو إنسـان سـيِّئ، لكنـه عـلى الأقـل، في حقيقـة الأمـر، إنسـان صالـح مُعلَّـق عـلى شروطٍ مُعيَّنَـة. يقـول إنـه إذا أُزيلَـت عقبـة بعينهـا -لِنَقُـل عَـمٌّ ثـريٌّ- فإنـه مُسـتعِدٌّ لقبـول الكـون وتمجيـد الله. إنـه مُصلِـح، لكـن ليـس فوضويًّـا. يتـوق إلى تطهـير البنيـان الأكـبر، لكـن ليـس إلى تدمـيره. لكـن الفيلسـوف اللعـين لا يسـعى إلى تبديـل الأشـياء، بـل إلى إبادتهـا. نعـم، لقـد احتفـظ العالَـمُ الجديـد بـكل تلـك النواحـي مـن العمـل الشُّرَطـيِّ القمعيَّـة والمخزيـة حقًّـا، تعذيـب الفقـراء، التَّلصُّـص عـلى البائسـين سـيِّئي الحـظ. وتخـلَّى عـن عملـه الأكـثر جـلالًا، عقـاب الخَوَنَـة ذوي القُـدرَة في الدولـة والمَهرطِقـين ذوي القـدرة في الكنيسـة. يقـول أصحـاب الآراء العصريـة إن علينـا ألَّا نُعاقِـبَ المَهرطِقـين. شـكِّي الوحيـد هـو مـا إذا كُنَّـا نَملِـكُ الحـقَّ في مُعاقَبَـة أيِّ شـخصٍ آخـر".

"لكـن هـذا عَبـثٌ!"، صـاح الشرطـي، وضـمَّ بـين يديـه باسـتثارةٍ غـير معتـادة عـلى الأشـخاص مـن هيئتـه وزِيِّـه، "لكـن هـذا غـير مقبـول! لا أعـرف مـاذا تفعـل، لكنَّـك تُبـدِّدُ حياتَـك. عليـكَ أن تنضـمَّ -وسـتفعل

ذلك حتمًا- إلى جيشنا المكرّس ضدّ الفوضويّة. جيوشها على حدودنا. صاعِقَتُها على وشك أن تقع على رؤوسنا. لحظة واحدة أخرى، وقد تفقد مجدَ العمل معنا، وربما مجد الموت مع آخر أبطال العالَم".

"إنها فرصة لا تُفَوَّتُ، بالتأكيد"، وافقه سايم"، "لكنني لا زِلتُ لا أفهم تمامًا. أعرف كما يعرف الجميع أن العالم الحديث يمتلئ برجال صغار فوضويِّين وحركات صغيرة مجنونة. لكنهم، رغم همجيَّتِهم، يتمتَّعون في العموم بمَزِيَّةٍ وحيدة؛ هي الاختلاف بين بعضهم البعض. كيف يُمكِنُكَ أن تتحدَّث عن قيادتهم لجَيشٍ واحد أو قَذفِهم لصاعقة. أي نوع من الفوضوية هذا؟".

"لا تَخلِطْ بينها"، أجابه الكونتسابل، "وبين انفجارات الديناميت الفُجائيّة تلك التي تقع في روسيا أو في أيرلندا، وهي انفجارات رجالٍ مقموعين في الظاهر. لكن ما أتحدَّث عنه هو حركة فلسفيَّة واسعة، تتشكَّل من حلقة خارجيَّة وأخرى داخلية. لك أن تدعو الحلقة الخارجيَّة باسم العلمانية والداخلية باسم الكهنوت. لكنني أفضِّل أن أدعو الحلقة الخارجية باسم القطاع البريء، والداخلية بالقطاع المذنِب على نحو مُريعٍ. الحلقة الخارجية -الكتلة الرئيسة من داعمي الحركة- تتكوَّن من مُجرَّد فَوضويِّين؛ أيْ رجال يعتقدون أن القواعد والمُثُل قد دمَّرت السعادة الإنسانية. يعتقدون بأن النتائج الشريرة للجريمة الإنسانية هي نتيجة النظام الذي أطلق عليها اسم جريمة. لا يعتقدون أن الجريمة مُنشِئَةٌ للعقاب، بل يؤمنون أن العقاب هو ما أوجد الجريمة. يؤمنون بأنه إذا نجح رَجُلٌ في إغواء سَبعِ نسوةٍ فله أن يمضي بلا لَومٍ ولا عقاب كزهور الربيع. ويؤمنون بأنه إذا قام رجلٌ بِنَشلِ أحدِهم، فله أن ينتابه شعورٌ في غاية الرَّوعَة. هؤلاء مَن أدعوهم بالقطاع البريء".

"أوه!" قال سايم.

"بالطَّبع، لذلك، فإن هؤلاء الناس يتحدَّثون عن أشياء من قبيل "مجيء زمن سعيد"؛ "فردوس المستقبل"؛ "تحرُّر النوع الإنساني من عبودية الرذيلة وعبودية الفضيلة". وهكذا أيضًا يتحدَّث رجال الدائرة الداخلية- الكهنوت المقدَّس. يتحدَّثون للجموع المصَفِّقة عن السعادة في المستقبل، وتحرُّر النوع الإنساني في النهاية. لكن في أفواههم" -وهنا أخفض الشرطي صوته- "في أفواههم تتَّخِذُ هذه العبارات السعيدة معنًى مُريعًا. ليسوا فريسةً لأي أوهام؛ بل عقلانيِّين جدًّا لدرجة أن يظُنُّوا أن الإنسان على هذه الأرض بإمكانه التحرُّر تمامًا من الصراع والخطيئة الأصلية، وبهذا يقصدون الموت. عندما يقولون إن النوع الإنساني سيصبح حرًّا في نهاية المطاف، فهم يقصدون أن النوع الإنساني سينتحر. عندما يتحدَّثون عن الفردوس بلا صوابٍ أو خطأ، فهم يقصدون القبر".

"ليس أمامهم سوى هدَفَيْن، تدمير الإنسانية أولًا ثم أنفسهم. وهذا هو سبب إلقائهم للقنابل بدلًا من إطلاق النَّار من المسدَّسات. الطوابير والرُّتَب البريئة خاب أملها لأن القنبلة لم تَقتُل الملك؛ لكنَّ الكهنوتَ العالي سعيدٌ لأنها قَتَلَت شخصًا ما".

"كيف يمكنني الانضمامُ لكم؟"، سأله سايم، متحمِّسًا بعض الشيء.

"أعرف -كحقيقَةٍ- أنه يوجد مكانٌ شاغِرٌ الآن"، قال الشرطي، "فقد تشرَّفتُ أن أحوز بشكلٍ ما ثِقَةَ الرئيس الذي حدَّثتُكَ عنه. ينبغي عليك حقًّا أن تأتي وتراه. أو بالأحرى، ليس أن تراه بالضَّبط، فلا أحد يراه؛ لكن بإمكانك التَّحدُّث إليه إذا شِئتَ".

"عبر الهاتف؟" تساءل سايم باهتمام.

"لا"، قال الشرطي بهدوء، "لكنه يحب الجلوس في غرفَةٍ حالِكَةِ الظَّلام. يقول إن ذلك يجعل أفكاره أكثر إشراقًا. يمكنك المجيء والتحدُّث إليه فيها".

مُنبَهِرًا ومُستثارًا جدًّا بشكلٍ ما، استسلم سايم لقيادته إلى بابٍ جانبيٍّ في صَفِّ المباني الطويل لسكوتلاند يارد. وقبل أن يدرك ما يحدث، كان قد تَناقَلَته أيادي حوالي أربعة من الوسطاء، وأصبح فجأةً داخل غرفة، جَفلَته بسوادها المفاجئ كلهيبٍ من الضوء. لم يكن ظلامًا عاديًا، يمكن فيه تَتَبُّعُ الأشكال على نحوٍ ضعيف؛ بل ظلام أعمى كالحجارة.

"هل أنت المجنَّد الجديد؟" سأله صوتٌ عميق.

وبطريقةٍ عجيبة ما، رغم أنه لم يوجد ظِلٌّ للشَّكل في هذا الظلام المطلَق، إلَّا أن سايم تمكَّن من معرفة شيئَيْن: أوَّلًا، أن الصوت قد صدر عن رجلٍ ذي حجمٍ هائل؛ وثانيًا، أن الرجل كان يُوليه ظَهرَه.

"هل أنت المجنَّد الجديد؟" سأله الرئيس غير المرئي، الذي بدا أنه عرف كل شيء عن الأمر. "حسنًا، أصبَحتَ مُستَخدَمًا".

أبدى سايم، وقد أخذته المفاجئة، مُعارَضَةً خافِتَةً ضِدَّ هذه العبارة الحاسِمة النهائية.

"لكنِّي لا أتمتَّع بأي خبرة"، بدأ قائلًا.

"لا أحد يتمتَّع بأي خبرة"، قال الآخر، "في معركة هرمجدون".

"لكنَّني لا أصلح حقًّا...".

"لديكَ الاستعداد، وهذا يكفي"، قال الرجل المجهول.

"حسنًا، حقًّا"، قال سايم، "لا أعرف ما هي المهنة التي تكتفي بالاستعداد فحسب كاختبارٍ نهائيٍّ".

"أنا أعرف"، قال الآخر، "الشهداء. أدينك بالموت. طاب يومك".

بذلك، عندما خرج جابرييل سايم ثانيةً إلى نور المساء القرمزي، في قُبَّعته السوداء البالية، وعباءته المتمرِّدة الرَّثَّة، خرجَ وقد أصبح عضوًا

في "فيلق رجال التحرِّي الجُدُد" بهدف إحباط المؤامرة الكبرى. عملًا بنصيحة صديقه الشرطي (الذي كان يميل إلى التأنُّق بدافعٍ من مهنته)؛ قام سايم بتشذيب شَعرِه ولِحيَتِه، اشترى قُبَّعَةً جميلة، وارتدى حُلَّةً صيفية رائعة باللون الرمادي المزرَّق الفاتح، بزهرة صفراء شاحبة في العروة. باختصار، أصبح ذلك الشَّخصَ المتأنِّق، غير المحتمل بعض الشيء، الذي قابَلَه جريجوري لأول مرة في حديقة سافرون بارك الصغيرة. وقبل أن يُغادِرَ مَقرَّ الشرطة في نهاية الأمر، زوَّده صديقه ببطاقة زرقاء صغيرة، كُتِب عليها، "الحملة الصليبية الأخيرة"، ورقم وشعار سُلطَتِه الرسمية. وضع سايم البطاقة بعنايَةٍ في جيب معطفه العلوي، وأشعل سيجارة، وانطلق قُدُمًا لتَعقُّب محاربة الأعداء في كل قاعات الاستقبال والحفلات في لندن. وقد رأينا لتوِّنا إلى أين انتهت به مغامراته. في حوالي الساعة الواحدة والنصف في إحدى ليالي فبراير وجد نفسه يَمخُرُ عباب التيمز الساكن في قارب صغير، مُسلَّحًا بعصًا سيفيَّةٍ ومُسدَّسٍ؛ بصِفَتِه الخميسَ المنتَخَبَ أصولًا لمجلس الفوضويِّيْن الأعلى.

عندما خطا سايم خارجًا ليستقلَّ القارب الصغير راودَه شعورٌ عجيب بأنه يخطو إلى شيء ما جديد تمامًا؛ ليس فحسب إلى مشهد أرض جديدة، بل إلى مشهد كوكب جديد. كان هذا الشُّعور نتيجةً مُباشَرَةً للقرار المجنون، الصارم رغم ذلك، الذي اتَّخذَ تلك الأُمسيَةَ، رغم أنه يرجع أيضًا إلى التَّغيُّر الكامل الذي حدث في الطقس والسماء منذ أن دخل إلى الحانة الصغيرة منذ ساعَتَيْن. كان الرِّيشُ الحَميميُّ الذي يملأ سُحُبَ الغروب قد انزاح بالكامل، وبرزَ القَمَرُ العاري في سماءٍ عاريَةٍ. كان القمر في غاية القوَّة والاكتمال، وبدا (عبرَ مُقارَنَةٍ ستنعقد كثيرًا بعد هذا) كشمسٍ ضعيفة. كان يمنح، ليس سُطوعًا قَمريًّا مُبهِرًا، لكن ضَوءَ نهارٍ مَيِّتٍ بالأحرى.

عـبر المشـهد بأكملـه انتـشَرَت لطخَـةٌ هائِلَـةٌ مـن الألـوان، مُبهِـرَة وغـير طبيعيـة، وكأنهـا ضـوءُ الشَّـفَق المشـؤوم الـذي تحـدَّث ميلتـون عنـه مسـفوحًا عـلى يَـدِ الشـمس في كسـوفها؛ بذلـك سـقط سـايم بسـهولةٍ فريسـةً لفكرتـه الأولى، أنـه كان في الحقيقـة عـلى كوكـب آخـر مـا أكـثر فراغًـا، يـدور حـول نجـم مـا أكـثر حُزنًـا. لكـن كلَّـما زاد شـعورٌ بهـذا الخـراب المتلألـئ في الأرض الغارقـة في ضـوء القمـر، كلَّـما تَوهَّجَـت حماقتـه النَّبيلَـةُ في الليـل كنـارٍ عظيمـة. حتـى الأشـياء العاديـة التـي كان يحملهـا -الطعـام والبرانـدي والمسـدس المحشـو- اكتسـبت تمامًـا تلـك الشِّـعريَّةَ الملموسـة والمادِّيَّـة. العصـا السـيفية وقنينـة البرانـدي، رغـم أنهـما في حَـدِّ ذاتهـما مجـرَّد أدوات للمتآمريـن المروِّعـين، أصبحتـا تعبـيراتٍ عـن رومانسـيته الأكـثر عافيـةً. أصبحـت العصـا السـيفية وكأنهـا تقريبًـا سـيفُ فروسـيَّةٍ، والبرانـدي كنبيـذ في كأس وداع الفرسـان. ولأن حتَّـى الخيـالات الحديثـة غـير البشريـة تعتمـد عـلى شـخصيَّةٍ بشريَّـة مـا أكـثر بسـاطةً وقِدمًـا، فقـد تكـون المغامـرات مجنونـة، لكـن المغامـر يتوجَّـب أن يكـون عاقـلًا. التِّنِّـين بـدون القدِّيـس چورچ لـن يكـون سـوى مُجـرَّد شـكلٍ بَشِـعٍ. بالتـالي فـإن هـذا المشـهد غـير البـشري كان مُتخَيَّـلًا فحسـب بسـبب حضـور رَجُـلٍ بَـشَريٍّ حقًّـا. في نظـر سـايم وعقلـه التهويـلي، فـإن المنـازل والشرفـات الكئيبـة المبهـرة لنهـر التيمـز بَـدَت خاوِيَـةً كجبـال القمـر. لكـن حتـى القمـر كان شـاعريًا بسـبب وجـود إنسـان عـلى القمـر.

عـلى القـارب الصغـير كان يعمـل رجـلان، وبمشـقَّةٍ انطلـق القـارب ببطءٍ نِسبيٍّ. القمـر الصـافي الـذي أضـاء تشيسـويك قـد هبـط الآن مـع عبورهـم لباتيرسـا، وعدمـا وصلـوا إلى المبنـى الهائـل لويستمنسـتر كان النهـار قـد بدأ في الانبـلاج. انبثـق كانشـقاقِ أعمِـدَة رصـاصٍ هائلـة، كاشِـفةً عـن أعمـدة مـن الفضَّـة، وهـذه كانـت ساطِعَةً كنـارٍ بيضـاءَ، وعندمـا اسـتدار القـارِبُ، مُغَيِّرًا مسـارَه قُدُمًـا، تحوَّلَـت تلـك الأعمـدة إلى رصيـفِ إنـزالٍ هائـل وراء مَعـبَرِ تشـيرنج.

عندما تطلَّع سايم لأعلى إليها، بَدَت أحجار الجسر العظيمة قاتِمَةً وهائِلَةَ الحجم. كانت ضَخمَةً وسوداء على خلفيَّة الفجر الأبيض المهول. خَلَقَت في سايم شعورًا بأنه كان يستقرُّ عند الدَّرَجات العظيمة لقَصرٍ مصريٍّ ما؛ وحقًّا، لاءَمَ هذا الشيءُ مِزاجَه، فقد كان مُجهَّزًا، في مُخيِّلته، لبدء الهجوم على العروش الرَّاسِخَة للملوك الوَثنيِّين المرعبين. قَفزَ خارجًا من القارب على درجةٍ مُوحِلَةٍ، وانتصب، في هيئته القاتمة الهزيلة، بين البَنَّائين العِظام. واندفع الرَّجُلان في القارب بعيدًا ثانيةً حتى انخرط القارب في تَيَّار النَّهر. لم يَنطِقا بكلمةٍ واحِدَة.

الفصل الخامس

مِهرَجانُ الخَوفِ

في البدايـة، بـدا السُّـلَّم الحَجـريُّ الكبـير لسـايم مهجـورًا كالأهرامـات؛ لكـن قبـل أن يصـل إلى القمَّـة أدرك أن هنـاك رجـلًا ينحنـي عـلى حاجـز الجسر ويتطلَّـع إلى النهـر. هيئتـه كانـت تقليديَّـةً جـدًّا، يعتمـر قُبَّعَـةً مـن الحريـر، ويرتـدي معطفًـا مـن الصـوف مـن الطـراز الأكـثر رسـميةً؛ يحمـل زهـرةً حمـراء في عروَتِـه. مـع اقـتراب سـايم منـه خطـوةً بخطـوة، لم يجفـل ولا حتَّـى بمقـدار شَـعرَة، وكان بإمـكان سـايم الاقـتراب منـه بمـا يكفـي ليلاحـظ، حتـى في ضـوء الصبـاح القاتـم الشـاحب، أن وجهـه كان طويـلًا، شـاحبًا ومتأمِّـلًا، وينتهـي بنتفَـةٍ مُثلَّثـة صغـيرة مـن لِحيَـةٍ قاتِمَـة عنـد نهايـة ذَقنِـه بالضَّبـط، وكل مـا عداهـا كان حليقًـا بعنايـة. بَـدَت شَـظيةُ الشَّـعرِ هـذه وكأنهـا نتيجـةُ سَـهوٍ غالبًـا؛ فبَقيَّـة وجهـه كان مـن النـوع الحليـق بعنايـة- واضـح المعـالم، زاهـدًا ونبيـلًا في مُجمَلِـه. اقـترب سـايم أكـثر وأكـثر، مُلاحِظًـا كلَّ هـذا، ومـا زال الشـكل البـشري سـاكنًا تمامًـا.

في البدايـة، بغريـزةٍ مـا، فكَّـر سـايم أن هـذا هـو الرجـل المفـترض أن يُقابِلَـه. لكنـه اسـتنتج، عندمـا لم يُبـدِ الرّجـلُ أيَّ علامَـةٍ عـلى ذلـك، أنـه لم يكـن الرَّجُـلَ المقصـود. والآن عـاد إليـه اليقـين ثانيـةً بـأن الرجـل يتَّصِـلُ بشـكلٍ مـا بمغامرتـه المجنونـة. ذلـك أن الرجـل ظـلَّ سـاكنًا بأكـثر مـمَّا يفـترض مـع اقـتراب شـخصٍ غريـبٍ منـه إلى هـذا الحَـدِّ. كان جامـدًا كتمثـال مـن الشـمع، ومثـيرًا للأعصـاب بنفـس القـدر بشـكلٍ مـا. اسـتمرَّ سـايم في النظـر مـرَّةً بعـد أخـرى إلى الوجـه الشـاحب، المهيـب والرقيـق، ومـا زال الوَجـهُ ينظـر بخَـواءٍ عـبر النهـر. ثـم أخـرج مـن جيبـه مُذكِّـرة باتونـز التـي تُثبِـتُ انتخابـه، ووضعهـا أمـام ذلـك الوجـه الحزيـن والجميل. وحينهـا ابتسـم الرَّجـلُ ابتسـامةً صادمـة؛ لأنهـا كانـت عـلى جانِـبٍ واحـد فقـط مـن وجهـه، صاعِـدَةً في الخـدِّ الأيمـن، وهابِطَـةً في الأيـسر.

لم يكـن هـذا -مـن الناحيـة العقلانيـة- ليصيـب أيَّ شـخص بالفَـزَع. كثـيرون يتمتَّعـون بهـذه الخدعـة العصبيَّـة مـن الابتسـامات الملتويـة، بـل وتبـدو جذَّابَـةً في كثيريـن. لكـن بالنظـر إلى جميـع ظـروف سـايم، الفجـر القاتـم والمهمَّـة المميتـة والوحـدة عـلى الأحجـار الناضِحَـة الهائلـة- كان هنـاك شيءٌ مـا مُثـيرًا للأعصـاب في تلـك الابتسـامة.

كان هنـاك النهـر الصامـت والرجـل الصَّامِـت، رجـلٌ ذو وجـهٍ كلاسـيكيٍّ. ثـم جـاءت اللمسـة الكابوسـيَّة الأخـيرة لحـدِّ أنَّ شـيئًا مـا خاطئًـا أصـاب ابتسـامته.

كان تَشـنُّج الابتسـامة لحظيًـا، واسـتغرق وجـه الرجـل عـلى الفـور في سـوداويَّةٍ احتَوَتـه حتـى أخمصـه. تحـدَّث بـلا أيِّ تفسـيرٍ أو اسـتفهام، كرَجُـلٍ يتحـدَّث إلى زميـل قديـم.

"إذا سِرنـا في اتجـاه ميـدان ليسـتر"، قـال لـه، "سـنصل بالضَّبـط في موعـد الإفطـار. عـادَةً مـا يُـصِرُّ الأحـدُ عـلى إفطـارٍ مُبكِّـر. هـل نِلـتَ أيَّ قِسـطٍ مـن النـوم؟".



"لا"، قال له سايم.

"وكذلـك أنـا"، أجـاب الرَّجُـلُ بنغمـة عاديَّـة. "سـأحاول أن أخلـدَ للنَّـوم بعـد الإفطـار".

كان يتحـدَّث بلطافَـةٍ عفويـة، لكـن بصـوتٍ ميِّـتٍ بالكامـل يتناقـض مع روح التَّعصُّـب الباديـة عـلى وجهـه. بـدا الأمـر كـما لـو أن كل الكلـمات الـودودة كانـت بالنسـبة لـه مجـرَّدَ ملاءَمـاتٍ عديمـة الحيـاة، وأن حياتـه الوحيـدة هـي الكراهيـة. بعـد توقُّفـه لبُرهَـةٍ بـدأ الرجـل في التحـدُّث ثانيةً.

"بالطَّبـع، أخـبرَكَ سـكرتير الفـرع بـكل شيء يمكـن الكَشـفُ عنـه. لكـنَّ الأمـرَ الوحيـد الـذي لا يمكـن الكَشـفُ عنـه هـي الفكـرة الأخـيرة التـي صـدَرَت عـن الرئيـس، فأفـكاره تنمـو كغابَـةٍ اسـتوائيَّةٍ؛ لذلـك إن كُنـتَ لا تعلـم، فمـن الأفضـل أن أُخـبِرَكَ أنـه ينفِّـذ حاليًـا فكـرةً إخفـاء أنفسـنا عـبر عـدم إخفـاء أنفسـنا إلى أقـصى حَـدٍّ اسـتثنائيٍّ مُمكِـن. في البدايـة، بالطبـع، كُنَّـا نلتقـي في زنزانـة تحـت الأرض، تمامًـا كـما هـو الحـال مـع الفـرع الـذي تنتسـب إليـه. ثـم جَعَلَنـا الأحـدُ نتَّخِـذ غرفـةً خاصَّـةً في مطعـمٍ عـاديٍّ. قال إنـه إذا لم تبـدُ وكأنـك تختفـي فلـن يتصيَّـدَكَ أحـدٌ. حسـنًا، إنـه الإنسـان الوحيـد مـن نوعـه عـلى الأرض، أعـرف؛ لكـن أحيانًـا مـا أفكِّـر أن دماغـه الضَّخـم في طريقـه للجنـون قليـلًا مـع تَقدُّمـه في العمـر؛ لأننـا أضحينـا نتباهـى كالطـاووس الآن أمـام العامَّـة. نتنـاول إفطارَنـا في الشرفـات- عـلى شُرفَـة، مـن فضلـك، تُطِـلُّ عـلى ميـدان ليسـتر".

"وماذا يقول الناس؟"، سأله سايم.

"مـا يقولونـه بسـيطٌ جـدًّا"، أجابـه مُرشِـدُه. "يقولـون إننـا حفنـةٌ مـن الجنتلمانـات المرِحـين الذيـن يتظاهـرون أنهـم فوضويُّـون".

"تبدو فِكرَةً حاذِقَةً جدًّا"، قال سايم.

"حاذِقَـة! فَلينْسِـفِ الـرَّبُّ وَقاحَتَـك! حاذِقَـة!"، صـاح الآخـر بصـوتٍ مفاجـئ ومُجَلجِـل، لحـدِّ أنـه كان مُجفِـلًا ومُتنافِـرًا تمامًـا كابتسـامته الملتويـة. "حتـى عندمـا تـرى الأحـدَ لِجُزءٍ مـن الثانيـة ستمتنع عـلى الفـور عـن مناداتـه بالحـاذِق".

عنـد هـذه الكلـمات خَرَجَـا مـن شـارع ضيِّـق، ورَأَيَـا ضـوء الشـمس المبكِّـر يمـلأ ميـدان ليسـتر. لـن يعـرف أبـدًا لمـاذا كان هـذا الميـدان في حـدِّ ذاتـه يبـدو وكأنـه مـن كوكـبٍ آخـر، وأوروبيًّـا (غـير إنجليـزي) بشـكلٍ مـا. لـن يعـرف أبـدًا مـا إذا كان مظهـره الأجنبـي هـو مـا كان يجـذب الأجانِـبَ أَمْ أن الأجانـب هـم مَـن منحـوه ذلـك المظهـرَ. لكـن في هـذا الصبـاح بالـذات بـدا التأثـير مُبهِـرًا ورائِقًـا عـلى نحـوٍ فريـد. بـين الميـدان المفتـوح وأوراق الشَّـجَر المضـاءَةِ بنـور الشـمس والتمثـال والتفاصيـل عربيَّـة الطَّابَـعِ لِقَـصرِ الحمـراء، بـدا الميـدانُ وكأنـه نسـخة مـن ميـدانٍ عـامٍّ فرنـسيٍّ أو أسـباني مـا. وهـذا التأثـير زادَ مـن شـعور سـايم العجيـب، الـذي تشـكَّل لديـه بأشـكالٍ كثـيرة عـبر المغامـرة بأكملهـا، بالتِّيـه في عالَـمٍ جديـد. كحقيقـة، اعتـاد عـلى شراء السـيجار الـرديء مـن ميـدان ليسـتر منـذ كان صبيًّـا. لكـن مـع اسـتدارته عـبر تلـك الزاويـة، ورؤيتـه للأشـجار والقبـاب المغربيّـة، كان بإمكانـه أن يقسـم أنـه يسـتدير إلى ميـدان مجهـولٍ لشـخصيَّةٍ تاريخيَّـة مـا في بلـدة أجنبيـة مـا.

في إحـدى زوايـا الميـدان كان يـبرز جانِـبٌ لفُنـدُقٍ مُـترَفٍ، لكـن هـادئ، يختبـئ مُعظَمُـه في شـارع خلفـي. عـلى الجـدار كانـت نافِـذَة كبـيرة ذات طابـع فرنـسي، ربمـا نافـذة لمقهـى كبـير؛ وخـارج هـذه النافـذة كانـت تتـدلَّى، حرفيًّـا بالـكاد عـلى الميـدان، شُرفَـة مُدعَّمَـة بكتائِـفَ هائِلَـةٍ، كبـيرة بمـا يكفـي لاحتـواء منضـدة طعـامٍ طويلـة. في الحقيقـة، كانـت بالفعـل تحتـوي عـلى منضـدة عَشـاءٍ طويلـة، أو بـالأَدَقِّ: مِنضَـدَة إفطـار، وحـول منضـدة الإفطـار، متوهِّجـين في ضـوء الشـمس وباديـي العيـان للشـارع، كانـت مجموعـة مـن الرجـال الثرثاريـن بصَخَـبٍ، يرتـدون جميعًـا ملابـس

مُهينـةً للموضـة، بمعاطِـفَ بيضـاء وعـرواتٍ باهِظَـةِ الثَّمَـن. كان مـن الممكـن تقريبًـا سَـماعُ نِكاتِهـم تصـدح عـبر الميـدان. حينهـا أطلق السـكرتير الوقـورُ ابتسـامَتَه غـير الطبيعيـة، فـأدرك سـايم أن حفلـة الإفطـار الصاخبـة هـذه كانـت الاجتـماعَ الـسِّرِّيَّ لمفَجِّـري الديناميـت الأوروبيِّـين.

مـع اسـتمراره في التحديـق فيهـم، رأى سـايم شـيئًا مـا لم يكـن قـد رآه مـن قبـل. لم يـره حرفيًـا لأنـه كان أكـبر مـن أن يُـرى. في الطـرف الأقـرب مـن الشرفـة، حاجبًـا جـزءًا كبـيرًا مـن المنظـور، كان ظهـرُ جبـلٍ عظيـم لرَجُـلٍ. وعندمـا رآه سـايم، كان أوَّل مـا جـاء ببالـه أن وزن الرجـل لا بُـدَّ وأن يـؤدِّي إلى انهيـار الشُّرفـة المصنوعـة مـن الحجـارة. وضخامتـه لا تكمـن فقـط في حقيقـة أنـه كان طويـلَ القامـة عـلى نحـوٍ غـير طبيعـيٍّ، وبدينًـا بشـكلٍ لا يُصـدَّق. هـذا الرجـل رُسِـمَت نِسَـبُه ومقاديـره الأصليـة عـلى نحـوٍ هائـل، كتمثـالٍ نُحِـتَ عـن عَمـدٍ عـلى شـكل عمـلاق مَهيـب. رأسـه، المتـوَّج بشَـعرٍ أبيـض، عنـد رؤيتـه مـن الخلـف بـدا أكـبرَ مـمَّا ينبغـي أن يكـون. والأذنـان، البارزتـان مـن الـرأس، بَدَتَـا أكـبرَ مـن الآذان البشريـة. كان أكـبرَ مـن المقاييـس الطبيعيـة عـلى نحـو مُريـع؛ ومـا يعنيـه حجمـه هـذا كان أمـرًا مُربِـكًا ومُذهِـلًا، لِحَـدِّ أنـه عندمـا رآه سـايم بَـدَت كل الأشـكال البشريـة الأخـرى وقـد تضاءَلَـت وتَقزَّمَـت بغتـةً. كانـوا مـا زالـوا جالسـين هنـاك كـما كانـوا مـن قبـل بأزهارهـم ومعاطفهـم مـن الصـوف، لكـن الآن بَـدَا الرَّجُـلُ الكبـير كـما لـو أنـه يُسـلِّي خمسـةَ أطفـالٍ عـبر تقديـم الشـاي إليهـم.

مـع اقـتراب سـايم والمرشـد مـن البـاب الجانبـي للفنـدق، خـرج إليهـم الخـادم مُبتَسِـمًا بـكلِّ سِـنٍّ في رأسـه.

"السَّـادة جالسـون في الأعـلى يـا سـيدي"، قـال الخـادم. "يتحادثـون ويضحكـون عـلى مـا يتحدَّثـون بـه. يقولـون إنهـم يلقـون بالقنابـل عـلى المِلـك".

ثـم أسرع الخـادم بمنديـل مائِـدَةٍ عـلى ذراعـه، سـعيدًا للغايـة بالعَبَـثِ العجيـب للسـادة في الأعـلى.

ارتقى الرجال الدَّرَج في صَمتٍ.

لم يكـن سـايم قـد فكَّـر أبـدًا في سـؤال مـا إذا كان ذلـك الرجـل الهائـل، الـذي يمـلأ الشُّرفَـةَ تقريبًـا بجسـمه ويوشـك عـلى تحطيمهـا، هـو الرئيـس الـذي يقـف أمامـه الآخـرون في تبجيـل. لكنـه يعـرف أن الأمـر كذلـك، بيَقـينٍ لا يمكـن تفسـيره، لكنـه يقـينٌ عفـويٌّ. كان سـايم، في الحقيقـة، واحدًا مـن هـؤلاء الرجـال المنفتحـين عـلى كل التأثـيرات السـيكولوچية التـي لا اسـمَ لهـا بشـكلٍ قـد يَضرُّ قليـلًا بِصحَّتِـه العقليـة، ومُتجَـرِّدًا بالكامـل مـن الخـوف مـن الأخطـار الجَسـديَّة، بـل وحسَّاسًـا بدرجـةٍ كبـيرة تجـاه رائحـة الـشرور الروحانيـة. مرَّتَـين بالفعـل في تلـك الليلـة أمـران صغـيران لا معنـى لهـما تَسـلَّلا إليـه بطريقـةٍ شـهوانيَّةٍ تقريبًـا، ومنحـاه شـعور الانجـذاب أكـثر وأكـثر للمَقـرِّ الرئيـسي للجحيـم. وأصبـح هـذا الشـعور كاسِـحًا الآن مـع اقترابـه مـن الرئيـس العظيـم.

الشـكل الـذي اتَّخـذه هـذا الشـعور كان تَوَهُّـمًا طفوليًّـا وبغيضًـا مـع ذلـك. أثنـاء سـيره عـبر القاعـة الداخليـة مُتَّجِهًـا للشُّرفـة، ازداد الوجـه الكبـير للأَحَـدِ اتِّسـاعًا، وغَـدَا سـايم فريسـةً للخـوف بأنـه عندمـا يكـون قريبًـا جـدًّا مـن الوجـه فإنـه سـيكون كبـيرًا إلى درجـة غـير مُمكِنـة، وأنـه بالتـالي سـيصرخ بصـوتٍ عـالٍ. تذكَّـر أنـه في طفولتـه لم يكـن يطيـق النظـر إلى قِنـاع المحـارب مِمْنـون في المتحـف البريطـاني؛ لأنـه كان وجهًـا، وكبـيرًا جـدًّا.

بجهـدٍ، وبشـجاعة أكـبر مـن جهـد القَفـز عـبر مُنحَـدَرٍ، خَطَـا إلى مقعـدٍ شـاغِرٍ عـلى منضـدة الإفطـار وجلـس. حيَّـاه الرِّجـالُ بمُـزاحٍ رائـقِ المـزاج كـما لـو أنهـم كانـوا عـلى معرفـة دائمـة بـه. منـح نفسـه الهـدوء قليـلًا عـبر التطلُّـع إلى معاطفهـم التقليديـة وإنـاء القهـوة المتلألـئ منقطـع النظـير؛

ثـم نظـر ثانيـةً إلى الأحـد. كان وجهـه كبـيرًا جـدًّا، لكنـه لم يخـرج مـن النطـاق البـشري بَعـدُ.

في حضـور الرئيـس بـدا الجَمـعُ بأكملـه مألوفًـا وعاديًـا؛ لا شيء بشـأنهم يجـذب العَـينَ مـن الوهلـة الأولى باسـتثناء أنـه بسـبب نَـزوَةِ الرَّئيـس ارتـدوا جميعًـا ملابِـسَ ذات طابـعٍ مُحـتَرمٍ احتفـاليٍّ؛ مـمَّا منـح الوَليمـةَ مَظهـرَ إفطـارٍ في حفلـة زفـاف. لكـنَّ رَجُـلًا منهـم كان يـبرز عنـد نظـرةٍ سـطحيَّة. كان عـلى الأقـل مُفجِّـرَ حدائِـقَ أو عامَّـة النـاس. يرتـدي ياقـةً بيضـاءَ عاليـة وربطـة عُنُـقٍ مـن السـاتان، أي الـزي الرسـمي للمناسـبة؛ لكـن مـن ياقتـه ينبثـق رأسٌ أهـوجُ ولا يُمكِـنُ إخطـاؤه بـأي شـكل؛ أَجَمَـة مُذهِلَـة مـن شَـعْرٍ ولِحيَـةٍ بُنِّيَّـان تحجبـان العينـين ككَلْـبٍ مـن فصيلـة التريـر. لكـنَّ العينـين كانتـا قادِرَتَـيْن عـلى النظـر مـن خـلال هـذا التَّشـابُك، وبَدَتَـا كعينَـيْن حزينَتَـيْن لعبـدِ أرضٍ روسيٍّ. لم يكـن تأثـير هـذا الشـكل البـشري مُريعًـا كتأثـير الرئيـس، لكنـه يتمتَّـع بـكل سـحر يمكـن أن يتـأتَّى مـن الغرابـة المطلَقَـة. إذا انبثـق مـن تلـك الياقـة والرَّبطـة المتصلِّبـة فجـأةً رأسُ قِـطٍّ أو كلـبٍ، فلـن يكـون ذلـك أكـثر تَنافُـرًا وحماقـةً.

يبـدو أن اسـمه كان جوجـول؛ كان بولنديًّـا، وفي دائـرة الأيـام هـذه كان يُدعـى الثلاثـاء. روحـه وحديثـه كانـا مأسـاويَّيْن عـلى نحـوٍ لا يُمكِـن علاجـه؛ لكنـه لم يَسـتَطِع إجبـار نفسـه عـلى لعـب الـدور المترف واللعـوب الـذي يتطلَّبـه منـه الرئيـس الأحـد. وبالفعـل، عندمـا دخـل سـايم كان الرئيـس، بتلـك اللامبـالاة الجريئـة تجـاه شـكوك العَـوامِّ، التـي تمثِّـل جوهـر سياسـته، يمـازح جوجـول بشـأن عـدم قدرتـه عـلى تقمُّـص الجماليَّـات التقليديَّـة.

"صديقنـا الثلاثـاء"، قـال الرئيـس بصـوتٍ عميـقٍ، هـادئٍ وعـالٍ في نفـس الوقـت، "صديقنـا الثلاثـاء لا يبـدو أنـه يسـتوعب الفكـرة. يرتـدي ملابـس جنتلـمان، لكـن يبـدو أنـه يتمتَّـع بـروح كبـيرة جـدًّا عـلى أن يتـصرَّف كجنتلـمان. يُـصِرُّ عـلى أسـاليب مُتآمِـري رصيـف الميـنـاء. الآن إذا انطلـق

چنتلمان عبر لندن مرتديًا قُبَّعَةً عاليَةً ومعطفًا من الصوف، فلن يعلم أحدٌ أنه فوضويٌ. لكن إذا ارتدى چنتلمان قُبَّعَةً عالية ومعطفًا من الصوف، ثم مضى يسير على يَدَيه ورُكبَتَيْه، حسنًا، حينها قد يجذب الانتباهَ. هذا ما يفعله الأخ جوجول. يمضي سائرًا على يديه ورُكبَتَيْه بتلك الدبلوماسيَّة التي لا تَنضبُ، حتَّى أصبح من الصعب عليه جدًّا أن يسير مُنتَصِبًا".

"لستُ جيِّدًا في الاختفاء"، قال جوجول بعبوسٍ، بلَكنَةٍ أجنبيَّةٍ ثقيلة؛ "لا أخجل من السبب ".

"بل أنتَ كذلك، يا بُنيّ، وجدير بك أن تَخجَلَ من السبب"، قال الرئيس بلُطفٍ. "تختبئ كأي شخص آخر؛ لكنَّك عاجِزٌ عن القيام بذلك، كما ترى، أنتَ أحمق! تُحاوِلُ أن تجمع بين منهَجَيْن مُتناقِضَيْن. عندما يكتشف صاحِبُ البيت وجودَ رَجُلٍ تحت سريره، فربما يتوقَّف قليلًا لملاحظة الظروف. لكن إذا وجد رجلًا تحت سريره ببُقعَةٍ عالية، تتَّفِقُ معي عزيزي الثلاثاء، بأنه بالتأكيد لن ينسى ذلك. الآنَ عندما يجدونَك تحت سرير الأدميرال بيقين...".

"لستُ بارعًا في الخداع"، قال الثلاثاء بتجهُّم وخَجَل.

"صحيح، يا بنيّ، صحيح"، قال الرئيس بحماسة تأمُّليَّة، "لستَ بارعًا في أي شيء".

أثناء تَدَفُّق تيَّار المحادثة هذه، كان سايم ينظر بثَباتٍ أكبر إلى الرِّجال من حوله. وأثناء ذلك، شعر تدريجيًّا بعودة كامِل إحساسه بذلك الشيء العجيب روحانيًّا.

كان يعتقد في البدء أنهم جميعًا كانوا ذَوي منزلَةٍ وملابِسَ عاديَّةٍ، مع الاستثناء الواضح لجوجول كثيفِ الشَّعر. لكن مع تَطلُّعه إلى الآخرين، بدأ في رؤية ما كان قد رآه في الرجل على النهر بالضبط في كُلٍّ منهم، تفصيلة شيطانيَّة في مكانٍ ما. تلك الضحكة غير المتوازنة،

التي تُشوِّه فجأةً الوجهَ الرقيق لمرشِدِه الأصلي، كانت مُنتَشِرَةً بينهم جميعًا. كل رجُلٍ كان يُخفي شيئًا ما، يمكن إدراكه ربما عند النظرة العاشرة أو الثانية عشرة، شيء غير طبيعي، بَشَريٌّ بالكاد. المجاز الوحيد الذي استطاع التفكير فيه كان كالتالي: أنهم جميعًا بَدَوا كرجالٍ ذَوي منزِلَةٍ اجتماعيَّة رفيعةٍ وحضور طاغٍ، مع ذلك الانحراف الإضافي الذي يَظهَرُ في مرآةٍ زائِفَة ومُقوَّسة.

الأمثلة الفَرديَّة فحسب لها أن تعبِّر عن هذه الغرابة نصف المختفية. كان تُرجمانُ سايم الأصلي يحمل لَقَبَ الاثنَيْن؛ كان سكرتيرًا للمجلس، وابتسامته الملتوية كانت مَوضِعَ رُعبٍ أكثر من أيِّ شيءٍ آخر، باستثناء ضِحكَةِ الرَّئيس السعيدة، المريعة. لكن الآن وقد توفَّر لسايم مزيدٌ من الضوء والمساحة لملاحظته، اكتشف وجود لمسات أخرى. كان وجهه الرقيق مَهزولًا، لحدِّ أن سايم اعتقد أنه لا بُدَّ فانٍ بسبب مرض ما؛ مع ذلك فإن القلق الذي يملأ عينيه الداكنتين كان نفيًا لهذا. لم يكن مرضًا جسديًّا ما يعتريه. كانت عيناه تُشِعَّان بعذابٍ فِكريٍّ، كما لو أن الفِكرَ الخالِص كان ألمًا.

كان نموذجًا لكل شخص من القبيلة؛ ذلك أن كل رجل فيهم كان مُبتَلًى على نحوٍ مختلف ودقيق. بجواره كان يجلس الثلاثاء، جوجول مُشعَّث الرأس، الأكثر جنونًا بالتأكيد. وبعده كان يجلس الأربعاء، الماركيز سانت إيوستاش، شكل بَشريٌّ مُميَّز للغاية. بعد النظرات الأولى القليلة لم يكتشف شيئًا غير اعتياديٍّ حياله، باستثناء أنه كان الرَّجُلَ الوحيدَ على المنضدة الذي يرتدي ملابس على الموضة كما لو أنها من طبيعته. كانت له لِحيَة فرنسيَّة سوداء بأطراف مُشذَّبة حادَّة، ومعطَفٌ إنجليزيٌّ ذا حوافٍّ أكثرَ حِدَّةً. لكن سايم، الحسَّاس تجاه أشياء كهذه، راوده شعور بأن الرجل يخلق شعورًا عامًّا بالثَّراء، شعورًا مُختَنِقًا بالثراء، يُذكِّر المرءُ على نحوٍ غيرِ عقلانيٍّ بالروائح الناعسة للمصابيح المتداعِيَة في القصائد الأكثر قتامةً لبايرون وإدجار

آلان بو. مع هذا يظهر إيحاء بأنه يرتدي ملابس، ليست ذات ألوان فاتحة، لكنها ذات مواد أكثرَ نعومةً؛ يبدو الأسود الذي يرتديه وكأنه أكثرُ ثَراءً ودفئًا من ظلال الأَسوَدِ من حوله، كما لو أنها مُركَّبة من لونٍ عميق. معطفه الأسود يبدو أسودَ فقط لأنه قُرمزيٌّ داكِنٌ جدًّا. لِحيَتُه السوداء كما لو أنها سوداءُ فقط لأنها ذاتُ لونٍ أزرق داكِنٍ جدًّا. وفي حلكة وكثافة لِحيَتِه، بدا فَمُه الأحمر الدَّاكِنُ شهوانيًّا ومُمتَعِضًا. أيًّا مَن كان، فحتمًا لم يكن فرنسيًّا؛ ربما كان يهوديًّا؛ ربما كان شيئًا أكثر عُمقًا من القلب المظلِم للشرق. فقط في اللوحات والبلاط الفارسي ذات الألوان المشرِقَة التي تُصوِّر الطُّغاةَ في صيدهم، ربما ترى بالضَّبطِ هاتَيْن العينَيْن اللوزيَّتَيْن، هذه اللحية الزرقاء- السوداء، هاتين الشَّفَتَيْن القُرمزيَّتَيْن، القاسِيَتَيْن.

وبعده يجلس سايم، ثم رجل عجوز جدًّا، بروفسور دي وورمز، الذي ما زال يشغل مقعدَ الجُمعة، رغم أنه كان من المتوقَّع في كلِّ يوم أن يشعر بموته. باستثناء حِكمَتِه، كان في المرحلة الأخيرة من تَفسُّخ الشيخوخة. وجهُه رماديٌّ كلِحيَتِه الرمادية الطويلة، جبينٌ مُرتَفِعٌ مُستَقِرٌّ في نهايته على تجعيدة من اليأس المتسامح. في أيٍّ من الحاضرين، ولا حتى في جوجول، لم يكن تألُّق زِيِّ الزفاف الصباحي يُعبِّر عن ذلك التَّبايُن الأكثر إيلامًا. فالزَّهرَةُ الحمراء في عُروَتِه البارزة أمام وجهه كانت مُشوَّهَةَ الَّلون حرفيًّا كالرصاص؛ كان التأثير البَشِعُ بأكمله كما لو أن حفنَةً من المتأنِّقين السُّكارى قد وضعوا ملابِسَهم على جُثَّة. ومع نهوضه وجلوسه، وهو ما كان يتمُّ بجَهدٍ وخَطَرٍ كبيرَيْن، يُظهِر شيئًا ما أكثرَ بشاعَةً، أكثرَ من مُجَرَّد الضَّعف، شيئًا ما يتَّصِلُ بالتأكيد برُعبِ المشهَدِ بأكمله. شيئًا لا يُعبِّر عن تداعي العَجَزِ فحسب، لكن التعفُّنِ أيضًا. تَوهُّمٌ بغيضٌ آخر يطوف بعقل سايم المرتعش. لم يستطع مَنعَ نفسه من التفكير أن الرجل قد يسقط ميِّتًا متى حرَّك ذراعًا أو ساقًا.

على طرف المائدة كان يجلس رَجُلٌ يُدعى السَّبت، الأكثر بساطةً وإرباكًا من بين الجميع. كان رجلًا قصيرًا، عريضًا بوجهٍ داكن عريض حليق، مُمارِسٌ طبِّيٌّ، يُعرَف باسم "بولْ". يجمع بين المعرفة وشكلٍ من أشكال الفظاظة المهذَّبة وهو أمرٌ غير نادر بين الأطبَّاء الشباب. يمضي بملابسه الراقية بثِقَةٍ أكثر من كونها ارتياحًا، ويبتسم أغلب الوقت ابتسامةً ثابِتَةً لا تتغيَّر. لم يكن هناك أي شيء عجيب بشأنه، باستثناء أنه يرتدي نظَّارات داكنة، لا يَنفُذُ منها الضوء تقريبًا. ربما كانت مُجرَّدَ تصاعُدٍ لتوهُّمٍ عُصابيٍّ وقع من قبل، لكنَّ هذَيْن القُرصَيْن الأسودين كانا مُريعَيْن بالنسبة لسايم؛ يُذكِّرانه بالحكايات البَشِعَة التي يتذكَّر منها شَذراتٍ، منها قصة عن عملاتٍ مَعدنيَّة توضع في أعيُن الموتى. دائمًا ما كانت عَينُ سايم تنجذب للنَّظَّارات السوداء وتقطيبة العميان. إذا ارتداها البروفسور المحتضر، أو حتى السكرتير الشاحب؛ فحينها ستكون أكثرَ مُلاءَمَةً. لكن عندما يرتديها رجلٌ أصغرُ سنًّا وأكثر غِلظَةً فإنها لن تبدو سوى لُغزٍ كبير. حينها تنتزع بعيدًا مفتاحَ الوجه. ولا يعود باستطاعَةِ المرء تَحديدُ ماذا تعنيه ابتسامَتُه أو وَقارُه. ربما بسبب هذا، وبسبب أنه كان يتمتَّع بفحولَةٍ مُبتَذَلَة مفقودة في معظم الآخرين، فقد بدا لسايم أنه الأكثر شرًّا من بين كل هؤلاء الأشرار. بل إن سايم قد فكَّر بأنه قد حجب عينيه لأنهما مُرعبتان جدًّا على أن يراهما أحدٌ.

الفصل السادس

الانكِشافُ

هكذا كان الرِّجال الذين أقسموا على تدمير العالم. مرَّةً تلو الأخرى يناضل سايم من أجل استجماع شَتاتِ تفكيرِه في حضورهم. يقول لنفسه أحيانًا إن هذه الأفكار كانت أفكارًا ذاتيَّةً. إنه يتطلَّع فحسب إلى رجالٍ عاديِّين، أحدهم عجوزٌ، وآخر عُصابيٌّ، وآخر يعاني من قِصَرِ النَّظَر. لكنَّ حِسَّ الرمزية غير الطبيعية كان دائمًا ما يرتدُّ إليه مرَّةً تلوَ أخرى. كل شَكلٍ بَشريٍّ يبدو، بشكل ما، وأنه على تخوم الأشياء، تمامًا كما كانت نظريَّتهم تَقِفُ على تخوم الفكر. يعرف أن كلَّ رَجُلٍ من هؤلاء الرجال يقف على الطرف الأقصى -إذا صحَّ التعبير- لطريق وَحشيٍّ ما من الإدراك. كان بإمكانه فقط أن يتخيَّل، كما لو أنه في حكاية من العالم القديم، أنه إذا انطلق رجلٌ نحو الغرب إلى نهاية العالم فإنه سيجد شيئًا -شجرة مثلًا- لكنها أكثر من مجرَّد شجرة، شجرة تستحوذ عليها الأرواح؛ وإذا انطلق شرقًا إلى نهاية العالم فسيجد

شـيئًا ليـس هـو نفسـه تمامًـا- بُرجًـا، ربمـا، ذا شـكل شرِّيـرٍ جـدًّا؛ لذلـك، بَدَت هـذه الأشـكال البشرية وكأنها تنتصـب، هائِجَـةً ولا يمكـن تَفسـيرُها، أمـام أفـق نهـائي، رؤى مـن حافَّـة العـالم. نهايـات الأرض كانـت تقـترب.

كان الحديـث يمـضي بثبـات مـع اشـتراكه في المشـهد؛ والتَّناقُـض بـين النَّغمَـة السَّـهلة المختفيـة للحديـث ومعنـاه الظاهـري المريـع لم يكـن أقـلَّ التناقُضـات في مائـدة الإفطـار المربِكَـة للذِّهـن تلـك. كانـوا مُنغَمسـين في مناقشـةٍ بشـأن مُخطَّـطٍ وشـيكٍ وفِعـليٍّ. الخـادم في الأسـفل كان صادِقًـا جـدًّا عندمـا قـال إنهـم يتحدَّثـون عـن القنابـل والملـوك. بعـد ذلـك بثلاثـة أيـام فقـط كان مُقـرَّرًا أن يتقابَـلَ القيـصرُ مـع رئيـس الجمهوريـة الفرنسـيَّة في باريـس، وعـلى عَشـائِهم المكـوَّن مـن البيـض ولحـم الخنزيـر المقـدَّد في شرفتهـما المشمِسَـة كان هـؤلاء السـادة المبتهجـون قـد خطَّطـوا لكيفيَّـة موتهـما. حتـى الأداة تـمَّ اختيارهـا، وتقـرَّر عـلى مـا يبـدو أن الماركيـز ذو اللحيـة السـوداء هـو مَـن سـيحمل القُنبلـة.

بالطبـع، فـإن اقـتراب هـذه الجريمـة الإيجابيـة والموضوعيـة كان ليمنـح سـايم الهـدوءَ، ويشـفيه مـن كلِّ ارتعاشـاته الغامِضَـة ببسـاطةٍ. لم يكـن لـه أن يفكِّـر سـوى في الحاجـة إلى إنقـاذ جَسَـدَيْن بشريَّـيْن عـلى الأقـل مـن التَّمـزُّق إلى شـظايا بفعـل الحديـد والغـاز القاصـف. لكـن الحقيقـة كانـت أنـه بـدأ حينهـا في الشـعور بنـوعٍ ثالِـثٍ مـن الخـوف، أكـثرَ نفـاذًا وعمليَّـةً مـن اشـمئزازه الأخلاقـي ومسـؤوليَّته الاجتماعيـة. ببسـاطَةٍ شـديدة، لم يكـن خوفـه مـن أجـل الرئيـس الفرنـسي أو القيـصر؛ بـل كان يخـشى عـلى نفسـه. فأغلـب المتحدِّثـين لم يهتمُّـوا بوجـوده كثـيرًا، مُتجادِلـين الآن ومقتربـين بوجوههـم بـين بعضهـم البعـض، وبوَقـارٍ رَسـميٍّ تقريبًـا، باسـتثناء عندمـا ابتسـم السـكرتير لوَهلَـةٍ ابتسـامَتَه المائلـة لينطلـق الـبَرقُ المسَـنَّنُ مائِـلًا أيضًـا عـبر السـماء. داومَ الرئيـس عـلى التطلُّـع إليـه، بثَبـاتٍ وباهتـمامٍ كبـيرٍ ومُحـيِّرٍ. الرجـل هائـل الحجـم كان هادئًـا، لكـنَّ عينَيْـه الزَّرقاويْـن بارزتـان مـن رأسـه، ومُثبَّتَتـان الآن دائمًـا عـلى سـايم.

شعر سايم برغبة في النهوض فجأةً والقفز من على الشرفة. عندما كانت عينا الرئيس مُثبّتَتَيْن عليه شَعَرَ كما لو أنه مَصنوعٌ من الزُّجاج. كانت تراوده بالفعل غلالةٌ من الشَّك أن الأحد -بطريقةٍ ما- صامِتَةٌ واستثنائية، قد اكتشف أنه جاسوسٌ. تَطلّع عبر حافَّةِ الشُّرفَة، ورأى شُرطيًّا، يقف بلا معنى تحتها بالضبط، مُحَدِّقًا في القضبان المتوهِّجة والأشجار الغارقة في ضوء الشمس.

حينها استولى عليه الإغواءُ العظيم الذي كان مُقدَّرًا أن يُعذِّبَه لأيام طويلة. في حضور هؤلاء الرجال الأقوياء والمثيرين للاشمئزاز، أُمَراء الفوضوية، كان قد نَسِيَ تقريبًا الشكل البشري الهَشّ والعجيب للشاعر جريجوري، المعجَب الأول بجماليَّة الفوضويَّة. بل إنه فكَّر فيه الآن على نحوٍ قديم، كما لو أنهما قد اشتركا سويًّا في ملاعب الطفولة. لكنه تذكَّر أنه ما زال مرتبطًا بجريجوري بوَعدٍ كبير. كان قد وعده بعدم القيام بالأمر الذي شعر بنفسه الآن يوشك على فِعلِه. وعده بعدم القفز من على تلك الشرفة أو التحدُّث إلى ذلك الشرطي. انتزع يده الباردة من الحاجز الحَجَريّ البارد. تأرجَحَت رُوحُه في دوَّامَةٍ من الحيرة الأخلاقية. لم يكن عليه سوى أن ينتزع خيطَ عَهدٍ مُندَفِعٍ قَطَعَه لمجتمَعٍ دنِيء، حتى تصبح حياته بأكملها مُنفَتِحَة ومُشمِسَة كالميدان من تحته. كان عليه -من ناحية أخرى- أن يُحافِظَ على شرفه القديم، وأن يُقدِّم نفسه، شيئًا فشيئًا، إلى سُلطَةِ هذا العَدوِّ اللدود للبشرية، الذي كان فِكرُه في حَدِّ ذاته غُرفَةَ تعذيب. متى تطلَّع إلى الميدان كان يرى الشرطيَّ المطمَئِنَّ، دعامة الحِسِّ العام والنظام العام. ومتى تطلَّع إلى الوراء -إلى مائدة الإفطار- كان يرى الرئيس ما زال يتمعَّن فيه بهدوءٍ بعينَيْن كبيرَتَيْن، لا تُطاقان.

في وسط دوَّامة أفكاره هذه فإن فكرتين بعينهما لم تَرِدَا على عَقلِه قطُّ. الأولى: أنه لم يخطر على باله قطُّ أن يَشُكَّ بأن الرئيس ومجلسه سيُحطِّمانه إذا استمرَّ في انعزاله عنهم. قد يكون المكان

عامًّـا، والمـشروع مسـتحيلًا. لكـن الأحـد لم يكـن الرَّجُـلَ الـذي يتـصرَّف بتلـك السـهولة بـدون أن يَنصُـبَ -بشـكلٍ مـا، أو في مـكانٍ مـا- مَصيَدَتَـه الحديديـة. سـواءً بسُـمٍّ لا اسـمَ لـه، أو حادِثَـةٍ مُفاجِئَـة في الشـارع، عـبر التَّنويـم المغناطيـسيِّ، أو بحريـقٍ مـن الجحيـم. بالتأكيـد سـيصعقه الأحـد. إذا تحـدَّى الرَّجُـلَ فاحتـمالٌ أن يكـون ميِّتًـا، مطعونًـا هنا في مقعـده أو بعد ذلـك بوقـت طويـل بمـرض بـريء. إذا نـادى عـلى الشرطـة بسرعـة، وقبـض عـلى الجميـع، وأفـشى كلَّ شيء، وهَيَّـجَ ضِدَّهـم قُـوَّة إنجلـترا بأكملهـا، فمـن المحتمـل أن يهـرب؛ ليـس غـير ذلـك بالتأكيـد. كانـوا حفنَـةً مـن سـادة الشُّرُفـات يُطِلُّـون عـلى ميـدانٍ مُـشرِقٍ ومُزدَحِـم؛ لكـن لم يكـن له أن يشـعر بأمـانٍ أكـبر إذا كانـوا حفنـةً مـن قراصِنَـةٍ مُسـلَّحِين في قـارِبٍ يُطلُّـون عـلى بحـر خـاوٍ.

فكـرة ثانيـة لم تَـرِدْ عـلى خاطـره أبـدًا. لم يفكِّـر أبـدًا أن ينتـصر عـلى عـدوِّه رُوحانيًّـا. كثـيرٌ مـن ذوي الآراء العصريـة، المتَمرِّسـين -بضَعـفٍ- عـلى عبـادة الفِكـرِ والقُـوَّة، كان لهـم أن يرتعشـوا في اتِّحادهـم تحـت سـطوة هـذه الشـخصية العظيمـة. كان لهـم أن يَدعُـوا الأحـدَ بالرَّجُـل السـوبرمان. إذا كان مـن الممكـن تَخيُّـلُ وجـود مخلـوقٍ كهـذا، فقـد بـدا هـو -حقًّـا- كشيءٍ مـا يُشـبِهُه، بتجريديَّتِـه التـي تَهزُّ الأرض، كـما لـو أنـه تمثـالٌ حَجَـريٌّ يمـشي عـلى قدَمَـيْن. كان لـه أن يُدعـى بـشيءٍ مـا أعـلى مـن الإنسـان، بخُطَطِـه الكبـيرة، شـديدة الوضـوح لحـدِّ أنـه لا يمكـن كَشـفُها، بوجهـه الكبـير، المكشـوف جـدًّا لحَـدِّ أنـه لا يُمكِـنُ فَهمُـه. لكـن هـذا كان نوعًـا مـن الوَضاعَـةِ الحديثـة التـي لا يمكـن لسـايم الغَـرَقُ فيهـا حتـى في أقـصى حـالات كآبَتِـه المَرَضيَّـة شِـدَّةً. كأيِّ رَجُـلٍ آخـر، كان جبانًـا لحـدِّ الخـوفِ مـن القـوى العظيمـة؛ لكنـه لم يكـن جبانًـا لحـدِّ الإعجـاب بهـا.

كان الرِّجـال يأكلـون بينـما يتحدَّثـون، وحتَّـى في هـذا كانـوا نَمَطيِّـين. كان دكتـور بـولْ والماركيـز يتنـاولان طعامهـما عـلى نحـوٍ تقليـديٍّ وتلقـائيٍّ مـن أفضـل الأشـياء عـلى المائـدة: طائـر الذَّيَّـال البـارد، وفطيرة ستراسـبورج.

لكنَّ السكرتير كان نباتيًا، ويتحدَّث بحماسٍ عن الاغتيال المرتَقَبِ وهو يتناول نِصفَ ثَمَرَة طماطم نيِّئة، وثلاثة أرباع كوبٍ من الماء الفاتر. بينما يتناول البروفسور العجوزُ خليطًا من الطعام يليق بطفولَةٍ ثانِيَةٍ مريضة. وحتى في هذا فإن الأحدَ الرئيس ما زال يُحافِظُ على هيمنته العجيبة على الجَمعِ بأكمله. فقد كان يأكل كعشرين رجلًا؛ يأكل على نَحوٍ لا يُصدَّق، بشهيَّةٍ مُتجدِّدَة مُخيفة، كما لو أنه مصنعُ سجق. مع ذلك، كان مستمرًا، وهو يبتلع دزينة من الكعكات المسطَّحَة غير المحَلَّاة، أو يحتسي رُبعَ جالون من القهوة، في التحديق من جانب رأسه العظيمة في سايم.

"كثيرًا ما تساءَلتُ"، قال الماركيز، مُتناوِلًا قَضمَةً هائِلَةً من شريحةٍ من الخبز والمربَّى، "ما إذا كان من الأفضل لي أن أُتِمَّ الأمر بسكِّين. أغلب الأمور الجيدة تُنجَز بسكِّين. بل وسيكون ذلك شعورًا جديدًا أن تَغمِسَ سكِّينًا في رئيسٍ فرنسيٍّ ثم تلويها داخله".

"أنت مُخطِئ"، قال السكرتير، ضامًّا حاجِبَيْه الأسودين معًا. "السكين هي مجرَّد تعبير عن الصراع الشخصي القديم مع مُستَبِدٍّ شخصيٍّ. الديناميت ليس هو أداتَنا المُثلَى، لكنه رَمزُنا الأمثل؛ فهو مُلائِمٌ جدًّا كرمزٍ لنا كما البخور رمزٌ لصلوات المسيحيين. يتمدَّد وينتشر، ويُدمِّر فقط لأنه يتَّسِع، وهكذا الأمر مع الفكرة؛ فهي تُدمِّر لأنها تَتَّسِع. عقل الرجل قنبلة"، صاح قائلًا، مُرخِيًا فجأةً من انفعاله الغريب وضاربًا رأسه بعنف. "أشعر بعقلي وكأنه قنبلة، ليلًا ونهارًا. لا بُدَّ أن يتمدَّد وينتشر! لا بُدَّ! عقل الرجل لا بُدَّ أن يَتَّسِعَ، حتَّى لو حطَّم الكون بذلك".

"لا أريد للكون أن يتحطَّم بعد"، تَشدَّق الماركيز. "أرغب في كثير من الأشياء المتوحِّشة قبل أن أموت. فكَّرتُ في أحدها بالأمس على الفِراش".

"لا، إذا كانت النهاية الوحيدة للشيء هي اللاشيء"، قال دكتور بولْ بابتسامته التي تشبه (أبو الهول)، "فالأمر بالكاد يستحقُّ القيام به".

كان البروفسور العجوز يُحَدِّق في السقف بعينَيْن كابِيَتَيْن.

انتشر صَمتٌ غريبٌ لوَهلَةٍ، ثم قال السِّكرتير:

"نحيد، رغم ذلك، عن جَوهَر الموضوع. السؤال الوحيد هو كيف سيضرب الأربعاء ضَربَتَه. أعتقد أنه يجب أن نتَّفِقَ جميعًا على الفكرة الأصليَّة بشأن القُنبلة. وبالنسبة للتَّرتيبات الفعليَّة، أقترح أن يذهب صباحَ الغد أوَّلًا وقبل كل شيء إلى...".

انقطع الحديثُ تحت ظِلٍّ هائِلٍ. فقد نهض الأحدُ الرَّئيس على قدمَيْه، حاجبًا على ما يبدو السماء من فوقهم.

"قبل أن نناقش ذلك"، قال بصوته الهادئ مُنخَفِضِ النَّبرَة، "لننتقل إلى غرفة خاصة. لديَّ شيءٌ استثنائيٌّ جدًّا لقوله".

نهض سايم قبل أيٍّ من الآخرين. جاءت لحظة الاختيار أخيرًا، كان المسدَّس على رأسه. على الرصيف كان بإمكانه سماعُ الشُّرطي يتحرَّك بتكاسُلٍ ويضرب الأرض بقدميه، فالصباح كان باردًا رغم سطوعه.

صدح فجأةً أرغنٌ يدويٌّ في الشارع، وانطلق في عزف نغماتٍ مَرِحَة. نهض سايم مُتوتِّرًا، كما لو أن نفير المعركة قد صدح. وجد نفسه مُمتَلِئًا بشجاعة غير عاديَّة جاءَته من لا مكان. بَدَت تلك الموسيقى المجَلجِلَة مُمتَلِئَةً بالحيويَّة والخشونة، والشجاعة غير العقلانية للفقراء، الذي كانوا جميعًا، في كل تلك الشوارع القَذِرة، مُتشبِّثين بأخلاق وإحسانات المسيحيَّة. حيلته السَّاذجة بكونه شرطيًّا قد تلاشَت من عقله؛ لم ينظر لنفسه كممثِّلٍ لفَيلَقِ السَّادة المتحوِّلين إلى رؤساء شرطة مُتوَهِّمين، أو للعجائز غُرباءِ الأطوار الذين يعيشون في الغُرَف المظلِمَة. لكنه شعر بنفسه سفيرًا لكل الناس العاديِّين والوَدودين في الشارع،

الذيـن يسـيرون كلَّ يـوم إلى المعركـة عـلى وَقْـع أنغـام الأرغـن. وهـذه الكبريـاء السَّـامِقة لكونـه بشريًّـا قـد رفعتـه بشـكل غـير قابـل للتَّفسـير إلى سـماءٍ لا نهائيَّـةٍ فـوق الرِّجـال المتوحِّشـين مـن حولـه. لوهلـة، عـلى الأقـل، تَطلَّـع إلى كل غرائبهـم المتفشِّـية وهـو مُسـتقرٌّ عـلى العـرش الغـارِق في النجـوم لمـا هـو عـادِيٌّ. شـعرَ تجاهَهـم بـكلِّ التفـوُّق البسـيط غـير الواعـي الـذي يشـعر بـه رجـلٌ شـجاع تجـاهَ بَهيمَـةٍ قويَّـةٍ، أو رَجـلٌ حكيـمٌ تجـاهَ ضـلالاتٍ كاسِـحَة. كان يعـرف أنـه لا يتمتَّـع بالقـوة الفكريـة ولا الجُسـمانيَّة للأحـد الرئيـس؛ لكنـه في تلـك اللحظـة لم ينزعـج لذلـك بأكـثر مـن انزعاجـه مـن حقيقـة أنـه لا يتمتَّـع بعضلاتِ نَمِـرٍ، أو قـرنٍ عـلى أنفـه كوحيـد القـرن. كل هـذا اختفـى في يقـينٍ مُطلَـقٍ بـأن الرئيـس كان عـلى خطـأ، وأن الأرغـن اليـدويَّ كان عـلى صـواب. هنـا اصطخَبَـت في عقلـه تلـك الحقيقـةُ البديهيَّـةُ المريعـة الدَّامِغَـة مـن نشـيد رولانـد:

"الوَثنيُّون على خطإٍ، والمسيحيُّون على حَقٍّ"[1].

وهـي كلـمات، بالفرنسـية الأنفيـة القديمـة، لهـا قَعقَعَـةُ وأنـينُ الحديـد العظيـم. مـع هـذا التحـرُّر لروحـه مـن عـبء الضَّعـف جـاء أيضًـا قـرارٌ في غايـة الوضـوح باعتنـاق المـوت. إذا كان شـعب الأرغـن اليـدوي قـد تمكَّـن مـن الوفـاء بعهـوده في العـالم القديـم، فكذلـك بإمكانـه هـو. هـذا الفخـر تحديـدًا بالوفـاء بكلمتـه كان مصـدره الوفـاء بكلمتـه للمجرمـين. كان انتصـاره الأخـير عـلى هـؤلاء المجانـين أن يهبـط معهـم إلى غرفتهـم المظلِمَـة، ثـم يمـوت في سـبيل شيء مـا لا يمكـن لهـم فَهمُـه حتَّـى. بـدا الأرغـن اليـدوي وكأنـه يمنـح المسـيرةَ طاقَـةَ وضجيـجَ أوركسـترا بأكملهـا؛ وكان بإمكانـه سـماعُ طبـول الفخـر بالمـوت؛ عميقـةً ومُندَفِعَـةً، تحـت كل أبـواق الفخـر بالحيـاة.

---

(1) بالفرنسـية في الأصـل، ونشـيد رولانـد (La Chanson de Roland) هـو أقـدم عمـل مُهـمٍّ مُتبَقٍّ مـن الأدب الفرنـسي، يعـود لمـا بـين 1140 و 1170 ميلاديـة- (المترجـم)

كان المتآمـرون يتقدَّمـون بالفعـل عـبر البـاب العريـض ثـم إلى الغـرف في الداخـل. كان سـايم آخِرَهـم، هادئًـا في ظاهِـرِه، لكـنَّ كُلَّ عقلـه وجسـده ينبـض بإيقـاعٍ رومانـسيٍّ. قادهـم الرئيـس إلى جانـبٍ غـير منتظـم مـن الـدَّرَج، كذلـك الـذي يسـتخدمه الخـدم، إلى غرفـة مُعتِمَـة، بـاردة، خاويـة، ذات مناضـد ومقاعـد طويلـة، كغرفـة اجتماعـات. عندمـا أصبحـوا جميعًـا داخلهـا، أغلـق البـاب ثـم أقفلـه بالتربـاس.

كان أوَّلُ المتحدثـين هـو جوجـول، الـذي لا يقبـل المسـاومة، وبـدا أنـه ينفجـر بحُـزنٍ لا يمكـن التعبـير عنـه.

"زسـو! زسـو!" صـاح، بانتشـاءٍ غامـض، وتابـع بنفـس لَكنَتِـه البولنديـة وقـد غَـدَت مُسـتَغلَقَةً بالـكاد، "تقولـون إنَّكـم لسـتم مُتكاسـلين. تقولـون إنكـم تعرفونهـم. إنهـم لا شيء. لكـن عندمـا تتحدَّثـون عـن شيءٍ هـامٍّ تهرعـون إلى غرفـة مُظلِمَـة!".

بدا الرئيس وأنه تلقَّى التَّهكُّمَ المتفَكِّكَ للأجنبيِّ بروحِ فُكاهةٍ عالية.

"لا تفهـم الأمـر كـما ينبغـي، يـا جوجـول"، قـال لـه بطريقـة أبويَّـة. "عندمـا يسـمعون لمـرَّةٍ واحِـدَةٍ حديثَنـا بالتفاهـات عـلى تلـك الشُّرفَـة، فلـن يُلقـوا بـالًا إلى أيـن نذهـب بعـد ذلـك. إذا كُنَّـا قـد جِئنـا هنـا أوَّلًا، حينهـا سنكشـف الـسِّرَّ للطاقـم بأكملـه. لا يبـدو أنـك تعـرف أي شيء عـن النـوع البـشري".

"أمـوت مـن أجلهـم"، صـاح البولنـديُّ باسـتثارَةٍ ضبابيـة، "بـل وأذبـح مَـن يقمعهـم. لا أهتـمُّ بألعـاب الاختفـاء هـذه. بمقـدوري أن أسـحق المسـتبدَّ في ميـدانٍ مفتـوح".

"بالطبـع، بالطبـع"، قـال الرئيـس، هـازًّا رأسـه بحُنُـوٍّ وهـو يجلـس عـلى رأس مائـدة طويلـة. "تمـوت مـن أجـل النـوع الإنسـاني أولًا، ثـم تقـوم وتصعـق قامِعيـه. كل هـذا حَسَـنٌ. والآن دعنـي أطلُـب منـك أن تسـيطر

على انفعالاتك الجميلة وتجلس مع السادة الآخرين على هذه المنضدة. فللمرّة الأولى هذا الصباح شيءٌ ما ذكيٌّ سيُقال".

جلس سايم أوّلًا، بسرعة البديهة المرتبِكَة التي أبداها منذ الاستدعاء الأول. وجلس جوجول أخيرًا، متبرِّمًا من بين لحيته البُنِّيَّة بسبب التسوية المذِلَّة. وبدا أن لا أحد باستثناء سايم قد أدرك العاصفة التي على وشك أن تَهبّ. بالنسبة له، راوَدَه فحسبُ شُعورُ رَجُلٍ يرتقي مشنَقَةً، عازِمًا على إلقاء خِطابٍ بليغٍ بأيِّ ثَمَن.

"يا رفاق"، قال الرئيس، ناهضًا فجأة، "لقد انغمسنا في هذه المسرحية الهزليَّة جدًّا. دَعَوتكُم للنزول إلى هنا لإخباركم بشيء في غاية البساطة والفظاعة بحيث يُمكِن للسُّقاة في الأعلى (وقد اعتادوا طَيشَنا) أن يسمعوا أخيرًا بعض الجِدِّيَّة في أصواتنا. يا رفاق، كُنَّا نناقش الخُطَطَ ونُسمِّي الأماكنَ. أقترح، قبل قَوْلِ أيِّ شيء، ألَّا نُصَوِّتَ على هذه الخُطَطِ والأماكن في هذا الاجتماع، بل نتركها بالكامل تحت سيطرة عضوٍ واحدٍ جديرٍ بالثقة. أقترح الرَّفيقَ السَّبتَ، دكتور بولْ".

حدَّقوا جميعًا فيه؛ ثم جَفلَوا جميعًا في مقاعدهم؛ فالكلمات التي تَلَت ذلك، رغم أنها لم تكن عالِيَةً، خَلَقَت تأكيدًا حيًّا ومثيرًا. ضرب الأَحَدُ المائِدَةَ بيَدَيه.

"لا كلمة واحدة أخرى تُقال عن الخُطَطِ والأماكن في هذا الاجتماع. ولا حتى تفصيلة واحدة تافِهَة حول ما ننتوي فِعلَه يجب أن تُذكَر في هذا الجمع".

كان الأَحَدُ قد قضى حياته في إثارة ذهول أتباعه؛ لكنَّ الأمر بدا وكأنه لم يُثِرْ دهشتهم من قبل حقًّا إلَّا الآن. تَمَلمَلوا جميعًا باهتياجٍ في مقاعدهم، باستثناء سايم، الذي جلسَ مُتصلِّبًا في مقعده، يده في جيبه، قابِضًا على مُسدَّسًا مَحشُوًّا. عندما يحين الهجوم عليه سيبيع حياتَه بثَمنٍ غالٍ. سيكتشف على الأقل ما إذا كان الرئيس إنسانًا فانيًا.

تابع الأَحَدُ حديثه بهدوء:

"ربما تدركون أنه لا يوجد سوى دافِعٍ واحد فحسب لمنع الحديث الحُرِّ في احتفال الحرية هذا. الغرباء الذين يتنَصَّتون علينا لا أهميَّةَ لهم. يفترضون أننا نُلقي النِّكات. لكن ما يهمُّ حقًّا، لِحَدِّ الموت، هو أنه بيننا لا بُدَّ أن هناك شخصًا ما ليس مِنَّا، يعرف هدفنا الخطير، لكنه لا يشاركنا إيَّاه، شخص...".

صرخ السكرتير فجأةً كامرَأةٍ:

"لا يُمكِن!"، قال صائِحًا ومُتقافِزًا. "لا يمكن أن يكون بيننا...".

صفق الرئيس يده الكبيرة المسطحة على المائدة كزعنفة سمكة ضخمة ما.

"نعم"، قال ببطء، "يوجد جاسوسٌ في هذه الغرفة. على هذه المائدة يَجلِسُ خائِنٌ. لن أضيع أي كلمة أخرى. اسمه...".

نهض سايم بعضَ الشَّيء عن مقعده، إصبعه مُثَبَّتةٌ على الزِّناد.

"اسمه جوجول"، قال الرئيس. "إنه المحتال كَثُّ الشَّعر الجالس هناك، الذي يتظاهر بأنه بولنديٌّ".

نهض جوجول واثِبًا على قدميه، بمسدَّسٍ في كُلِّ يَدٍ. بنفس السرعة الخاطفة أمسك ثلاثةُ رجال بعُنُقه. حتَّى البروفسور العجوزُ بَذَلَ مجهودًا للنهوض. لكن سايم لم يَرَ الكثير ممَّا حدث؛ فقد أعماه ظلامٌ رحيمٌ؛ كان قد غرق في مقعده مُرتَعِشًا، في نوبَةِ شَلَلٍ من الارتياح الشَّهوانيِّ.

الفصل السابع

السُّلوكُ العَجيبُ للبُروفِسور دي وورمز

"اجلِسْ!" قال الأَحَدُ بصوتٍ استخدمه مرَّةً أو مَرَّتَيْن في حياته، صوتٌ جعل الرجال يضعون سيوفهم أرضًا.

ابتعد الثلاثة الذين نهضوا مُفسِحين الطريق لجوجول، وذلك الشخص المريب نفسه قد جلس ثانيةً.

"حسنًا، يا صديقي"، قال الرئيس بخشونة، مخاطِبًا إيَّاه كما يُخاطِب المرءُ شخصًا غريبًا بالكامل، "هل تَمتنُّ بوضع يَدِكَ في جيب معطَفِكَ العُلويِّ وإخراج ما لديك فيه؟".

كان البولنديُّ المزعوم شاحِبًا قليلًا تحت شعره المتشابك الداكن، لكنه وضع إصبعين في الجيب ببرود ظاهر وسحب بطاقةً زَرقاءَ. عندما رآه سايم يضعها على المائدة، استيقظ ثانيةً وانتبه للعالَم من حوله.

فرغم أن البطاقة كانت مُلقاةً على الطرف الآخر من المائدة، ولم يَكن بإمكانه قراءة حرفٍ واحدٍ ممَّا نُقِشَ عليها، إلَّا أنها كانت تحمل تشابُهًا مُفزِعًا مع البطاقة الزرقاء في جيبه هو، البطاقة التي أُعطِيَت له عندما انضمَّ إلى شرطة مكافحة الفوضويِّين.

"سِلافيٌّ مُثيرٌ للشَّفَقة"، قال الرئيس، "طفلُ بولندا البائس، هل أنت مُستَعِدٌّ في حضرة تلك البطاقة أن تُنكِرَ حقيقة أنك في هذه الصُّحبَة -هل نقول- زائد عن الحاجة؟".

"حقًّا، أوه!" قال جوجول المتباطئ. جعل هذا الجميع يتوثَّب لسماع صوتٍ واضح، تجاريٍّ ومُبتَذَلٍ بشكل ما يخرج من غابة الشَّعر الأجنبي هذه. كان الأمرُ لا عقلانيًّا، كما لو أن صينيًّا قد أضحى فجأةً يتحدَّث بلكنة اسكتلنديَّة.

"أعتقد أنك تفهم موقِفَك بالكامل"، قال الأحدُ.

"بالتأكيد"، أجاب البولندي. "أرى أن الأمر مُنصِفٌ. لكن ما أريد قوله، أنني لا أعتقد أن أيَّ بولنديٍّ بإمكانه أن ينجح في تقليد لكنتي كما قَلَّدتُ أنا لكنته".

"أعترف بذلك"، قال الأحد. "أعتقد أن لكنَتَك غيرُ قابِلَةٍ للمُحاكاة، رغم أنني سأتدرَّب عليها في المرحاض. هل تُمانِعُ في تَركِ لِحيَتِك مع بطاقتِك؟".

"لا، إطلاقًا"، أجاب جوجول؛ وبإصبَعٍ واحِدَة انتزع كامِلَ غطاء رأس الأشعث، كاشفًا عن شَعرٍ أحمرَ خفيف، ووجهٍ قبيحٍ شاحب. "كان خانِقًا"، أضاف.

"سأُنصِفُكَ بالقول"، قال الأحد، بشكلٍ لا يخلو من إعجابٍ مُتوحِّش ما، "إنَّكَ كنتَ تبدو هادئًا للغاية تحته. الآن أَنصِتْ لي. أنت تُعجِبُني. النتيجة أن الأمر سيثير ضيقي لحوالي دقيقتين ونصف فحسب إذا

سـمعتُ أنـك لقيـتَ حتفَـكَ في العذابـات. حسـنًا، إذا أخـبَرتَ الشُّرطَـةَ أو أيَّ روحٍ بشريـة مهـما كانـت بأمرِنـا، سـأعاني تلـك الدقيقتـين ونصـف مـن الانزعـاج. في مَشـقَّتِكَ وعذابـك لـن أتأمَّـل طويـلًا. يـوم طيـب. انتَبِـهْ للـدَّرَج".

نهـض المحقِّـقُ السـرِّيُّ ذو الشـعر الأحمـر الـذي تنكَّـر في شـخصيَّة جوجـول بـلا أي كلمـة، وخطـا خارجًـا مـن الغرفـة يحيطـه جَـوٌّ مـن اللامبـالاة المطلَقَـة. مـع ذلـك، كان سـايم المذهـول قـادرًا عـلى إدراك أن هـذه الأريحيَّـة كانـت مُصطَنَعَـةً؛ ففـي الخـارج كان صـوتُ تَعـثُّرٍ خافِـتٍ، أثبـت أن المحقِّـقَ السـري الراحـل لم ينتبـه لخطواتـه عـلى الـدَّرج.

"الوقـت يَمُـرُّ سريعًـا"، قـال الرئيـس بطريقتـه الأكـثر كآبـة، بعـد اقتناص نظـرة عـلى سـاعته، التـي بَـدَت، كأي شيء لـه علاقـة بـه، أكـبرَ مـن حجمها الطبيعـي. "عـليَّ أن أرحـل مـن فـوري؛ ينتظـرني مقعـدُ الرئيـس في اجتـماع الإنسانويِّين".

استدار السكرتير إليه بحاجِبَيْن مشغولَيْن.

"أليـس مـن الأفضـل"، قـال بِحِـدَّةٍ خافتـة، "أن نسـتمرَّ في مناقشـة تفاصيـل مشروعنـا، الآن وقـد رحـل الجاسـوس؟".

"لا، لا أعتقـد"، قـال الرئيـس مُتثائِبًـا كزلـزالٍ غـير مـرئي. "لتَبـقَ الأمـور كـما هـي. ليُنْـهِ السَّـبتُ المسـألةَ. ينبغـي أن أرحـل. الإفطـار هنـا في الأحـد القـادم".

لكـن المشـاهد الصاخبـة الأخـيرة كانـت قـد ضَرَبَـت بعُنـفٍ أعصـابَ السـكرتير الواهيـة. كان واحـدًا مـن هـؤلاء الرجـال المتمتِّعـين بالضمـير حتـى في مسـائل الجريمـة.

"لا بُـدَّ أن أحتـجَّ، سـيدي الرئيـس، إنَّ المسـألة غـير عاديـة"، قـال لـه. "مـن القواعـد الأساسـية في جمعيَّتنـا أن نُناقِـشَ جميـع الخُطَـطِ في وجـود

المجلـس بأكملـه. بالطبـع، أُقَـدِّر بالكامـل بَصيرَتَـكَ وتَروِّيَـكَ عندمـا قُمـتَ في حضـور الخائـن...".

"أيُّهـا السـكرتير"، قـال الرئيـس بحَـزم، "إذا أخَـذتُ رأسَـكَ إلى المنـزل وغَلَيْتُهـا كنبـات لِفْـتٍ قـد يكـون ذلـك مُفيـدًا. لسـتُ مُتيقِّنًـا، لكـن رُبَّمـا".

تَراجَعَ السكرتير في مقعده وكأنه حصانٌ غاضِبٌ.

"حقًّا لا أفهم ..."، بدأ بنبرةِ مَن يَشعُر بإهانَةٍ كبيرة.

"هـذه هـي المسـألة!"، قـال الرئيـس، هـازًّا رأسًـا مَهيبَـةً عِـدَّةَ مَـرَّاتٍ. "هـذا مـا تعجـز عنـه تمامًـا. عاجـز عـن الفهـم. يـا للعجـب، أيُّهـا الحـمار الراقـص"، زَمجَـرَ، ناهِضًـا، "لم تكـن ترغـب في أن يتنصَّـت عليـكَ جاسـوسٌ، أليـس كذلـك؟ كيـف تعلـم أنـه لا يتنصـت عليـك الآن؟".

وبهـذه الكلـمات شـقَّ طريقـه خارجًـا مـن القاعـة، مرتعشًـا بـازدراءٍ لا يوصـف.

فغـر أربعـة مـن الرجـال الذيـن تخلَّفـوا أفواهَهـم بـدون أي بريـق في أعينهـم يـدلُّ عـلى فهـم كلماتـه. سـايم وحـده كان يفهـم، وهـذا الفهـم أودى بـه إلى التَّجمُّـد حتـى النُّخـاع. إذا كانـت الكلـمات الأخـيرة للرئيـس تعنـي أي شيء، فهـي تعنـي أنَّـه، في نهايـة المطـاف، لم يُثِر فيهم أيَّ شـكوك. وتعنـي أنـه رغـم أن الأحـدَ لم يسـتطع اتِّهامـه كـما فعـل مـع جوجـول، إلَّا أنـه لا يثـق فيـه -مـا زال- كـما يَثِـقُ في الآخريـن.

نهـض الأربعـة الآخـرون متبرِّمـين بعـض الـشيء، وانطلقـوا إلى مـكانٍ آخـر لتنـاول الغـداء، فقـد تجـاوز الوَقـتُ بعـد الظهـيرة بكثـير. كان البروفسـور آخِـرَ الذاهبـين، ببطءٍ وألم شـديدين. جلـس سـايم بمفـرده بعـد أن رحـل البقيَّـة، مُتأمِّـلًا وَضعَـه الغريـب مـن كُلِّ الزوايـا. كان قـد أفلـتَ مـن صاعِقَـةِ بَـرقٍ، لكنـه مـا زال تحـت السَّـحابة الرُّكاميَّـة. في النهايـة نَهَـضَ وشـقَّ طريقـه خارجًـا مـن الفنـدق إلى ميـدان ليسـتر. النهـار البـارد المـشرق

أضحى أكثرَ برودةً؛ وعندما وصل إلى الشارع تفاجَأ بحفنةٍ من نُدَفِ الثَّلج.أبقى على العصا السَّيفيَّة وبقيَّة حقائب جريجوري، إلَّا أنه كان قد نزع العباءة السوداء وتركها في مكانٍ ما، ربَّما على القارب الصغير، ربما على الشرفة، آمِلًا، لذلك، ألَّا يتساقط الثلج بشدَّة. خَطَا خارجًا من الشارع لوَهلَةٍ ووَقَفَ تحت مدخل محلِّ حلاقَةٍ صغيرٍ ومشحَّم، كانت نافذته الأمامية خاوِيَةً، باستثناء تمثالٍ سَقيمٍ من الشمع لسيِّدَةٍ في ثياب السهرة.

بدأ الجليد -رغم ذلك- في التراكُم والتساقط بسرعة؛ وسايم، بعد أن وجد أن نظرةً واحدة إلى تمثال الشمع كانت كافيةً تمامًا لإصابته بالاكتئاب، حَملَقَ بدلًا من ذلك إلى الشارع الخاوي والأبيض. كان مُندَهِشًا للغاية أن يرى رَجُلًا، يقف ساكنًا تمامًا خارج محلِّ الحلاقة مُحَملِقًا في النافذة. قُبَّعتُه العالية كانت غارِقَةً في الجليد كبقعة سانتا كلوز، والركام الأبيض يرتفع حول كاحِلَيْه وحذائه الطويل؛ بدا وكأنَّ شيئًا لا يمكن أن ينتزعه من تأمُّل تمثال الشَّمع عديم اللون في ثوب السهرة القَذِر. ومسألة أن يقف أيُّ كائِنٍ بَشريٍّ في طقس كهذا يتطلَّع إلى محلِّ حلاقَةٍ كهذا كانت مسألةً عجيبة للغاية بالنسبة لسايم؛ لكن اندهاشه الفارغ هذا تحَوَّلَ فجأةً إلى صدمة شخصية؛ فقد أدرك أن الرجل الواقف قُبالَته كان البروفسور العجوز القعيد دي وورمز. لم يكن ذلك بالتأكيد مكانًا مُناسِبًا لرَجُلٍ في سِنِّه وعِلَلِه.

كان سايم على استعدادٍ لتصديق أيِّ شيء حول انحرافات هذه الأخويَّة عديمة الإنسانية؛ لكنه لم يكن ليصدِّق أن البروفسور قد وقع في حُبِّ تمثال الشمع الأنثوي ذلك بالتحديد. كان باستطاعته فقط أن يفترض أن مرض الرجل (أيًّا كان) كان يشتمل على نوباتٍ لحظيَّةٍ من الجمود أو الانجذاب المرَضِيِّ. على العكس من ذلك، هنَّأ نفسَه بالأحرى أن نَوْبَةَ البروفسور ومِشيَته العرجاء المدروسة ستسمح له بالهروبِ منه بسهولةٍ وتَركِه وراءه. فقد كان سايم يتوق أوَّلًا وأخيرًا

لتنقيـة الجـوِّ السـامِّ الـذي يحيـط بـه، حتـى وإن كان ذلـك لسـاعَةٍ واحـدة. وحينهـا يمكنـه اسـتجماعُ أفـكاره، صياغـة سياسـته، وأخـيرًا تحديـدُ مـا إذ كان عليـه أن يَفِـيَ بوعـده لجريجـوري أم لا.

سـارَ متمهِّلًا عـبر الجليـدِ الرَّاقـص، اسـتدار عبر شـارِعَيْن أو ثلاثـة، ومضى عـبر اثنـين أو ثلاثـة أخـرى، ثـم دلـف إلى مطعـمٍ صغـير في شـارع سـوهو الشـهير لتنـاول الغـداء. تنـاوَلَ مُتأمِّـلًا وجبـةً مـن أربـع أطبـاق صغـيرة وعجيبـة، احتـسى نصـف قنِّينـة مـن النبيـذ الأحمـر، وانتهـى بقهـوةٍ سـوداء وسـيجارٍ أسـود، مُفكِّرًا مـا زال. كان قـد اتَّخـذ مقعـده في القاعـة العلويـة مـن المطعـم، التـي كانـت تَغُـصُّ بقَعقَعَةِ السَّـكاكين وثرثـرة الأجانـب. تذكَّر أنـه طالمـا تخيَّـل في الأيـام الخـوالي أن كلَّ هـؤلاء الغُربـاء الأبريـاء والسُّذَّج كانـوا فوضويِّـين. ارتعـش، مُتذكِّـرًا الأمـر الحقيقـي. لكـن حتـى ارتعاشـته كانـت لهـا ذلـك الشـعور اللذيـذ بعـار الهـروب. النبيـذ، الطعـام الـرديء، المـكان المألـوف، وجـوه الرجـال العاديِّـين الثرثاريـن، كل هـذا جعلـه يشـعر كـما لـو أن مجلـس الأيـام السَّـبعة لم يكـن إلَّا كابوسًـا؛ ورغـم أنـه يعـرف أنـه كان حقيقـةً موضوعيَّـةً جـدًّا، إلا أنهـا حقيقـة بعيـدة الآن عـلى الأقـل. كانـت المنـازل الطويلـة والشـوارع المزدحمـة بمثابـة حاجـزٍ بينـه وبـين آخـر مـرَّةٍ رأى فيهـا سَـبعَةَ العـار؛ كان حُـرًّا في لنـدن الحُـرَّة، يحتـسي النبيـذ بـين الأحـرار. بارتيـاحٍ أكـبر بشـكلٍ مـا، تنـاوَلَ قُبَّعَتـه وعصـاه وخَطَـا عـبر الـدَّرَج مُتَمهِّلًا إلى المقهـى في الأسـفل.

عندمـا دلـف إلى تلـك القاعـة السُّـفليَّة وقـف مذهـولًا وقـد تجـذَّرَت قدمـاه في مكانهـما. في مائـدةٍ صغـيرة، قريبًـا مـن النافـذة السـوداء والشـارع الأبيـض الغـارق في الجليـد، كان يجلـس البروفسـور الفوضـويُّ العجـوز أمام كـوبٍ مـن الحليـب، بوجهـه الشـاحب المرتفـع، وجَفْنَيْـه المتدلِّيَيْن. لوهلَـةٍ وقـف سـايم مُتصلِّبًـا كالعصـا التـي يسـتند عليهـا. ثـم بتَعَجُّـلٍ أعمـى، اندفـع مـارًّا بالبروفسـور، دافِعًـا البـاب بقـوَّةٍ، وغالِقًـا إيَّـاه بعُنـفٍ وراءه، ثـم وقـف في الخـارج في الجليـد.

"هل تُلاحِقُني تلك الجُثَّة العجوز؟" سأل نفسه، عاضًا على شاربه الأصفر. "تلكَّأتُ كثيرًا في ذلك المطعم القاعة، بحيث أنه حتى قدمان ثقيلتان كهاتين يمكنهما اللحاق بي. العزاء الوحيد هو أنني بقليلٍ من المشي الرشيق يمكنني وضع ذلك الرجل بعيدًا حتى حدود تيمبوكتو. أم أنني واهِمٌ؟ هل كان يتبعني حقًّا؟ بالتأكيد ليس الأَحَدُ بتلك الحماقة حتى يرسل رجلًا كسيحًا كهذا".

انطلق في سَيرِه بخطواتٍ خفيفة، يلوي عصاه ويديرها، في اتجاه حديقة كوفينت. عند مروره بالسوق الكبيرة ازداد هطول الجليد، وغدا مُعمِيًا ومُربِكًا مع انتهاء النهار. أزعَجَته نُدَفُ الثَّلج وكأنها جماعَةٌ من النحل الفضِّيّ، باختراقها لعينيه ولحيته، زادت عبَثيَّتُها التي لا تنقطع من اهتياجِ أعصابه المهتاجة بالفعل؛ وعندما وصل إلى مرحلة الخطوات المتمايِلَة في بداية شارع فليت، فقد صَبرَه، وبعد أن وجد مقهى شاي، استدار إليه بحثًا عن مأوى. طلب كوبًا آخر من القهوة السوداء كمُبَرِّر. فور أن فعل ذلك، كان البروفسور دي وورمز قد عَرَجَ متثاقلًا إلى داخل المقهى، جلس بصعوبة وطلب كوبًا من الحليب.

سقطت عصا سايم السَّيفيَّة من يديه مُحدِثَةً قَعقَعَةً كبيرة، وهو ما كشف عن المعدن المخبَّأ في داخلها. رغم ذلك، لم ينظر البروفسور حوله. لكن سايم، الذي كان يتمتَّع بثبات النفس عادةً، كان فاغِرَ الفاه حرفيًّا كما يحدِّق الريفيُّون فاغري الأفواه إلى خُدَع استحضار الأرواح. لم يَرَ أيَّ عربةِ أُجرَةٍ تَتبَعه؛ لم يسمع أيَّ عجلات تتوقَّف خارج المقهى؛ وبكل مظاهره الفانية جاء الرجل على قدميه. لكن الرجل العجوز لم يكن بإمكانه سوى السير كحلزون، بينما سار سايم بسرعة الرياح. جَفلَ واقفًا وانتزع عصاه، فاقدًا عقله تقريبًا بسبب التناقُض في هذا الحساب الرياضي البحت، ثم اندفع خارجًا من الأبواب الدَّوَّارة، تاركًا قهوته قبل أن يتذوَّقها. كان باص عموميٌّ في طريقه إلى

ضِفَّـة النهـر ينطلـق مُقَعقِعًـا بسرعـة غـير عاديـة. كان أمـام سـايم مسـافة مائـة يـاردة عليـه أن يقطعهـا بعنـف للوصـول إلى البـاص؛ لكنـه نجـح في الوثـب، مُتمايِلًا ومُستَنِدًا عـلى حاجـز البـاص الخلفـي، ثـم توقَّـفَ لِلُّهـاث لِبُرهَـةٍ، ثـم صعـد لأعـلى. بعـد أن جلـس لنصـف دقيقـة تقريبًـا، سـمع وراءه لهاثًـا ثقيـلًا لشـخصٍ مُصـابٍ بالرَّبـو.

عندمـا اسـتدار بحـدَّة، رأى، ترتفـع تدريجيًّـا عـلى درجـات البـاص، قُبَّعَـةٌ عاليـة مُتَّسِـخة يتقاطـر منهـا الجليـد، وتحـت ظِـلِّ حافَّتِهـا الوجـهُ قصـير النظـر، والذِّراعـان المرتعشـتان للبروفسـور دي وورمـز. جلـس عـلى مقعـدٍ بعنايـة مُميِّـزة لـه، والتـفَّ حتـى ذَقنِـه بدثـارٍ واقٍ مـن المطـر.

كل حركـة في هيئـة الرجـل العجـوز المترنِّحـة ويديـه المبهَمَتَـيْن، كل إيمـاءة مُتشـكِّكة وتَوقُّـف بسـبب الفـزع، بَـدَت وكأنهـا تُؤكِّـد تمامًـا عجـزَه وبُؤسَـه، أنـه كان في آخـر حماقـات الجسـد. يتحـرَّك بالإنشـات، ويسـتغرق في لُهاثـاتٍ حَـذِرَةٍ قصـيرة جـدًّا. ومـع ذلك، مـا لم تَكُـن الكينونات الفلسـفية التـي تُعـرَف باسـم الزمـان والمـكان قـد فَقَـدَت كُلَّ أثـر مـن الوجـود العمـليّ، فإنـه، بِشَـكلٍ لا يرقـى إليـه الشَّـكُّ، قـد نجـح في اللحـاق بالبـاص.

انتفـض سـايم واقفًـا في العربـة المتأرجحـة، ومُحَملِقًـا بجنـونٍ في السـماء الشـتوية، التـي تـزداد تَجَهُّـمًا في كل لحظـة، هـرع نـازلًا مـن عَتبات الـدَّرَج، بعـد أن قمـع دافعًـا غريزيًّـا للقفـز مـن عليـه دفعـةً واحـدة.

مرتبـكًا وعاجـزًا بالتَّـالي عـن النظـر وراءه أو حتـى عـن التفكـير، اندفـع إلى واحـدة مـن السـاحات الصغـيرة عـلى جانـب شـارع فليـت كـما تندفـع الأرانـبُ إلى جحورهـا. واتَتـه فِكـرَةٌ غامِضَـة، إذا كان ذلـك المهـرِّج الزُّنـبُرُكيُّ العجـوز الغامـض يتَعقَّبـه بالفعـل، فإنـه في متاهَـة الشـوارع الصغـيرة تلـك بإمكانـه خِداعُـه والتَّخلُّـص منـه. غـاص داخـلًا وخارجًـا مـن تلـك الحـواري الملتويـة، التـي كانـت عـلى شـكل شـقوقٍ أكثر مـن كونهـا مَمـرَّاتٍ للمـشي؛ وبعـد أن نجـح في إكـمال حـوالي عشريـن مـن الزوايـا المتبدِّلَـة راسِـمًا

مُضَلَّعًا هندسيًّا غير معقول، توقَّف لبرهة للإنصات لأي تعقُّب. لم يسمع شيئًا؛ في كل الأحوال لم يكن بإمكانه سماعُ الشيء؛ فالشَّوارِعُ الضيِّقة كانت مُثقَلَةً بالثَّلج المُصمَت. في مكانٍ ما خلف ساحَةِ ريد ليون، رغم ذلك، لاحظ مكانًا قام بعض المواطنين الصالحين بتنظيفه من الجليد لمساحة عشرين ياردة تقريبًا، مُخَلِّفين وراءهم أحجارًا نَدِيَّةً مُتَلألِئَةً على الرصيف. فكَّر في هذا قليلًا عند مروره به، فقط لينغمس في ذراعٍ أخرى من المتاهة. لكن عندما وقف بعد مائة ياردة أخرى للإنصات، توقَّف قلبه أيضًا؛ فقد سمع من تلك المساحة من الأحجار الخَشِنَة قَعقَعَةَ العُكَّاز والقدم الكادِحَة لذلك القعيد القادم من الجحيم.

كانت السَّماءُ من فوقه مُحمَّلَةً بسُحُب الجليد، تاركةً لندن في ظلامٍ وتَجهُّمٍ سابِقٍ لأوانه في تلك الساعة من المساء. على جانبي سايم كانت حوائِطُ الزُّقاق مُصمَتَةً بلا علاماتٍ مُميِّزَة؛ وبلا أيِّ نوافذ صغيرة أو أي نشاط بشري. شَعَرَ بدافِعٍ جديد للهروب من خليَّة نحل المنازل هذه، والخروج ثانيةً إلى الشوارع المفتوحة المضاءة. مع ذلك استمرَّ في تجوُّله وتَمايُله لوقتٍ طويل قبل أن يصل إلى الشارع الرئيسي. وبعد أن وصل إلى أبعد ممَّا كان قد تَخيَّله. وصل خارجًا إلى ما يبدو أنه سيرك لودچيت الشَّاسِع والخاوي، ورأى قِمَّة كاتدرائية سان بول في السماء.

في البداية جَفَلَ لاكتشافه خواءَ تلك الطُّرُق العظيمة، كما لو أن طاعونًا قد اكتسح المدينة. ثم قال لنفسه إنَّه من المعقول وجودُ درجةٍ مُعيَّنَةٍ من الخواء؛ أوَّلًا لأن العاصفة الجليدية كانت عاتِيَةً جدًّا، وثانيًا لأنَّه كان يوم الأحد. وعند كلمة الأحد تلك عضَّ شفتيه؛ فقد اكتسبت توريةً شنيعة. تحت الضباب الأبيض للجليد الصاعد في السماء تحوَّل جَوُّ المدينة بأكمله إلى نوعٍ غريب من الظلام الأخضر، كما لو كان ظِلالًا بشريَّةً تحت البحر. والغروب المكتوم والكئيب وراء القُبَّة المظلِمَة لكاتدرائية سان بول كان ذا ألوان وأدخنة شريرة-

ألـوان الأخـضر السـقيم، الأحمـر الميـت، أو البرونـزي المتَحلِّـل، مُشرِقَـة مـع ذلـك بمـا يكفـي لتأكيـد البيـاض الجامـد للجليـد. لكـن أمـام تلـك الألـوان المفزعـة ارتفعـت الكُتلَـة السـوداء للكاتدرائيـة؛ وعـلى قِمَّتهـا كان رذاذٌ ولُطَـخُ الجليـد، وكأنهـا مُتعلِّقـة مـا زالـت بقِمَّـةٍ مـن قِمَـمِ جبـال الألـب. كان قـد تسـاقَطَ عشـوائيًّا، لكنـه تسـاقَطَ بطريقـة شَـكَّلَت مـا يشـبه سـتارةً مفتوحـة عـلى القُبَّـة مـن ذروتهـا، مُـبرِزَةً الفـضِّيَّ الخالِـصَ للصليـب والدائرة العظيمـة. عندمـا رأى سـايم ذلـك انتصـب في وقفتـه فجـأة، وأرسـل بعصـاه السـيفية تحيَّـةً تلقائيَّـةً.

كان يعـرف أن هيئـة البشريـة الشريـرة، المتمثِّلـة في ظِلِّـه، كانـت تزحف سريعًـا أو بطيئًـا ربمـا مـن خلفـه، لكنـه لم يُبالِ.

رأى في تألُّـق ذلـك المـكان السـامق مـن الأرض مـع إظـلام السـماء رمـزًا للإيمـان والشـجاعة الإنسـانية. ربمـا نجَحَـت الشـياطينُ في احتـلال السـماء، لكنهـا لم تَصِـلْ بَعـدُ إلى الصليـب. راوَدَه دافِـعٌ جديـد لانتـزاع سِرِّ ذلـك القعيـد الراقـص، القافـز الـذي يتعقَّبـه؛ وفي مدخـل السـاحة عنـد انفتاحهـا عـلى السـيرك اسـتدار، والعصـا في يـده، لمواجهـة مُلاحِقِـه.

ظهـر البروفسـور دي وورمـز مُتباطِئًـا مـن زاويـة الزقـاق المتعـرِّج مـن ورائـه، شـكله البـشريُّ غـير العـادي مُحـدَّدُ الحَـوافِّ أمـام مصبـاح غـازٍ وحيـد، مُسـتَدعِيًا عـلى نحـوٍ لا يُقـاوَمُ ذلـك البَـشريَّ التَّخيُّـليَّ في أغـاني الأطفـال، "الرجـل الملتـوي الـذي سـار عـبر شـارع مُلتَـوٍ لميـلٍ كامـل". بـدا حقًّـا كـما لـو أنـه اكتسـب التـواءه بفعـل تعذيـب الشـوارع التـي كان يَطرُقهـا بخطواتـه. اقـترب أكـثر وأكـثر، مصبـاح العمـود يتألَّـق عـلى نظارتـه المرفوعـة ووجهـه المريـض المرفـوع. انتظـره سـايم كـما انتظـر القِدِّيـس جـورج التِّنِّـين، كرَجُـلٍ ينتظـر تفسـيرًا نهائيًّـا أو ينتظـر المـوت. ثـم جـاء البروفسـور العجـوز عـلى الفـور ومـرَّ بـه كشَـخصٍ غريـبٍ بالكامـل، بِـلا حتَّـى طرفَـةٍ مـن جَفنَيْـه الكئيبـين.

شيءٌ ما في هذه البراءة الصامتة وغير المتوقَّعة خلَّف في سايم ثورةَ غَضبٍ هائلة. وجه الرجل عديم اللون وطريقته بَدَوَا وكأنهما يؤكّدان أن مسألة التَّعقُّب بأكملها كانت مَحض صُدفةٍ. ارتعش سايم بطاقةٍ كانت شيئًا ما بين المرارة وانفجار السُّخرية الصبيانيّة. أبدى إيماءةً شَرِسَةً كما لو كان لإسقاط قُبَّعَةِ الرجل العجوز من رأسه، وصاح قائِلًا شيئًا ما، يشبه" "أَمْسِكْ بي إن استَطَعتَ"، ثم انطلق مُسرِعًا عبر السيرك المفتوح، الأبيض. أصبح الاختفاء مُستحيلًا الآن؛ وبالتَّطلُّع للوراء من فوق كتفه، كان بإمكانه رؤية الشكل البشري الأسود للچنتلمان العجوز قادمًا في إثرِه بخطواتٍ طويلة، مُتمايِلَةٍ، كرَجُلٍ في طريقه للفوز في سباق الميل. لكن الرأس على ذلك الجسد المستثار كان ما زال شاحِبًا، وقورًا وأستاذيًا، كرأس مُحاضِرٍ جامعيٍّ على جسد مُهرِّج.

استمرَّت هذه المطارَدَةُ المهتاجة عبر سيرك لودچيت، صعودًا إلى تَلّ لودچيت، مُلتفَّةً حول كاتدرائية القدّيس بول، بمحاذاة تشيبساید، بينما سايم يتذكَّر كُلّ الكوابيس التي عرفها في حياته. ثم ابتعد سايم واتَّجه إلى النهر، وانتهى به الحال وقد سقط تقريبًا على الأرصفة. رأى النوافذ الصفراء لحانَةٍ واطِئَة، ومُضاءَةٍ، واندفع إلى داخلها، ثم طلب كأسًا من البيرة. كانت حانَةً عَطِنَةً، يتناثر فيها البحَّارة الأجانب، مكانًا يُمكِن فيه للأفيون أن يُدَخَّنَ، أو السكاكين أن تُسحَب.

بعدها بلحظاتٍ دَلَفَ البروفسور دي وورمز إلى المكان، جلس بحَذَرٍ، وطلب كوبًا من الحليب.

الفصل الثامن

البروفسور يَتَكلَّمُ

عندما وجد جابرييل سايم نفسه مُستقرًّا بحَسمٍ على مقعدٍ في مواجهة البروفسور، المستقرّ والحاسم أيضًا، بحاجِبَيْه المرفوعَيْن وجفنيه المتراخيَيْن، عادت مَخاوفُه بالكامل. هذا الرجل الغامض من المجلس الشَّرِس، في نهاية المطاف، كان يتعقَّبه بالتأكيد. إذا كان الرجل يحمل شخصيَّةَ القعيد وشخصيةً أخرى كمتعقِّب، فإن هذا التناقُض يجعله أكثرَ إثارةً للاهتمام، لكن بالكاد أكثر إثارة للهدوء. سيكون الأمر مجرَّد عزاءٍ ضئيل جدًّا أنه يعجز عن الوقوف على حقيقة البروفسور، إذا استطاع البروفسور -بصُدفَةٍ نادرةٍ ما- اكتشافَ حقيقته. أفرغ إناءً قصديريًّا كامِلًا من جعَة المزر قبل أن يلمس البروفسور حليبَه.

احتماليَّةٌ واحدة -رغم ذلك- أبقَت على الأمل لديه، والعَجز رغم ذلك. قد تكون هذه المغامرة تعني شيئًا ما أكبر من مجرَّد الشكوك

البسيطة تجاهه. ربما كانت شكلًا أو علامةً مُعتادَةً أخرى. ربما كان الراكض الأحمق شكلًا من أشكال الإشارات الوَدودة التي كان عليه أن يُدرِكَها. ربما كان الأمر طقسًا من الطُّقوس. ربما كان الخميس الجديد مطاردًا دائمًا بمحاذاة تشيبسايد، تمامًا كما أن السيد العمدة الجديد يمضي بحاشِيَةٍ تُرافِقه دائمًا. كان سايم يفكِّر في طريقةٍ مُلائِمَة لطرح السؤال، عندما قطع عليه البروفسور العجوزُ الجالس قبالَتَه أفكارَه بمنتهى البساطة. قبل أن يتمكَّن سايم من طرح السؤال الدبلوماسي الأول، سأله الفوضويُّ العجوز فجأةً، بلا أي مقدِّمات:

"هل أنت شُرطيٌّ؟".

أيًا كان ما تَوَقَّعه سايم، فلم يتوقَّع أبدًا أيَّ شيء وحشي وصادم كهذا. بل إن حضور ذهنه القوي لم يتمكَّن من الرَّدِّ سوى بمُداعَبَةٍ حمقاءَ بعض الشيء.

"شرطي؟"، قال له، ضاحِكًا بغموض. "ماذا بحقِّ السماء دفَعَكَ للاعتقاد بأنني شرطي؟".

"كانت المسألة بسيطة جدًّا"، أجابه البروفسور بصبر. "فكَّرتُ أنَّك تشبه شُرطيًّا. أعتقد ذلك الآن".

"هل تناوَلتُ قُبَّعَة شُرطيٍّ بالخطأ من المطعم؟"، سأله سايم، مُبتَسِمًا بتهوُّر. "هل التصق بي رقمٌ ما صُدفةً في مكانٍ ما؟ هل حذائي الطويل له تلك النظرة المتوثِّبة؟ لماذا ينبغي أن أكون شرطيًّا؟ هل يمكن أن أكون رجلَ بريدٍ؟".

هزَّ البروفسور العجوز رأسه بوقارٍ لا يمنحُ أيَّ أمَلٍ، لكن سايم تابع حديثه بسخرية محمومَةٍ.

"ربَّما لم أفهم جيِّدًا دقائق فلسَفَتَكَ الألمانية. ربما كان الشرطي مصطلحًا نسبيًّا. بالمعنى الثوري، يا سيدي، يتحوَّل القِردُ تدريجيًّا

ويتـلاشى إلى رَجُـلِ الشرطـة، لحـدّ أنـه لا يعـود مـن الممكـن اكتشـافُ الفَـرقِ. رجـل الشرطـة لا يمكـن أن يكـون إلّا قـردًا. ربمـا يكـون مجـرد فتـاة صغـيرة في حديقـة كالافـم كومـون. لا أمانـع في أن أكـون ذلـك الشرطـيّ الـذي قـد يكـون أيَّ شيء. لا أُمانِـع في أن أكـون أيَّ شيء في الفِكـر الألمـاني".

"هـل أنـتَ في خدمـة الشرطـة؟" قـال الرجـل العجـوز، مُتجاهِـلًا كلَّ مَزحـات سـايم المرتَجَلـة والبائسـة. "هـل أنـت مُحقِّـقٌ سِرِّيٌّ؟".

تحوَّل قلب سايم إلى حجر، لكنَّ وَجهَه لم يتغيَّر بتاتًا.

"ما توحي به هو أمرٌ سخيف"، بدأ قائلًا. "ماذا بحق السماء...".

خبـط العجـوزُ يـدَه المشـلولة بانفعـالٍ عـلى المائـدة المتداعيـة، مُهشِّـمًا إيّاهـا تقريبًـا.

"هـل سـمعتني أطـرح سـؤالًا بسـيطًا، أيُّهـا الجاسـوس الثرثـار؟" صـاح بصـوتٍ عـالٍ، مجنـون. "هـل أنـت مُحقِّـقٌ سِرِّيٌّ يتبـع الشُّرطَـةَ أم لا؟".

"لا!"، أجابه سايم، كَرجُلٍ على وشك السقوط من فتحة المشنقة.

"لتقُسِـمْ عـلى ذلـك"، قـال العجـوز، مقتربًـا منـه، وجهـه الميِّـتُ كـما لـو أنـه غـدا حيًّـا عـلى نحـوٍ مُقـزِّز. "لتقسـم عـلى ذلـك! لتقسـم عـلى ذلـك! إذا أقسَـمتَ باطـلًا، فهـل تقبـل أن تَحـلَّ عليـكَ اللعنـة؟ هـل تقبـل أن يرقـص الشـيطان في جنازَتِـكَ؟ هـل تقبـل أن تـرى الكابـوس يَجثُـمُ عـلى قَـبرِكَ؟ أفِعـلًا لا يوجـد خطـأ في المسـألة؟ أنَّـكَ فوضـويٌّ مُفجِّـر ديناميـت! أيًّـا كان، ألسـتَ بـأيِّ شـكلٍ مُحقِّـقٌ سرِّيٌّ؟ ألسـتَ في الشرطـة البريطانيـة؟".

أسـنَدَ مرفَقَـه قائِـمَ الزاويـة عـلى طـول المائـدة، ووضـع يـده الكبـيرة المرتخيـة كجنـاح عـلى أذنـه.

"لستُ في الشرطة البريطانية"، قال سايم بهدوءٍ مجنون.

تراجَـعَ البروفسـور دي وورمـز في مقعـده بحـسٍّ عجيـب مـن الانهيـار المسـالِم.

"يُؤسِفُني سماعُ ذلك"، قال له، "لأنني كذلك".

انتفض سايم واقِفًا، دافِعًا المقعد إلى وراءه بصَخبٍ شديد.

"لأنك ماذا؟"، قال مُسرِعًا. "أنتَ ماذا؟".

"أنـا شُرطـيٌّ"، قـال البروفسـور بابتسـامته العريضـة الأولى، وبعينـين متوهِّجَتَيْن عـبر نظّارتـه. "لكـن بمـا أنَّـكَ تـرى أن الشرطـي مُصطَلَحٌ نِسبيٌّ، إذن فـلا شيء يربطنـي بـكَ. أنـا في قـوة الشرطـة البريطانيـة؛ لكـن بمـا أنـك تقـول إنَّـكَ لسـتَ في قـوة الشرطـة البريطانيـة، فـلا يسـعني القـول إلا أننـي قابَلتُـكَ في نـادي مُفجِّـري الديناميـت. أعتقـد أنـه يتوجَّـبُ عـليَّ القبـض عليـكَ". وبهـذه الكلـمات وضـع عـلى المائـدة أمـام سـايم نسـخة طبـق الأصـل مـن البطاقـة الزرقـاء التـي يحملهـا سـايم في جيـب مِعطَفِـه، رمـز سُـلطَتِه الممنوحـة مـن الشرطـة.

لِلحظَـةٍ راوَدَ سـايم شـعورٌ بـأن الأكـوان انقلَبَـت رأسًـا عـلى عقـب، وبـأن الأشـجار غَـدَت تنمـو إلى الأسـفل، وأن كل النجـوم أصبحـت تحـت قدَمَيـه. وحينهـا بطيئًـا جـاءه اليَقـينُ المعاكـس. طـوال الأربـع والعشريـن سـاعةً السـابقة كانـت الأكـوان قـد انقلبـت رأسًـا عـلى عَقِـبٍ بالفعـل، لكـن الآن اعتـدل الكـونُ المقلـوب. هـذا الشـيطان الـذي كان سـايم يتحاشـاه طـوالَ النهـار لم يكـن سـوى أخٍ أكـبرَ سِـنًّا مـن نفـس البيـت، كان عـلى الجانـب الآخـر مـن المائـدة يسـتلقي ويَسـخَرُ منـه. لم يسـأله الآن عـن أيِّ تفاصيـل؛ كان يعـرف فحسـب الحقيقـة السـعيدة والهزليَّـة بـأن ظِلَّـه -الـذي كان يتعقَّبُـه حامِـلًا معـه مَخاطِـرَ لا تنتهـي- لم يكـن سـوى ظِـلٍّ لصديـقٍ يحـاول اللحـاق بـه. أدرك عـلى الفـور أنـه كان أحمـقَ، ورَجُـلًا حُـرًّا. لأنَّـه مـع أي تَعـافٍ مـن السـوادوية لا بُـدَّ أن يحـدث إذلالٌ قَـويٌّ مُعـيَّن. وحينهـا تظهـر لحظـة بعينهـا تصبـح فيهـا ثلاثـة أشـياء مُمكِنَـة فحسـب: أوَّلًا، تأبيـد الكبريـاء الشـيطاني، وثانيًـا الدمـوع، وثالثًـا الضحـك. وجـد غـرورُ سـايم صعوبـةً للوصـول إلى المسـار الأول لبضعـة ثـوانٍ؛ ثـم

اختـار فجـأةً الثالـث. تنـاوَل بطاقتـه الزرقـاء مـن جيـب معطفـه وألقاهـا عـلى المائـدة؛ ثـم طـوَّح برأسـه للـوراء حتـى أصبـح طـرفُ لحيتـه الصفـراء في اتجـاه السـقف تقريبًـا، ثـم أطلـق ضحكـةً بربريّـةً مُدوِّيـة.

حتَّـى في ذلـك العريـن الضيـق، الممتلـئ أبـدًا بالسـكاكين، والصحـون، والمعلَّبـات، والأصـوات الصاخبـة، والصراعـات والفـرارات المذعـورة المفاجئـة، فـإن شـيئًا مـا "هُومريًّـا" وبُطوليًّـا في ابتهـاج سـايم دفـع بكثـير مـن السُّـكارى إلى التطلُّـع ناحيتـه.

"عـلى مـاذا تضحـك يـا رئيـس؟" سـأل واحـدًا مـن العُـمَّال المندهشـين مـن ناحيـة الأرصفـة.

"على نفسي"، أجابه سايم، وانغمس ثانيةً في عذابات نشوَتِه.

"تمالَـكْ نفسـك"، قـال البروفسـور، "وإلَّا سـيتحوَّل الأمـر إلى هسـتيريا. احْتَـسِ مزيـدًا مـن البـيرة. سـأنضمُّ إليـكَ".

"لم تَحتَسِ حليبك"، قال سايم.

"حليبـي!"، قـال الآخـر، بنغمـة مـن الازدراء المدمِّـر والمبهَـم، "حليبـي! هـل تظـنُّ أننـي قـد أنظـر إلى هـذه المـادة البهيميّـة عندمـا أكـون مُتواريًـا عـن أنظـار الفوضويِّـين اللعينـين؟ كلُّنـا مسـيحيُّون هنـا، رغـم أننـا..."، أضـاف، مُختَلِسًـا النظـرات إلى الجمـع المترنِّـح"، "لسـنا مسـيحيِّين مُتشـدِّدين. أُنهـي حليبـي؟ يـا للجحيـم، سـأُنهيه، سـأنهيه عـلى الفـور!"، ثـم أطـاح بالـكأس مـن عـلى المـادة، مُهشِّـمًا الزجـاج وناثِـرًا رذاذ السـائل الفـضِّي.

كان سايم يحدِّق فيه بفضولٍ سعيد.

"أفهم الآن"، صاح قائلًا؛ "بالطبع، لستَ رجلًا عجوزًا على الإطلاق".

"لا يمكنني نَزعُ وجهي هنا"، أجابه البروفسور دي وورمز. "إنه بالأحرى تنكُّر مُتقَنٌ بالمساحيق. وبالنسبة لمسألة أنني رجلٌ عجوز، فلا يُمكِن قولُ ذلك. كنتُ في الثامنة والثلاثين في عيد ميلادي الأخير".

"نعم، لكن ما أعنيه"، قال سايم بنفادِ صَبرٍ، "أنَّكَ لا تعاني من أي مشاكل".

"نعم"، أجاب الآخر بهدوء. "لكنَّني عُرضَةٌ للبرد".

كانت ضحكات سايم على كلِّ هذا ذاتَ ارتياحٍ مُمتَلِئ بالضَّعف المتوحِّش. ضحكَ على فكرة أن البروفسور القعيد هو مُمَثِّلٌ شابٌّ يرتدي أزياءَ كما لو من أجل أضواء المسرح. لكنه شعر أنه كان ليضحك بنفس الصَّخَب على سقوط قنِّينة فُلفُلٍ.

احتسى البروفسور الزَّائِف بعضَ الجعَّة ومسح على لحيته الزائفة.

"هل كنتَ تعرف"، سأله، "أن جوجول كان واحدًا منَّا؟".

"أنا؟ لا، لم أعرف ذلك"، أجابه سايم مُتفاجِئًا بعض الشيء."لكن ألم تعلم أنتَ؟".

"لم أعلم بأكثر ممَّا يعلم الميِّت"، أجاب الرجل الذي يدعو نفسه دي وورمز. "أعتقد أن الرئيس كان يتحدَّث عني، وكنت أرتعش في حذائي".

"واعتقدتُ أنا أنه يتحدَّث عنِّي"، قال سايم، بضحكته المتهوِّرة بعض الشيء. "كانت يدي على زناد مُسدَّسي طوال الوقت".

"وكذلك أنا"، قال البروفسور مُتجهِّمًا؛ "وكذلك جوجول بالتأكيد".

ضرب سايم المائدة باندهاش.

"يا للعجب، كان هناك ثلاثة مِنَّا!"، صاح قائلًا. ثلاثة من سبعة رَقمٌ كبير. فقط لو علمنا أننا كُنَّا ثلاثة!".

أظلَمَ وَجهُ البروفسور دي وورمز، ولم ينظر لأعلى.

"كنّا ثلاثة"، قال. "إذا كُنّا ثلاثمائة فلم يكن باستطاعتنا فعل شيء أيضًا".

"لسنا إذا كُنّا ثلاثمائة ضدّ أربعة؟" سأله سايم، ساخِرًا بصوتٍ عالٍ بعض الشيء.

"لا"، قال البروفسور برصانة، "ولا حتّى إذا كُنّا ثلاثمائة ضدّ الأَحَد".

وبمجرّد ذِكر الاسم أُصيب سايم بالبرودة والتجهُّم؛ ماتت ضحكته في قلبه قبل أن تتمكّن من الموت على شفتيه. انبثق وجه الرئيس الذي لا يمكن نسيانه في عقله مروِّعًا كصورة واضحة الألوان، وأدرك الفرق بين الأحد وكل أتباعه: أن وجوههم -مهما كانت شَرِسَةً أو شرِّيرة- سرعان ما تصبح مُشوّشة بالذكرى كوجوهِ البشر الآخرين، بينما يبدو وجه الأحد وكأنه يزداد واقعيّةً في غيابه، تمامًا كما تنبض البورتريهات المرسومة بالحياة.

طوال لحظات استغرق كلاهما في الصمت، ثم انطلقت كلمات سايم كاندفاعة رغوة الشمبانيا المفاجِئة.

"يا بروفسور"، صاح قائلًا، "هذا غير مقبول. هل أنت خائِفٌ من هذا الرجل؟".

رفع البروفسور حاجبيه الكَثّيْن، وحدّق في سايم بعينين كبيرتين، زرقاوين، مفتوحتين على اتساعهما كتجسيد للبراءة السَّماويّة.

"نعم، أنا خائف"، قال بلُطفٍ. "وكذلك أنتَ".

لوَهلَةٍ كان سايم عاجزًا عن الكلام. ثم نهض واستقام، كرجل تعرّض لإهانةٍ، وقذف بالمقعد بعيدًا.

"نعم"، قال بصوتٍ لا يوصَف، "أنت على حَقٍّ. أنا خائف منه. لذلك أُقسِمُ بالرّبِّ أنني سأبحث عن هذا الرجل الذي أخشاه حتى

أجِـدَه، ثـم أضربـه عـلى فمـه. إذا كان عرشـه في السـماء وعـلى الأرض كرسيُّه، فأُقسِـمُ أنني سـأُنزِلُه مـن عليـه".

"كيف؟" سأله البروفسور مُحدِّقًا فيه. "لماذا؟".

"لأنني خائِـفٌ منـه"، قـال سـايم؛ "ولا يجـدر بـأي رَجُـلٍ أن يـترك وراءه في الكـون أي شيء يخشـاه".

طـرفَ دي وورمـز بعينيـه بشـكلٍ مـن أشـكال التَّعجُّـب الأعمـى. بـذل جهده للتحـدُّث، لكـن سايم تابـع بصـوتٍ خفيـضٍ، لكـن بتيَّـارٍ خَفـيٍّ مـن الاسـتثارة غـير البشريـة:

"مَـن هـذا الـذي يتنـازل ويَصعَقُ تلـك الأشـياء التافهة التي لا يخشـاها؟ مَـن هـذا الـذي يُـذلُّ نفسـه حتـى يكـون شـجاعًا فحسـب، كأيِّ مُلاكِـمٍ عـاديٍّ مـن أجـل المـال؟ مَـنْ هـذا الـذي ينحنـي حتـى يكـون مِقدامًـا وشُـجاعًا- كشَـجَرةٍ؟ قاتِـل الـشيء الـذي تخشـاه. تتذكَّـر الحكايـة القديمـة عـن القـسِّ الإنجليـزي الـذي تـلا الطقـوس الأخـيرة عـلى قاطـع طريـق مـن صِقِليَّـة، وكيـف أن الُلـصَّ العظيـم قـال وهـو عـلى فِـراش المـوت، "لا يمكننـي مَنحُـكَ مـالًا؛ لكـن بإمـكاني مَنْحُـكَ نصيحـةَ حيـاةٍ بأكملهـا: "إبهامـك عـلى النصـل، واضرب لأعـلى". وهكـذا أقـول، اضرِبْ لأعـلى، إذا أَرَدتَ أن تـضرب النجـوم".

تطلَّع الآخر إلى السقف، في واحِدَةٍ من وضعيَّات جلوسه الخادعة.

"الأحد نجمٌ ثابِتٌ إذن"، قال له.

"ستراه قريبًا نجمًا ساقِطًا"، قال له سايم، وارتدى قُبَّعَتَه.

دفَعَت حرَكَتُه هذه البروفسورَ للنُّهوض على نحوٍ غامِضٍ.

"هـل لديـكَ أيُّ فِكـرَةٍ"، سـأله، بنـوعٍ مـن الذهـول الخَـيِّر، "إلى أيـن أنـتَ ذاهِـبٌ بالضَّبـط؟".

"نعـم"، أجابـه سـايم باختصـار. "سـأذهب للحيلولـة دون إلقـاءِ تلـك القنبلـة في باريـس".

"هل لديكَ أيُّ تَصوُّرٍ بشأن ذلك؟"، سأله الآخَر.

"لا"، قال سايم بحَسمٍ مُماثِل.

"تتذكَّـر، بالطبـع"، اسـتأنف المدعـو دي وورمـز حديثَـه، جاذِبًـا لحيتـه ومُتَطلِّعًـا إلى خـارج النافـذة، "أنـه عندمـا انفـضَّ الاجتـماعُ عـلى عجالـة أصبحـت ترتيبـات المذبحـة بأكملهـا في يَـدِ الماركيـز ودكتـور بـولْ. الماركيـز ربمـا أصبـح الآن في طريقـه لعبـور القنـاة. لكـن أيـن سـيذهب ومـاذا سـيفعل، هـذا مَحـلُّ شَـكٍّ كبـير حتّـى وإن كان الرئيـسُ يَعلَمُـه؛ بالتأكيـد لا نعلـم نحـن. الوحيـد الـذي يعـرف حقًّـا هـو دكتـور بـولْ".

"اللعنة!" صاح سايم. "ولا نعلم أين هو".

"نعـم"، قـال الآخـر بطريقَتِـه الغامضـة، المغيَّبـة. "لكننـي أعـرف أيـن هـو".

"وهل ستُخبِرُني؟"، سأله سايم بعينين توَّاقَتَيْن.

"سآخُذُكَ إلى هناك"، قال البروفسور، وأنزل قُبَّعَتَه من المشجب.

كان سايم يقف مُتطَلِّعًا إليه في نوعٍ من الاستثارة المتخشِّبة.

"مـاذا تعنـي؟"، سـأله بحِـدَّة. "هـل سـتُشرِكُني في المسـألة؟ هـل تتحمَّـل المخاطرة؟".

"عزيـزي الشـاب"، قـال البروفسـور مُبتَهِجًـا، "يُسـعِدُني أن ألاحـظ أنـك تعتقـد أننـي جبـانٌ. وعـلى ذلـك سـأرُدُّ بكلمـةٍ واحِـدَة فقـط، وسـتكون بالكامـل بنفـس طريقـة بلاغَتِـكَ الفلسـفية. تعتقـد أنـه مـن الممكـن إنـزال الرئيـس مـن عليائـه. أعـرف أن هـذا مسـتحيل، لكننـي سـأحاول"، وفاتِحًـا بـاب الحانـة، الـذي أدخـل نفحـةَ هـواءٍ لاذِعَـة، انطلَقَـا معًـا للخـارج إلى الشَّـوارع المظلِمَـة بجـوار رصيـف الميـناء.

كان معظم الجليد قد ذاب أو اختلط بالطِّين، لكن يمكن رؤية كُتَلٍ مُتخثِّرة منه مُتناثِرَة على هيئةٍ رماديَّةٍ وليس بيضاء في وسط الظلام. كانت الشوارع الصغيرة زَلِقَةً، تتناثَرُ فيها البِرَك التي تعكس المصابيح المتوهِّجة عشوائيًّا على غير انتظام، كشذراتٍ من عالَمٍ آخر ساقِط. كاد سايم يسقط فاقِدًا للوعي مع خروجه إلى هذا الخليط المتشوِّش المتوهِّج من الأنوار والظِّلال؛ لكن رفيقه خَطَا بنشاطٍ واثق إلى نهاية الشارع، حيث بدا النهر تحت ضوء مصابيح الشارع كشريطٍ من اللهب.

"إلى أين أنتَ ذاهِبٌ؟"، تساءل سايم.

"الآن"، أجابه البروفسور، "سأذهب إلى شارعٍ قريب من هنا لأرى ما إذا كان دكتور بولْ قد خَلَدَ إلى النوم. إنه يعتني بصحَّته ويؤوي إلى الفراش مبكِّرًا".

"دكتور بولْ!"، اندهش سايم. "هل يعيش قريبًا من هنا؟".

"لا"، أجاب صديقه. "في الحقيقة إنه يعيش على مَبعَدَةٍ بعض الشيء، على الجانب الآخر من النهر، لكن يمكننا من هنا معرفة ما إذا كان قد خَلَدَ إلى النوم أم لا".

منعطفًا حول زاوية الشارع أثناء تحدُّثه، ومُواجِهًا النهر الكابي ذا لُطَخِ اللهب، أشار بعصاه إلى الضفة الأخرى. من ناحية مُقاطَعة سارِّي في هذه النقطة، يمضي إلى داخل نهر التيمز، وكأنه يتدلَّى من فوقه، عنقودٌ من تلك الأبنية الطويلة، المرصَّعة بالنوافذ المضيئة، والمنتصبة كمداخِن المصانع إلى ارتفاعٍ مجنون. وضعها العجيب هذا جعل كُتلةً مُعيَّنة من المباني تبدو تمامًا وكأنها برج بابل بألف عَين. لم يكن سايم قد رأى أبدًا ناطِحاتِ السَّحاب في أمريكا، وبالتالي كان بإمكانه فقط التفكير فيها في الأحلام.

حتى مع تحديقه، فإن الضَّوءَ الأعلى في هذا البُرج المضاء بلا عَدَدٍ انقطع فجأةً، كما لو أن عملاق الآرجوس الأسود هذا قد غمز له بعَينٍ من الألف عَيْن.

تَمايَلَ البروفسور دي وورمز على عَقِبَيْه، وضرب بعصاه على حذائه الطويل.

"لقد تأخَّرنا كثيراً"، قال، "الدكتور المهتَمُّ بصحَّتِه قد خلد إلى النوم".

"ماذا تقصد؟"، سأله سايم. "هل يعيش هناك على الضِّفَّة الأخرى إذن؟".

"نعم"، قال له دي وورمز، "وراء تلك النافذة بالتحديد التي لا يمكنك رؤيتها. لنَمضِ ونتناول عشاءنا. يجب أن نزوره صباح الغد".

بلا أيِّ مفاوضات أخرى، قاد البروفسور المسيرةَ عبر طُرُقٍ فرعيَّة كثيرة حتى وصلا إلى أنوار وصَخَبِ طريق رصيف شركة الهند الشرقية. تابع البروفسور، الذي يبدو وأنَّه يعرف الطريق جيِّدًا في هذه الناحية، سيره إلى مكان ارتدَّ فيه صفُّ المتاجر المضاءة إلى شكلٍ من أشكال الهدوء والغَبَشِ المفاجئ، كان فيه نُزُل أبيض قديم، وقد تمَّ ترميمه بالكامل، ينتصب على بُعد عشرين قدمًا تقريبًا من الطريق.

"يمكنك العثور على نُزُلٍ إنجليزية جيِّدة بالصُّدفَة في كل مكان، تمامًا كالحفريَّات"، أوضح البروفسور. "وجدتُ ذات مرَّةٍ مكانًا معقولًا في الطرف الغربي".

"أعتقد"، قال سايم، مبتسمًا، "أن هذا هو المكان المعقول الذي يُقابِلُه في الطرف الشرقي؟".

"هو كذلك"، قال البروفسور بوقارٍ، ومضى داخلًا.

في ذلك المكان تناوَلَا عشاءَهما واستغرقا في نومٍ هنيء. الفاصوليا ولحم الخنزير المقدَّد المطهو جيدًا على يد هؤلاء الناس الغامضين،

الظهور المدهش للبورجندي من أقبيَتِهم، كل ذلك تَوَّج حِسَّ سايم برُفقَةٍ وعزاء جديدَيْن. طوال هذه المحنة كان رُعبُه المتأصِّل يتمثَّل في العُزلَة، وبأيِّ كلمات لا يمكن وصف الهُوَّة التي تفصل بين العُزلَة وبين أن يكون لديكَ حليف. ربما نُسلِّم للرياضيِّين بأن أربعة هي حاصل اثنين زائد اثنين. لكن في العزلة الشديدة فإن الصحبة لا تعني مجرد شخصين "اثنين" بل واحِدٌ مُكرَّرٌ ألفَيْ مرَّة. لذلك، رغم مساوئ الزَّواج الأحاديِّ العديدة، فإن العالم سيعود دائمًا إليه.

كان سايم قادِرًا للمرَّة الأولى على صَبِّ وسَرْدِ حكايته الفظيعة، من اللحظة التي أخذه فيها جريجوري إلى الحانة الصغيرة بجانب النَّهر. سردها بتكاسُلٍ وإسهاب، في مونولوج مُترَف، كرَجُلٍ يتحدَّث مع أصدقاء حميمين جدًّا. من جانبه أيضًا، فإن الرجل الذي كان قد انتحل شخصيَّةَ البروفسور دي وورمز، لم يكن أقلَّ تواصُلًا. كانت قِصَّته بنفس سَذاجة قصَّة سايم تقريبًا.

"كان هذا تَنكُّرًا جيِّدًا منكَ"، قال سايم، مُفرغًا كأسًا من نبيذ الماكون؛ "أفضل كثيرًا من تَنكُّر جوجول. حتى في البداية ظَنَنتُ أنه كثُّ الشَّعر على نحوٍ زائِدٍ قليلًا".

"اختلافٌ في النظرية الفَنِّيَّة"، أجابه البروفسور مُتأمِّلًا. "كان جوجول مِثاليًّا. اختلق مثالًا مجرَّدًا وأفلاطونيًّا من الفوضويِّين. لكنني واقعيٌّ. أنا رسَّام بورتريهات. لكن، في واقع الأمر، قَوْلي إنني رسَّامُ بورتريهات ليس تعبيرًا كافيًا. أنا بورتريه".

"لا أفهَمُكَ"، قال سايم.

"أنا بورتريه"، كرَّرَ البروفسور. "أنا بورتريه للبروفسور دي وورمز الشهير الذي يعيش -كما أعتقد- في نابولي".

"هل تعني أنك تشبهه جدًّا؟"، قال سايم. "لكن ألا يعلم هو أنك تتنكَّر في هيئته باستخفافٍ؟".

"إنه يعلم بذلك جيِّدًا"، أجاب صديقه مبتهجًا.

"إذن لماذا لا يستنكر ما تفعله؟".

"لقد استنكَرتُ أنا ما يفعله"، أجاب البروفسور.

"وضِّحْ أكثر"، قال سايم.

"بكل سرور، إذا لم تمانع أن تسمع قصَّتي". أجابه الفيلسوف الأجنبي المرموق. "مهنتي مُمثِّل، واسمي ويلكس. عندما كنتُ أقف على خشبة المسرح كنتُ أختلط بكل أنواع البوهيميِّين والأوغاد. ألامِسُ أحيانًا حافَّةَ تلك الطبقة، وأحيانًا حُثالة القوم، وكذلك اللاجئين السياسيين. في عرين ما للحالمين المنفيِّين تعرَّفتُ على الفيلسوف العَدَميِّ الألماني العظيم، البروفسور دي وورمز. لم أعرف عنه كثيرًا بخلاف مظهره، الذي كان مُقزِّزًا للغاية، والذي درسته بعناية. فَهِمتُ أنه نجح في إثبات أن المبدأ المدمِّر في الكون كان الرَّبّ؛ وبالتالي أكَّد على الحاجة إلى طاقةٍ هائِجَةٍ ومستمرَّة، مُحوِّلَةً جميع الأشياء إلى شظايا. الطاقة، كان يقول، هي كل شيء. كان أعرجَ، قصيرَ النَّظر، ومشلولًا جزئيًّا. عندما قابَلتُه كان في مزاجٍ عابثٍ، وأثار مَقتي لدرجة أنني قرَّرتُ مُحاكاتَه. لو كنتُ رسَّامًا لرسمتُ له كاريكاتيرًا. لكنني مُمثِّلٌ فحسب، ليس باستطاعتي سوى أداء شخصيَّةٍ كاريكاتيرية. تنكَّرتُ فيما يبدو أنها مُبالَغَة وحشية للذات القديمة القَذِرَة للبروفسور العجوز. عندما دَلَفتُ إلى القاعة المكتظَّة بأنصاره توقَّعتُ أن أتلقَّى عاصِفَةً من الضحك، أو (إذا تمادَوا في الأمر كثيرًا) عاصفة من الامتعاض على الإهانة. لا يمكنني وصفُ المفاجأة التي شعرت بها عندما استقبلوا دخولي بصَمتٍ مَهيب، أعقَبَته (عندما فتحتُ شفتي لأول مرة) هَمهماتٌ بالإعجاب. لعنة الفنان الكامل قد سقَطَت عليَّ. كنتُ بارعًا جدًّا، وصادقًا جدًّا. اعتقدوا أنني كنتُ حقًّا البروفسور العَدَميَّ العظيم. كنتُ شابًّا سليم العقل حينها، وأعترف أن المسألة كانت صادِمَةً. قبل أن أتعافى بالكامل، رغم ذلك،

هـرع اثنـان أو ثلاثـة مـن هـؤلاء المعجبـين إليَّ يُشـعُّ منهـم الامتعـاض، وأخـبروني أن إهانـةً عـلى المـلأ قـد أُطلِقَـت ضـدِّي في القاعـة المجـاورة. سـألتهم عـن طبيعتهـا. يبـدو أن زميـلًا وقحًـا قـد تنكَّـر عـلى شـاكلتي بمُحـاكاةٍ سـاخِرَةٍ مُثـيرَةٍ للضحـك. كنـت قـد احتسـيتُ شـمبانيا بأكـثر مـن الـلازم، وفي ومضـة حماقـةٍ قَـرَّرتُ الانطـلاق ومعرفـة الموقـف. لكـن أمـام حملقـات الفرقـة المسرحيـة وحاجِبـيّ المرفوعَـيْن وعينـيّ المتجمِّدَتَـيْن كان أن دَلَـفَ البروفسـور الحقيقـي إلى الغرفـة.

"لا داعـي للقَـول إن صِدامًـا قـد حـدث. كلُّ المتشـائمين مـن حـولي نظـروا بترقُّـبٍ مـن بروفسـور إلى الآخـر لمعرفـة مَـن هـو الأكـثر ضَعفًـا حقًّـا. لكنَّنـي ربحـتُ! رجـل عجـوز بِصِحَّـةٍ ضعيفـة، كمنافـسي، لا يمكـن أن يكـون ضعيفًـا عـلى نحـوٍ مُؤثِّـر كـما هـو الحـال في مُمثِّـل في قِمَّـة حياتـه. بالطَّبـع، كان يعـاني مـن شَـلَلٍ حقيقـي، ويعمـل ضمـن هـذا القيـد المحـدَّد، لكـن لم يكـن بمقـدوره أن يكـون مشـلولًا يُثـير المـرح كـما كنـت. بعدهـا، حـاوَلَ نَسـفَ مَزاعِمـي مـن الناحيـة الفكريـة. واجَهـتُ ذلـك بخدعـةٍ بسـيطة جـدًّا. متـى حـاول قـولَ شيء مـا لا يفهمـه أحـدٌ غـيره، أُجِبْـه بـشيء مـا لا أفهمـه أنـا نفـسي. "لا أتخيَّـل"، قـال حينهـا، "أن بإمكانِـكَ اسـتنباط المبـدأ القائـل بـأن التطـوُّر هـو النفـي الوحيـد؛ ففيـه تكمـن ثَغـرَةٌ، وهـي مسـألة جوهريـة للمُفاضَلـة". فأجيبـه أنـا باحتقـارٍ شـديد، "بالتأكيـد قـرأتَ كُلَّ ذلـك لـدى بينكفيرتـز؛ أن فكـرة الالتفـاف للداخـل التـي تعمـل بشـكلٍ يوجينـي مُحسِّـن للنسـل قـد كُشِـفَت منـذ زمـن طويـل عـلى يـد جلامـب". لا حاجـة لي للقـول أنـه لم يوجـد أبـدًا أنـاسٌ باسـم بينكفيرتـز وجلامـب. لكـن كل الحاضريـن (لدهشـتي في الحقيقـة) بَـدَوا وأنهـم يتذكَّرونهـما جيِّـدًا، والبروفسـور، بعـد اكتشـافه أن الطريقـة المثقَّفـة والغامضـة قـد تَرَكَتـه بالأحـرى تحـت رحمـة عَـدوٍّ ضعيـف الضمـير والشـكوك، قـد تراجَـعَ إلى أسـلوب مـن السـخرية أكـثر رَوَاجًـا. "أرى..."، قـال سـاخرًا، "أنـك سـتفوز كالخنزيـر الـكاذب في حكايـات إيسـوب". "وأنـت ستفشـل..."،

أَجَبتُـه مبتسـمًا، "كالقنفـذ في حكايـات مونتايجـن". هـل لا بُـدَّ أن أقـول إنـه لا توجـد قَنافِـذُ في حكايـات مونتايجـن؟ "هـا هـو هُـراؤكَ يتسـاقط"، قـال لي؛ "وكذلـك لِحيَتُـكَ" لم تكـن لـديَّ إجابـة ذكيَّـة عـلى قولـه هـذا، الـذي كان صحيحًـا وحاذقًـا في الحقيقـة. لكننـي ضحكـتُ مـلءَ قلبـي وأَجَبتُـه، "كأحذيـة القائـل بوحـدة الوجـود" كيفـما اتَّفـق، واسـتَدرتُ عـلى عَقِبَـيَّ بـكل مَفاخِـر الانتصـار. طُـرِحَ البروفسـور الحقيقـي أرضًـا، لكـن ليـس بعُنـفٍ، رغـم أن أحـد الحاضريـن حـاول بصـبرٍ شـديد انتـزاعَ أنفـه. يسـتقبلونه الآن، أعتقـد، في كل مـكان في أوروبـا كمُـدَّعٍ يثـير البهجـة. حماسـه الظاهـر وغضبـه، كـما تـرى، جعـلاه مُثـيرًا أكـثر للتسـلية".

"حسـنًا"، قـال سـايم، "بإمـكاني إدراكُ أنَّـكَ تضـع لحيتـه العجـوز القَـذِرَة كمَزحَـةٍ مسـائية بحتَـةٍ، لكننـي لا أفهـم لمـاذا لا تنزعهـا أبـدًا ثانيـةً".

"هنـا تـأتي بقيَّـةُ القصـة"، قـال المدَّعـي. "بعـد أن غـادرتُ الفرقـة المسرحيـة، بعـد أن نلـتُ المديـح والتبجيـل، انطلقـتُ بعـرَجٍ عـلى طـول الشـارع المظلِـم، عـلى أمـل أننـي سـأبتعد بمـا يكفـي للسَّـير كإنسـانٍ عـاديٍّ ثانيـةً. لدهشـتي، عنـد اسـتدارتي حـول زاويـة الشـارع، شـعرتُ بلمسـة على كتفـي، ومسـتديرًا، وجـدتُ نفـسي قابِعًـا تحـت ظِـلِّ شُرطـيٍّ هائـل الحجـم. أخـبرني أنَّـي مطلـوب. اتَّخـذتُ وضعًـا يوحـي الشَّـلل، وصِحـتُ بلكنَـةٍ ألمانيـة مُدوِّيـة، "نعـم، أنـا مطلـوب- مـن أجـل مُضطهَـدي العالَـم. تُلقـي القبـضَ عـليَّ بتهمـة كـوْني الفوضـويَّ الأعظـم، البروفسـور دي وورمـز". في يـد الشرطـي كانـت ورقـة نظـر إليهـا بـلا حـراك، "لا يـا سـيدي"، قـال بتهذيـب، "ليـس تمامًـا عـلى الأقـل، يـا سـيدي. بـل ألقـي القبـض عليـكَ بتُهمَـةِ أنَّـك لسـتَ الفوضـويَّ المعـروف، البروفسـور دي وورمـز". هـذه التهمـة، إن كانـت مُجرِّمـة في المقـام الأول، كانـت أقـلَّ الضَّرَريْـن، وانطلقـتُ مـع الرجـل، تقتلنـي الشـكوك، لكـن لسـت يائسًـا تمامًـا. أدخلـوني إلى عَـدَدٍ مـن الغـرف، وفي النهايـة إلى غرفـة يجلـس فيهـا شرطـي آخـر، شرح لي أن حملـةً بالِغَـة الأهمِّيَّـة قـد بـدأت ضـدَّ مراكـز الفوضويـة، وأن هـذا، تنكُّـري

المتقَن، قد يكون ذا فائدةٍ كبيرة للأمن العام. عرض عليَّ راتبًا جيِّدًا وهذه البطاقة الزرقاء الصغيرة. رغم أن حديثنا كان قصيرًا، إلا أنني تبيَّنتُ أنه كان رَجُلًا ذا إدراكٍ سليمٍ وروح سُخرية هائِلَيْن؛ لكن ليس باستطاعتي أن أُخبِرَك بالكثير عن شخصه، بسبب...".

وضع سايم السِّكِّين والشوكة على المائدة.

"أعرف"، قال له، "لأنك تحدَّثتَ إليه في غُرفَةٍ مُظلِمَة".

أومأ البروفسور دي وورمز برأسه وأفرغ كأسه في جوفه.

الفصل التاسع

الرَّجُلُ ذو العُوَيْناتِ

"البورجندي شيءٌ يبعث على البهجة"، قال البروفسور بحُزنٍ وهو يُنزِلُ كأسَه.

"لا يبدو أنه يُبهِجُكَ"، قال له سايم؛ "تحتسيه وكأنه دواء".

"عليكَ أن تعذر طريقتي"، قال البروفسور بكآبة، "وضعي عجيب بعض الشيء. من الداخل أنفجر حقًّا بمرح صبيانيٍّ؛ لكنني انغمست في تقمُّص دور البروفسور المشلول حتَّى لم أعد قادرًا على الخروج منه؛ لذلك عندما أكون بين أصدقائي، ولا أحتاج بأي بشكل إلى التَّنكُّر، أعجز رغم ذلك عن منع نفسي من التحدُّث ببطءٍ وتجعيد جبيني- كما لو كان جبيني فعلًا. بإمكاني أن أكون سعيدًا حقًّا، لكن فقط بطريقة مشلولة نوعًا ما. أكثر الاندهاشات بهجةً تتقافز في قلبي، لكنها تخرج من فمي على نحوٍ مختلف تمامًا. قد تسمعني أقول،

"ابتهِجْ أيُّها الزعيم العجوز!" لكنها كلمات، في الحقيقة، ستجلب الدموع إلى عينيك".

"نعم، ستفعل حقًّا"، قال له سايم؛ "لكن لا يَسَعُني سوى التفكير أنك، بعيدًا عن ذلك، مهمومٌ قليلًا".

جَفَلَ البروفسور قليلًا ونظر إليه بثَباتٍ.

"أنت حاذِقٌ جدًّا يا صديقي"، "يُبهجُني العمل معكَ. نعم، أنا مُغتمٌّ قليلًا في عقلي. أمامي مشكلة عويصَةٌ عليَّ مُواجَهَتُها"؛ ثم أغرق جبينه الأصلع بين يديه.

ثم قال بصوت خفيض:

"هل يُمكِنُكَ العزفُ على البيانو؟".

"نعم"، قال سايم باندهاش خفيفة، "يفترض أنني أتمتَّع بلمسة بارعة".

ثم أضاف، بينما صمتَ الآخر:

"أثق أن سحابةَ الغَمِّ قد تلاشَت".

بعد صمتٍ طويل، قال البروفسور من بين ظِلِّ الكهف في يديه:

"تمامًا كما لو أنَّ بإمكانِكَ العمل على آلة كاتبة".

أشكرك على الإطراء"، قال له سايم.

"أنْصِتْ إليَّ"، قال الآخر، "وتذكَّر الشخص الذي يتوجَّب علينا رؤيته غدًا. أنا وأنت سننطلق غدًا في محاولة لإنجاز شيء أكثر خطورةً بكثير من محاولة سرقة مجوهرات التاج من برج لندن. سنسعى إلى سرقة سرٍّ ما من رجُلٍ بارِعٍ جدًّا، قوي جدًّا، وخبيثٍ جدًّا. أظنُّ أنه لا يوجد رجل بهذه المواصفات، باستثناء الرئيس بالطبع، مثير للفزع والرعب جدًّا كما ذلك الرجل العابس الضئيل ذي العوينات.

لا يتمتع ربما بالحماس المتوهِّج للموت، والاستشهاد المجنون في سبيل الفوضويَّة، الذي يُميِّز السكرتير. مع ذلك، فإن ذلك التعصُّبَ في السكرتير ينطوي على شَفَقَةٍ بشرية وما يشبه الانعتاقَ من الخطيئة. لكن هذا الدكتور الضئيل يتمتَّع بتعقُّل وحشيٍّ أكثر إثارةٍ للاشمئزاز من مرض السكرتير. ألم تلاحظ حيويَّته وفحولته البغيضة. إنه يتقافز ككُرَةٍ من المطَّاط الهندي. بسبب هذا، لم يَكُن الأحدُ نائمًا (أتساءل إن كان ينام أبدًا؟) عندما وضع كلَّ مُخطَّطات هذا الهجوم في رأس دكتور بولْ المستدير الأسود".

"وفي رأيك"، قال له سايم، "فإن هذا الوحش الفريد من نوعه سيهدأ عندما أعزف البيانو له؟".

"لا تكن أحمقَ"، قال مُرشِدُه. "لقد ذكرتُ البيانو لأنه يمنح المرءَ أصابعَ سريعةً وحُرَّة. سايم، إذا كان لنا أن نمضي عبر هذا اللقاء ونخرج منه عاقِلين أو أحياء، فعلينا أن نضع شفرةً ما من الإشارات بيننا لا يراها ذلك الوحش. لقد وضعت ما يشبه الشَّفرة الأبجدية المتطابِقة على الأصابع الخمس- مثلًا، انظر، "ثم نَقَرَ بأصابعه على المائدة الخشبية: س ي ئ، سيِّئ، كلمة قد نحتاجها كثيرًا".

صبَّ سايم لنفسه كوبًا آخر من النبيذ وبدأ في دراسة الخُطَّة. كان سريعًا على نحوٍ غير طبيعيٍّ عبر عقله في حلِّ الألغاز، وعبر يديه في ألعاب الخِفَّة، ولم يستغرق الأمرُ منه كثيرًا لتعلُّم كيف يمكنه إرسال رسائل بسيطة تبدو كنَقراتٍ لا معنى لها على المائدة أو الركبتين. لكنَّ النبيذ والصحبة طالما كان لهما تأثيرٌ مُلهِمٌ عليه إلى حَدِّ الإبداع الهَزليِّ، وسرعان ما وجد البروفسور نفسَه يصارع مع الاستراتيجية المتَّسِعَة للغاية لِلُّغَة الجديدة، مع مرورها عبر العقل الثائر لسايم.

"علينـا وضـع عـدَّة إشـارات بالكلـمات..."، قـال سـايم بجدِّيـة- "الكلـمات التـي قـد نحتاجهـا، ظـلالٌ طفيفـة مـن المعنـى. كلمتـي المفضلـة هـي (القريـن). مـاذا عنـكَ؟".

"توقَّفْ عـن التَّصرُّف بحماقـة..."، قـال البروفسـور بنـبرةٍ حزينـة. "أنـت لا تُـدرِكُ مـدى خطـورة الأمـر".

"كلمـة (الخصيـب) أيضًـا..."، قـال سـايم، هـازًّا رأسـه بحِكمَـةٍ، "علينـا أن نسـتخدم كلمـة (الخصيـب) -والتـي تعنـي أيضًـا: (الشـهواني)- مـع العُشـب، أليـس كذلـك؟".

"هـل تتخيَّـل..."، سـأله البروفسـور بغضـب، "أننـا سـنذهب للتحـدُّث مـع دكتـور بـول عـن العُشـب؟".

"لدينـا العديـد مـن الطُّـرُق يمكـن مـن خلالهـا تنـاول المسـألة"، قـال سـايم متأمِّـلًا، "وإدخـال الكلمـة مـن غـير أن تبـدو مُصطنَعـة. علينـا أن نقـول مثـلًا، "دكتـور بـول، بصفتـك ثوريًـا، تتذكَّـر أن طاغيـةً قـد نصحنـا ذات مـرة بـأكل العشـب؛ وبالفعـل فـإن كثيريـن منَّـا، مُتطلِّعين إلى عُشـب الصيـف الخصيـب النَّـضِر... "".

"هل تدرك"، قال الآخر، "أن كل هذا مأساة؟".

"تمامًـا"، أجابـه سـايم؛ "كُـنْ هـازِلًا دائمًـا في المـآسي. مـاذا بإمكانـك أن تفعـل غـير ذلـك بحَـقِّ الشـيطان؟ أتمنَّـى أن تحظـى لُغَتُـكَ بمـدًى أكـثر اتِّسـاعًا. أفـترض أنـه ليـس بإمكاننـا توسـيعها مـن أصابـع اليديـن إلى أصابـع القدمـين؟ سـينطوي هـذا عـلى نـزع أحذيتنـا وجواربنـا أثنـاء الحديـث، الـذي ينبغـي أن ينسـاب رغـم ذلـك بـلا توقُّـف...".

"سايم"، قال صديقه ببساطة عابسة، "اخلُدْ إلى النَّوم!".

جلـس سـايم، رغـم ذلـك، مُعتَـدِلًا في فِراشـه لوقـت طويـل يفكِّـر في الشـفرة الجديـدة لحَـدِّ الإتقـان. اسـتيقظ في الصبـاح التـالي قبـل انجـلاء

الظلام بالكامل عن الشرق، ووجد حليفه ذي اللحية الرمادية جالسًا كشبحٍ بجوار فِراشه.

اعتدل سايم في فِراشِه بعينين نصف مفتوحتين؛ وببطء استجمع شتاتَ أفكاره، وطرح غطاء الفراش، ثم نهض واقفًا. بدا له بطريقة عجيبة ما أن كلَّ الشعور بالأمان والمؤانَسة التي انتابه في الليلة الماضية قد تساقَط مع تَساقُط غطاء الفِراش عنه، واستمرَّ في وقوفه يُحيط به جوٌّ من الغضب البارد. كان ما زال يشعر بولاءٍ وثِقَةٍ كاملة تجاه صاحبه؛ لكنها كانت الثِّقَةَ بين رَجُلَيْن يرتقيان سُلَّم المشنقة.

"حسنًا"، قال سايم بابتهاجٍ مُصطَنَعٍ أثناء ارتدائه سرواله، "حلمتُ بأبجديَّتِك. هل استغرقَت منكَ وقتًا طويلًا لوضعها؟".

لم يُجِبه البروفسور، لكنه حدَّق بعينين بلون بحر الشتاء؛ بالتالي كرَّر سايم سؤالَه.

"أقول، هل استغرق منكَ الأمر وقتًا طويلًا لاختراع كلِّ هذا؟ يعتبرونني بارعًا في هذه المسائل، لكنِّي عاجِزٌ هذه المرَّةَ. هل تعلَّمتَ كُلَّ هذا في الحال؟".

كان البروفسور صامِتًا؛ عيناه على اتساعهما، وعلى وجهه بدت ابتسامَةٌ ثابتة، ولكنها صغيرة جدًّا.

"كم استغرق منكَ الأمرُ؟".

لم يتحرك البروفسور.

"اللعنة، ألَا يُمكِنُكَ الإجابة؟" صاح سايم، في نوبَةِ غَضبٍ مُفاجِئَة تُخفي وراءها شيئًا ما يشبه الخوف. ما إذا كان البروفسور قادرًا على الإجابة، هذا لم يستطع تَبيُّنه.

كان سايم واقفًا مُحدِّقًا بدوره في الوجه المتصلِّب كالخشب والعينين الخاويتين الزرقاوين. في البداية اعتقد أن البروفسور قد أصيب بالجنون،

لكنَّ فِكرتَه الثانية كانت أكثرَ فظاعةً. أيًّا كان الأمر، ما الذي يعرفه حقًّا عن هذا المخلوق الغريب الذي قَبِلَه بلا اكتراثٍ كصديق؟ ما الذي يعرفه، باستثناء أن الرجل كان على إفطار الفوضويِّين وأنه أخبره بحكايةٍ لا تُصدَّق؟ كم كان مُستبعَدًا أن يوجد صديقٌ آخر على الإفطار بخلاف جوجول؟ هل كان صمت هذا الرجل مجرَّدَ طريقة شاعرية لإعلان الحرب؟ هل كانت هذه التَّحديقة المتحجِّرة مجرَّدَ سُخريَةٍ مُريعَةٍ لخائِنٍ ثالوثيٍّ، بعد أن انقلب للمرَّة الأخيرة؟ كان يقف هناك عاصِرًا أذنيه في هذا الصمت عديم الشَّفَقة. تخيَّل أنه يمكنه تقريبًا سماعُ مُفجِّري الديناميت يأتون لأَسْرِه يتسلَّلون بخفوتٍ في الممر الخارجي.

ثم شَرَدَت عيناه لأسفل، وانفجر في الضحك. فرغم أن البروفسور استمرَّ في وقوفه صامتًا كتمثال، إلَّا أن أصابعه الخمس الخرقاء كانت ترقص بحيويَّةٍ على المائدة الميِّتة. راقب سايم الحركات الرَّشيقة لليد الناطقة، وقرأ الرسالة بوضوح:

"لن أتحدَّث إلَّا بهذه الطريقة. عليكَ أن تعتادها ".

أطلق الإجابة بنَفادِ صَبرٍ يشي بالارتياح.

"حسنًا. لننطلق من أجل الإفطار".

تناوَلَا قُبَّعتيْهما وعَصَوَيْهما في صمتٍ؛ لكن سايم تناوَلَ عصاه السَّيفيَّة، وأمسكها بقوَّة.

توقَّفا لبضع دقائق فحسب لتناوُلِ القهوة وشطائِرَ من خُبزٍ خَشِن سميك في كشكٍ للقهوة، ثم اتَّخذا طريقهما عبر جسر على النهر، الذي بدا من تحت الأضواء الرمادية والمتنامية، خَرِبًا وخاويًا كنهر "أخيرون" في العالم السُّفليِّ. وَصَلا إلى أسفل كتلة المباني الهائلة التي كانا قد رأياها عبر النهر، وبدآ في صمتٍ في ارتقاء الأحجار الحجرية العارية التي لا تنتهي، مُتوقِّفَيْن فقط بين حين وآخر لإبداء ملاحظات قصيرة

علـى حاجـز الدرابزيـن. بـين كل وطابـق وآخـر تقريبًـا كانـا يمُـرَّان بنافـذة؛ وكل نافـذة تُظهِـرُ لهـما فجـرًا شـاحبًا ومأسـاويًّا يرتفـع بمشـقَّةٍ في سـماء لنـدن. ومنهـا كانـت الأسـقف التـي لا تُعَـدُّ ولا تُحـصى مـن صخـر الأردواز تبـدو كأمـواجٍ رصاصيَّـةٍ كابِيَـةٍ لبحـر رمـادي هائِـجٍ تحـت المطر. كان سـايم واعيًـا عـلى نحـوٍ مُتزايِـدٍ بـأن مُغامَرَتَـه الجديـدة هـذه اتَّخـذَت بشـكلٍ مـا صِفَـةَ التَّعقُّـل البـارد بشـكلٍ أسـوأ مـن المغامـرات الجامحـة السـابقة. في الليلـة الفائتـة -مثـلًا- بَـدَت لـه المسـاكن العاليـة كـبُرجٍ في حلـم. لكنـه الآن في صعـوده للدرجـات المرهِقَـة والأبديَّـة، راوَدَه شـعور الذُّعـر والارتبـاك مـن تَسَلسُـلِها اللانهـائي. لكـن الأمـر لم يكـن الرُّعـبَ المتوهِّـجَ لحلـمٍ أو لأيِّ شيء قـد يكـون مُبالَغَـةً أو وهـمًا. كانـت لا نهائِيَّتهـا كاللانهائيَّـة الخاويـة لـشيء مـا حسـابيٍّ، لا يُصـدَّق، ومـع ذلـك ضروري للتفكـير. أو أن الأمـر كان كالإفـادات المذهِلَـة لعلـم الفَلَـكِ عـن بُعـد النجـوم الثابتـة. كان يصعـد بيـت العقـل، وهـو شيء أكـثر شـناعةً مـن الجنـون نفسـه.

عندمـا وصَـلَا إلى طابـق دكتـور بـولْ، أظهَـرَت لهـم النافـذة الأخـيرة فجـرًا أبيـضَ قاسـيًا محصـورًا بـين حـوافِّ سـحابَةٍ خَشِـنَة حمـراء، بلـون الطِّـين الأحمـر بالأحـرى. وعندمـا دَلَفَـا إلى عِلِّيَّـة دكتـور بـولْ العاريـة، وجداهـا غارِقَـةً في الضـوء.

كان سـايم قـد انتابتـه ذكـرى قديمـةٌ غائبـةٌ ذاتُ صِلَـةٍ بهـذه الحجـرات الخاويـة وذلـك الفجـر المتقشِّـف. في اللحظـة التـي رأى فيهـا العلِّيَّـة ودكتـور بـولْ جالسًـا يكتـب عـلى منضـدة، تذكَّـر مـا كانتـه الذكـرى: الثـورة الفرنسـية. لا بُـدَّ أن فيهـا كانـت المقصَلَـة بحوافِّهـا السـوداء أمـام الأحمـر والأبيـض الثقيلَـيْن للصبـاح. كان دكتـور بـولْ يرتـدي قميصـه الأبيـض وبنطلونـه الأسـود فحسـب؛ وبرأسـه الدَّاكنـة، الحليقـة، وقـد نـزع عنهـا

الباروكـة لتـوِّه، بـدا وكأنـه "مـارا" أو بالأحـرى "روبسـبيار" لكـن بثيـابٍ أكـثرَ رثاثـةً[1].

مـع ذلـك، عندمـا نظـر إليـه بتمعُّـن، تـلاشى الخيـال الفرنـسي بعيـدًا. كان اليعاقِبَـة مثاليِّـين؛ لكـن هـذا الرجـل كان مُسـتَغرِقًا في مادِّيَّـة قاتِلَـة. منحـه وضعـه في الجلـوس مظهـرًا جديـدًا بعـض الـشيء. الضـوء الأبيـض القـوي للصبـاح القـادم مـن ناحيتـه كان يخلـق ظـلالًا حـادَّةً، تجعلـه أكـثر شـحوبًا وخشـونةً مـمَّا بَـدَا عليـه عـلى الإفطـار في الشُّرفـة. ولذلـك فـإن العوينـات السـوداء التـي تحيـط بعينيـه قـد تكـون في الحقيقـة تجاويـفَ سـوداء في جُمجمَتِـه، جاعلـةً إيَّـاه يبـدو كـرأس المـوت. وفي واقـع الأمـر، إذا كان للمـوت أبـدًا أن يجلـس للكتابـة عـلى منضـدة خشـبية، فقـد يكـون هـو دكتـور بـول.

تطلَّـع إلى أعـلى وابتسـم بـإشراقٍ عندمـا دخـل الرَّجُـلان، ونهـض بالسُّرعَـة المرِنَـة التـي كان البروفسـور قـد حـدَّث سـايم عنهـا. أحـضر لهـما مقعَدَيْـن، وخَطَـا إلى مشـجَبٍ وراء البـاب، وارتـدى مـن عليـه معطَفًـا وصديريَّـةً مـن نسـيجٍ صـوفيٍّ خَشِـن داكِـن؛ زَرَّرَهـما بإحـكامٍ، وخطـا عائـدًا للجلـوس عـلى منضدَتِـه.

تـرك اللُّطـفُ الهـادئ الـذي بـدا في طريقتـه خَصمَيْـه عاجزيـن. بصعوبة لحظيَّـةٍ مـا تمكَّـنَ البروفسـور مـن كـسر الصمـت وبـدأ قائـلًا، "آسـف عـلى إزعاجـك في هـذا الوقـت المبكِّـر يـا رفيـق"، قـال لـه، واسـتأنف بحـذَرِ الأسـلوبَ المتباطـئ المعـروف عـن دي وورمـز. "بالتأكيـد أتممـتَ كُلَّ الترتيبـات اللازمـة لمسـألة باريـس؟" ثـم أضـاف ببـطء لا مُتنـاهٍ، "لدينـا معلومـات لا يمكـن تأخيرهـا ولـو للحظـة واحـدة".

---

(1) "چـان بـول مـارا" و"ماكسـميليان روبسـبيار" مـن أهـم مُفكِّـري وقـادَة الثـورة الفرنسـية الأكـثر راديكاليَّـةً وتَعطُّشًـا للدِّمـاء- (المترجـم)

ابتسم دكتور بولْ ثانيةً، لكنه استمرَّ في التحديق فيهما بصمت. تابع البروفسور قوله، مع التوقُّف لبرهة قبل كل كلمة مرهقة:

"أرجو ألَّا تَظُنَّ أنني فظٌّ بقولي هذا؛ لكنني أنصَحُكَ بتبديل تلك الخطط، أو إذا فات أوان ذلك، أن تمضي في خُطَطِكَ لكن بكل الدَّعم اللازم. الرفيق سايم وأنا مَرَرنا بتجربة لا وقت لدينا لسرد تفاصيلها؛ لذلك من الأفضل أن نعمل بموجبها على الفور. رغم ذلك، سأحكي الحادثة بالتفصيل، حتى مع مُخاطرة ضياع الوقت، إذا شعرتَ حقًّا أنها ذات أهمية جوهريَّة لفهم المشكلة التي أمامنا".

كان يتعثَّر في كلماته؛ ممَّا جعلها جُمَلًا مُتراخِيَةً وطويلةً بشكل لا يُصدَّق، على أمل إصابة الدكتور الضئيل ذي المزاج العَمَليِّ بالجنون حتى ينفجر من نَفادِ الصبر وهو ما قد يدفعه للكشف عن نواياه. لكن الدكتور الضئيل استمرَّ في التَّحديق والابتسام فحَسب، وأصبح المونولوج جهدًا شاقًّا. بدأ سايم في الشعور بسقَم ويأس جديدَيْن. لم تكن ابتسامة الدكتور وصمته على الإطلاق كالتحديقة المتحجِّرة والصَّمت المريع اللَّذَيْن رآهما في البروفسور منذ نصف ساعةٍ لا غير، بل كانت ابتسامةً عجيبةً وكأنها ابتسامَةُ دُميَةٍ سوداء. تذكَّر سايم المِحَنَ التي مرَّ بها بالأمس كما يتذكَّر المرء خوفه من الغول في طفولته. لكن هنا كان النهار مُضيئًا؛ هنا كان رَجُلًا عريضَ الكتفين، يتمتَّع بالصحة في معطفه الصُّوفيِّ الخَشِن، لا شيء شاذ سوى مسألة عويناته القبيحة، لا غضب ولا تقطيبات على الإطلاق، بل ابتسامات ثابتة بلا أي كلمة. كان المشهد بأكمله يخلق شعورًا بحقيقة لا تحتمل. تحت ضوء الشمس المتزايد كانت ألوان بشرة الدكتور، وتقاسيم معطَفِه الصوفي، تزداد وتتوسَّع بتوحُّشٍ، تمامًا كما تزداد أهمِّيَّتها كثيرًا في الروايات الواقعية. لكنَّ ابتسامته كانت واهيةً للغاية، ووَضْعَ رأسه وقورًا؛ الشيء الوحيد المدهش كان صَمتَه.

"كـما قلـت"، تابـع البروفسـور حديثـه، كرجـل يمـضي بمشـقَّةٍ وجهـد عـبر الرمـال الثقيلـة، "فـإن الحادثـة التـي وقعـت لنـا وقادتنـا للبحـث عـن معلومـاتٍ بشـأن الماركيـز، هـي حادثـةٌ قـد تظـنُّ أنـه مـن الأفضـل أن أروي أنـا وقائعهـا؛ لكـن بمـا أنهـا جـاءت مـن خـلال الرفيـق سـايم وليـس مـن خـلالي...".

بـدا وكأنـه يجـرُّ كلماتـه جـرًّا ككلـمات في نشـيد وطنـي؛ لكـن سـايم، المنغمـس في المراقبـة، رأى أصابعـه الطويلـة تهتـزُّ بسُرعَـةٍ عـلى حافَّـة المنضـدة المجنونـة. قـرأ الرسـالة، "عليـك أن تسـتمرّ. هـذا الشـيطان جفَّـف الدمـاء في عروقـي!".

غطـسَ سـايم داخـلًا إلى الثغـرة بشـجاعة الارتجـال الـذي دائمًـا مـا يهـرَعُ إلى نجدتـه عنـد الخطـر.

"نعـم، ذلـك الأمـر حـدث لي حقًّـا"، قـال بعَجَلَـةٍ. "كان مـن حُسـن حَظِّـي أن أنخـرط في محادثـة مـع محقِّـقٍ سِرِّيٍّ رأى فيَّ -بسـبب قُبَّعتـي- رَجُـلًا محترَمًـا. وسـاعِيًا لإثبـات شُـهرَةِ الاحـترام هـذه، أخَذتُـه وجَعَلتُـه يحتسـي الـشَّرابَ حتـى الثُّمالـة في سـافوي. تحـت هـذا التأثير أصبـح ودودًا، وأخـبرني بكلـمات كثيرة أنهـم يأملـون في القبـض عـلى الماركيـز في باريـس في غضـون يـومٍ أو يومـيَنْ؛ لذلـك مـا لم تتمكّـن أنـتَ أو أنـا مـن تَعَقُّبـه...".

كان الدكتـور مـا زال مُبتَسِـمًا بأكـثر الطـرق حميميَّـةً، وعينـاه المحميَّتان مـا زالتـا غـير قابِلَتَـيْنِ للاخـتراق. بعـث البروفسـور بإشـارَةٍ إلى سـايم بـأن عليـه أن يتوقَّـف ليتابـع هـو تفسـيره؛ ولذلـك عـاد إلى التحـدُّث ثانيـةً بنفـس الهـدوء المـدروس.

"عـلى الفـور جلـب سـايم هـذه المعلومـات إليَّ، وأتينـا هنـا معًـا لمعرفـة إن كنـت راغِبًـا في الاسـتفادة منهـا. يبـدو لي مـن الملـحِّ بـلا جـدالٍ أن...".

طـوال هـذا الوقـت كان سـايم يُحَـدِّق في الدكتـور، تقريبًـا بنفـس ثبـات تحديقَـةِ الدكتـور في البروفسـور، لكـن دون الابتسـامة بالتأكيـد. كانـت

أعصاب رفيقي السلاح على وشك الانكسار تحت وطأة تلك المودّة الجامدة، وعندما انحنى سايم فجأةً للأمام، ونقر بتراخٍ على حافّة المنضدة. كانت رسالته لحليفه تقول: "لديَّ حَدسٌ!".

أجابه البروفسور، متوقّفًا بالكاد عن مونولوجه، "ابحَثْ فيه إذن".

أبرق سايم كالتلّغراف، "إنه أمر استثنائي جدًّا".

أجابه الآخر، "عَفَنٌ استثنائيٌّ تَقصدُ!".

قال سايم، "أنا شاعِر".

ردَّ عليه الآخر بحسم، "أنت رجلٌ ميِّت".

كان سايم قد احمَرَّ حتى شعره الأصفر، وغَدَت عيناه تحترقان باهتياج. والحَدْسُ الذي قال إنه يراوده، أضحى الآن شكلًا من أشكال اليقين الضعيف. استأنف نَقراتِه الرمزية، وأرسل إشاراته إلى صديقه، "لن تدرك بالضبط مدى شِعريَّة حَدْسي. إنه يتَّسِم بتلك الصفة المفاجئة التي نشعر بها أحيانًا عند مَقدِم الربيع".

ثم تأمَّل الإجابة في أصابع صديقه. كانت الإجابة، "اذهب إلى الجحيم!".

وحينها استأنف البروفسور مونولوجه المتكوِّنَ من كلماتٍ مُنفَرِدَة لا غير، مُتوجِّهًا بحديثه إلى الدكتور.

"ربّما ينبغي أن أقول"، قال سايم على أصابعه، "إنه يشبه رائحة البحر المفاجئة تلك التي قد تُصادِفُنا في قلب غابة خصيبةٍ".

ترفَّع رفيقُه عن الإجابة.

"بل إنه"، نقر سايم، "مُؤكَّدٌ وحَتميٌّ، كشَبَقِ الشَّعر الأحمر لامرَأةٍ جميلة".



كان البروفسور مُستمرًا في حديثه، لكن في منتصفه قرَّر سايم التَّصرُّف. انحنى عبر المنضدة، وقال بصوتٍ لا يمكن تَجاهُلُه:

"دكتور بولْ!".

لم يتحرَّك رأس الدكتور الأملس المبتسم، لكن كان بإمكانهما القَسَمُ على أنه تحت عُوَيناتِه الداكنة وَثَبَت عيناه بنظرَةٍ حادَّةٍ في اتجاه سايم.

"دكتور بولْ"، قال سايم، بصوتٍ واضح ودَمِث على نحوٍ عجيب، "هلَّا أسديتَ لي معروفًا صغيرًا؟ هل لكَ أن تتلطَّف وتنزع عُوَيناتِك؟".

استدار البروفسور في مقعده، وحملق في سايم بشكلٍ من أشكال الدَّهشَة الغاضبة المتجمِّدة. مال، سايم -كرَجُلٍ ألقى لتوِّه بحياته وقَدَرِه على المنضدة-إلى الأمام بوجهٍ مهتاج. لكن الدكتور لم يتحرَّك.

لبضعة ثوانٍ تَفشَّى بينهم صمتٌ كان يمكن فيه سماع صوت سقوط إبرة، انقطع فجأةً بنَعيب سفينة بخاريَّة نائية في التيمز. وحينها نهض دكتور بولْ، مُبتَسِمًا ما زال، وانتزع عُوَيناتِه.

قفز سايم ناهضًا، وتراجع لخُطواتٍ، وكأنه كيميائيٌّ أمام انفجارٍ ناجح. كانت عيناه مُتوهِّجَتَيْن كالنُّجوم، ولوَهلَةٍ كان بإمكانه الإشارة فقط بلا قُدرَةٍ على الحديث.

كان البروفسور قد نهض أيضًا، ناسيًا شَلَله المزعوم. انحنى على ظَهرِ مقعَدِه وحَملَقَ بشكٍّ في الدكتور، كما لو أن الدكتور قد تَحوَّل إلى ضفدَعٍ أمام عينَيه. وبالفعل كان ما حدث لا يَقِلُّ عن مشهد انمساخٍ كامِلٍ.

رأى المحقِّقان السِّرِّيَّان جالسًا على الكرسي أمامهما شابًّا ذا منظرٍ صبيانيٍّ جدًّا، بعينَيْن سعيدَتَيْن، رائقتين جدًّا بلون البندق، وتعبيراتِ وجهٍ واضحة، وملابس مُبتَذَلَة كملابس موظَّف بلديَّة، تحيطه هالَةٌ لا

جدال فيها بأنه رَجُلٌ صالِحٌ وعادي بعض الشيء. كانت الابتسامة ما تزال على وَجهِه، وكأنها الابتسامة الأولى لرضيع.

"كنتُ أعرف أنني شاعر"، صاح سايم بما يشبه الانتشاء. "كنتُ أعرف أن حَدسي معصومٌ من الخطأ تمامًا كالبابا. العُوَينات هي مَن خلَقَته! إنها العوينات ولا شيء آخر. وبهاتَيْن العينين السوداوين البهيميَّتَيْن، وكل شيء آخر فيه: صِحَّته ونظراته المبتهجة؛ فإنه شيطان حيٌّ بين الشياطين الموتى".

"بالتأكيد فإن كل هذا يخلق فارقًا عجيبًا"، قال البروفسور مُرتَجِفًا. "لكن بشأن مشروع دكتور بولْ...".

"اللعنة على المشروع!"، زَمجَرَ سايم، بغضب. "انظر إليه! إلى وجهه، انظر إلى ياقَتِه، انظر إلى حذائه الطويل المبارك! أنت لا تظنُّ، بالطبع، أن هذا الشيء واحد من الفوضويِّين؟".

"سايم!"، صاح الآخر بألَمٍ عُصابيٍّ.

"لماذا، يا إلهي"، قال سايم، "سأتحمَّل مُخاطَرَة ذلك بنفسي! دكتور بولْ، أنا ضابِط شُرطَةٍ. ها هي بطاقتي"، وطوَّح بالبطاقة الزرقاء على المنضدة.

كان البروفسور ما زال يخشى أن يضيع كُلَّ شيء؛ لكنه كان مُخلِصًا. سحب بطاقته الشُّرَطيَّة ووضعها بجوار بطاقة صديقه. ثم انفجر الرَّجُلُ الثالث في الضحك، وللمرَّة الأولى في ذلك الصباح سَمِعَا صوته.

"يسعدني إلى أبعد حَدٍّ أنكما يا صديقاي جئتُمَا مُبكِّرًا جدًّا"، قال، بما يشبه وَقاحَةَ طالِبٍ في مدرسة، "لأن بإمكاننا أن نتوجَّه معًا إلى فرنسا. نعم، أنا عضوٌ في القوة صاحِبَةِ الحَقِّ"، وألقى ناحيتهما ببطاقة زرقاء بخفَّةٍ شديدة كإجراءٍ شَكليٍّ.

مُعتَمِـرًا قُبَّعَـةً خفيفـة عـلى رأسـه، ومسـتعيدًا عُوَيناتِـه العفريتيـة، خطـا الدكتـور مُسرِعًـا نحـو البـاب، وتَبِعَـه الآخـران غريزيًّـا. بـدا سـايم غـيرَ مُنتَبِـهٍ قليـلًا، وأثنـاء مـروره عـبر البـاب ضرب فجـأةً بعصـاه عـلى الممـرِّ الحجـري مُحْدِثًـا رنينًـا.

"لكــن، يــا إلهــي"، صــاح قائـلًا، "إذا كان كل هــذا صحيحًــا، فهنــاك مُحقِّقـان سِرِّيَّـان ملاعـين أكـثر مـن مُفجِّـري الديناميـت الملاعـين في ذلـك المجلـس اللعـين!".

"كان لنا أن نُقاتِلَهم بسهولة"، قال بولْ؛ "كُنَّا أربعةً ضِدَّ ثلاثة".

كان البروفسـور يهبـط عـلى الـدَّرَج، لكـنَّ صوتَـه جـاء صادِحًـا مـن الأسـفل.

"لا"، قـال الصـوت، "لم نكـن أربعـةً ضِـدَّ ثلاثـة- لم نكـن محظوظـين بهـذا الشـكل. كُنَّـا أربعـة ضـدَّ الواحـد".

استمرَّ الآخران في هبوطهما بصَمتٍ.

أصرَّ الشـابُّ المدعـو بـولْ -بتهذيـبٍ بـريء مُميَّـز لـه- عـلى أن يكـون آخِـرَ مَـن يصـل إلى الشـارع؛ لكـنَّ سُرعَتَـه النشـيطة أكَّـدَت نفسـها بـلا وعـي، وخَطَـا بسرعـةٍ نحـو مكتـبِ استعلامات السِّـكَك الحديديـة، مُتحدِّثًـا إلى الآخَرَيْـن مسـتديرًا برأسـه.

"مــن المبهــج أن يكــون لــدى المــرء أصدقــاء"، أوشَــكْت عــلى المــوت مــن التَّوتُّــر، كــوني وحيــدًا تمامًــا. أوشــكتُ عــلى أن أطــوِّح بذراعــي حــول جوجــول واحتضانــه، وهــو تــصرُّف طائــش بالتأكيــد. آمــل ألَّا تحتقــروني بســبب خــوفي الأزرق".

"كُلُّ الشـياطين الزرقـاء في الجحيـم الأزرق"، تابـع سـايم، "كانـت سـببًا في خـوفي الأزرق! لكـن أسـوأ الشـياطين كانـت أنـت وعويناتـك الجهنَّميَّـة".

ضحك الشاب مبتهجًا.

"ألم تكـن ذلـك مَزحَـةً باليـة؟" قـال. "تلـك الفكـرة البسـيطة ليسـت فكـرتي. لا أتمتَّـع بالـذكاء الـلازم. لم أرغـب سـوى في الالتحـاق بخدمـة المحقِّقـين السِّرِّيِّين، لمكافحـة مُفجِّـري الديناميـت بالتحديـد. لكـن بسـبب ذلـك أرادوا شـخصًا مـا قـادرًا عـلى التَّنكُّـر كمفجِّـر ديناميـت؛ وأقسـموا جميعًـا بالجحيـم أنني لـن أبـدو أبـدًا كمفجِّـر ديناميـت. قالـوا إن مِشـيَتي تَبعَـثُ عـلى الاحـترام، وأنني أبـدو، عنـد النَّظـر لي مـن الخلـف، كالدُّسـتور البريطـاني. قالـوا إنني أبـدو متمتِّعًـا بصحتـي جـدًّا ومُتفائـل جـدًّا؛ وخَـيِّر وجديـر بالثقـة عـلى نحـو أكـثر مـن الـلازم؛ نعتـوني بـكل أنـواع الأسـماء في سـكوتلاند يـارد. قالـوا إنني لـو كنـتُ مُجرِمًـا، فقـد أجنـي ثـروةً مـن مظهـري كرَجُـلٍ نزيـه فحسـب؛ لكـن بمـا أن سـوء الحـظّ جعلنـي رجـلًا نزيهًـا بالفعـل؛ لم تظهـر أدنى فرصـة أو احتـمال عـلى أن أكـون قـادرًا عـلى مسـاعدتهم عـبر تنكُّـري كمجـرم. لكـن في النهايـة جـاؤوا بي أمـام عجـوزٍ أحمـق كان يشـغل مرتبـةً عاليـةً في قـوة الشرطـة، بَـدَت رأسـه بـلا نهايـة عـلى كتفيـه. وهنـاك تحـدَّث الجميـع بيأس. سـأل أحدهـم مـا إذا كان مـن الممكـن إخفـاء ابتسـامتي اللطيفـة بِلحيَـةٍ كثَّـة؛ وقال آخـر إنهـم إذا صبغـوا وجهـي بالسـواد فقـد أبـدو كفوضـويٍّ زِنجـيٍّ؛ لكـن هـذا الرَّجُـل العجـوز جـاء بأكـثر الملاحظـات اسـتثنائيَّةً. "عُوينـات مُعتِمَـة سـتفي بالأمـر"، قـال بيقـين. "انظـروا إليـه الآن؛ يبـدو كسـاعي مكتـبٍ ملائـكي. ألبِسـوه عُوَينـاتٍ مُعتِمَـةً وسـيصرخ الأطفـال عنـد مـرآه". وهـذا مـا حـدث، أُقسِـم بالقدِّيـس چورچ! فـور أن احتجَبَـت عينـاي، فـإن كل مـا تبقَّـى -الابتسـامة والكتفـين العريضـين والشَّـعر القصـير- جعلنـي كشـيطانٍ صغـير حقيقـيٍّ. كـما قُلـتُ، كان الأمـر بسـيطًا جـدًّا، تمامًـا كالمعجـزات؛ لكـنَّ التَّنكُّـر لم يكـن الجـزءَ الإعجـازيَّ الحقيقـي في المسـألة. ظهـر أمـرٌ مُذهِـلٌ مـا، مـا زال رأسي يترنَّـح بسـببه".

"ماذا كان؟" سأله سايم.

"سأخبرك"، أجابه الرجل ذو العُوَينات. "هذا القِدْر الكبير في الشرطة الذي أخذ قياساتي حتى يعرف كيف ستبدو العُوَينات مع شَعري وجواربي- يا إلهي، لم يَرَني على الإطلاق!".

وَمَضَت عينا سايم فجأةً تجاهَه.

"كيف ذلك؟"، سأله. "ظَنَنتُ أنَّكَ تحدَّثتَ إليه".

"لقد فَعَلتُ"، قال بولْ بإشراق؛ "لكننا تحدَّثنا في غُرفَةٍ حالكة الظلام كمنجم فَحمٍ. هناك، لم أكن أبدًا لأخمِّن ما يحدث".

"ليس بإمكاني تَصوُّره"، قال سايم مُتهيِّبًا.

"إنها فكرة جديدة حقًّا"، قال البروفسور.

كان حليفهم الجديد كالعاصفة في المسائل العملية. في مكتب الاستعلامات سأل بإيجاز عمليٍّ عن القطارات إلى دوفر. بعد حصوله على المعلومات، جمع الرُّفقَةَ في عربة أُجرَة، ثم وضعهم ووضعَ نفسه داخل عربة قطار قبل أن يدركوا حقيقة العملية الدائرة مُنقَطِعَة الأنفاس. وقبل أن ينسابَ الحديثُ بينهم، كانوا قد استقلُّوا القارب المتَّجِه إلى كاليه.

"كنتُ قد رتَّبتُ كُلَّ شيء بالفعل"، شرح لهم قائلًا، "من أجل الذهاب إلى فرنسا لتناول غدائي؛ لكن يُبهِجُني أن يصحَبَني أحدهم في تناوُلِ الغَداء معي. كما ترون، كنتُ مُضطرًا لإرسال ذلك الوحش، الماركيز، مع قنبلته؛ لأن الرئيس كان يقتلني بنظراته المتشَكِّكَة، والرَّبُّ وحده يعلم كيف. سأخبركم بالقصة يومًا ما. كان الأمر خانِقًا بشدَّة. ومتى حاوَلتُ الهروب أرى الرئيس في مكان، يبتسم من وراء نافذةٍ بارِزَةٍ لملهًى ما، أو ينزع قُبَّعته لتحيَّتي من داخل حافلة رُكَّاب. قولوا ما تشاؤون، لكن ذلك الرجل باع نفسه للشيطان؛ بإمكانه أن يوجد في ستة أماكن في نفس الوقت".

"لكنَّـكَ أرسـلت الماركيـز بـدلًا منـك"، سـأله البروفسـور. "منـذ وقـتٍ طويـل كـما أرى؟ هـل مـا زال بإمكاننـا اللحـاق بـه والقبـض عليـه؟".

"نعــم"، أجــاب المرشِــدُ الجديــد، "لقــد وَضَعــتُ توقيــتَ كُلِّ شيء. سـيكون مـا يـزال في كاليـه عندمـا نَصِـل".

"لكـن عندمـا نمسـك بـه في كاليـه"، قـال البروفسـور، "مـاذا سـنفعل بـه؟".

عنـد هـذا السـؤال تداعـت ملامِـحُ دكتـور بـول للمـرَّة الأولى. فكَّـر قليـلًا، ثـم قـال:

"نظريًّا، أعتقد أن علينا طَلَبَ الشرطة".

"لسـتُ أنـا"، قـال سـايم". "نظريًّـا عـليَّ أن أغـرق نفـسي أولًا. فقـد عاهَـدتُ صديقًـا بائِسًـا -كان تشـاؤُميًّا حداثيًّـا حقًّـا- بِـشَرفي عـلى عـدم إخبـار الشرطـة. يمكننـي التحايُـلُ عـلى ضمـيري، لكـن ليـس نقـض كلمتـي مـع متشـائم حـداثي. إن الأمـر كنَقـض الوَعـدِ مـع طفـل".

"أنـا في نفـس القـارب"، قـال البروفسـور. "حاولـتُ إخبـار الشرطـة ولم أسـتطع، بسـبب قَسَـمٍ سـخيفٍ مـا أخذتـه عـلى نفـسي. عندمـا كنـتُ مُمثِّلًا كنـتُ كالوحـش في كل شيء. لكـن حنـثُ اليمـين أو الخيانـة هـي الجريمـة الوحيـدة التـي لم أرتكبهـا. إذا فعَلتُهـا فلـن أعـرف الفَـرقَ بـين الصـواب والخطـأ".

"لقـد فكَّـرتُ في كل هـذا"، قـال دكتـور بـولْ، "واتَّخـذتُ قـراري. مَنَحـتُ عهـدي للسـكرتير- تعرفونـه، الرجـل ذو الابتسـامات المقلوبـة. أصدقـائي، ذلـك الرجـل هـو أكـثر إنسـان تعيـس مـن بـين البـشر. قـد يكـون الأمـر طريقـة هضمـه، أو ضمـيره، أو أعصابـه، أو فلسـفته عـن الكـون، لكنـه مُصـابٌ باللعنـة وقابِـعٌ في الجحيـم. حسـنًا، لا يمكننـي تسـليم واقتنـاص

رَجُـلٍ كهـذا. سـيكون الأمـر كجِلـدٍ مُصـابٍ بالجُـذام. قـد أكـون مجنونًـا، لكـن هكـذا أشـعر بالأمـر؛ وهكـذا سـينتهي حتـمًا".

"لا أظُـنُّ أنـكَ مجنـون"، قـال سـايم. "أدرَكـتُ أنـك سـتُقرِّر هـذا عندمـا قمـتَ لأول مـرة...".

"أها؟"، قال دكتور بولْ.

"عندما انتزعت عُوَيناتِك لأول مرة".

ابتسـم دكتـور بـولْ قليـلًا، وخطـا مُتمهِّلًا عـلى سـطح القـارب للنظـر إلى البحـر الغـارق في ضـوء الشـمس. ثـم خطـا راجعًـا، راكلًا عَقِبَيـه بـلا مبـالاة، وبعدهـا هبـط صمـتٌ لطيـفٌ بـين الرجـال الثلاثـة.

"حسـنًا"، قـال سـايم، "يبـدو أننـا نتشـارك ثلاثتنـا في نفـس الأخلاقيـة أو الـلا أخلاقيـة؛ لذلـك مـن الأفضـل أن نتعامـل مـع الحقيقـة المتأتِّيـة عـن ذلـك".

"نعـم"، أكَّـد البروفسـور، "أنـت عـلى حَـقٍّ تمامًـا؛ وعلينـا أن نـسرع؛ لأن بإمـكاني أن أرى لسـان (جـري- ني) بـارزًا مـن شـاطئ فرنسـا".

"الحقيقـة المتأتِّيـة عـن ذلـك"، قـال سـايم بجدِّيَـة، "هـي أننـا الثلاثـة وحيـدون عـلى هـذا الكوكـب. جوجـول قـد رحـل. يعلـم الله إلى أيـن؛ ربمـا سـحقه الرئيـسُ كذُبابَـةٍ. في المجلـس كُنَّـا ثلاثـة رجـال ضـدَّ ثلاثـة، كالرومـان الذيـن دافعـوا عـن الجسر"[1]. لَكِنَّـا أسـوأ حـالاً منهـم؛ أولاً لأنـه كان بإمكانهـم أن يلجـؤوا إلى تنظيمهـم بينـما نعجـز نحـن عـن اللجـوء إلى منظَّمتنـا، وثانيًـا لأن...".

(1) يقصـد جسر "Pons Sublicius"، أقـدَمَ جسر معـروف في الإمبراطوريـة الرومانيـة، والاستبسـال في الدِّفـاع عنـه عـلى يَـدِ هوراتيـوس كوكليـز ورفاقـه ضـدَّ جيـوش الكلوسـيوم الغازيـة في القـرن السـادس قبـل الميـلاد- (المترجـم)

"لأن واحـدًا مـن الثلاثـة رجـال الآخريـن هـؤلاء"، قـال البروفسـور، "ليـس إنسـانًا".

أومأ سايم واستغرق في صمتٍ لثانية أو ثانيتَيْن، ثم قال:

"فكـرتي كالتـالي. علينـا أن نفعـل شـيئًا مـا لنُبقِـيَ عـلى الماركيـز في كاليـه حتـى منتصـف ظهـيرة الغـد. أدرتُ أكـثر مـن عشريـن خُطَّـة في رأسي. لا يمكننـا الإبـلاغ عنـه كمُفَجِّـر ديناميـت؛ هـذا أمـرٌ مُنتـهٍ. لا يمكننـا اعتقالـه عـلى خلفيـة تهمـة تافِهَـةٍ مـا؛ لأنـه حينهـا سـنضطرُّ للظهـور؛ وهـو يعرفنـا، وسيشـتَمُّ رائحـة الوُشـاة. لا يمكننـا التظاهـر بالإبقـاء عليـه في أعـمال الفوضويـة؛ قـد يبتلـع الكثيريـن بتلـك الطريقـة، لكـن الحـال ليـس كهـذا مـع فكـرة التوقُّـف في كاليـه حتـى يمـرَّ القيـصر بسـلامٍ عـبر باريـس. ربمـا نحـاول اختطافـه، واحتجـازه بأنفسـنا؛ لكنـه رجـلٌ معـروف هنـا. يتمتَّـع بحراسـة كاملـة مـن أصدقائـه؛ كـما أنـه قـويٌّ وشـجاع جـدًّا؛ والحـدث مُثـيرٌ للشُّـكوك. الـشيء الوحيـد الـذي أرى إمكانيـة فعلـه هـو الاسـتفادة مـن نفـس الأشـياء التـي تقـع في صالـح الماركيـز. سأسـتفيد مـن حقيقـة أنـه نبيـلٌ يتمتَّـع باحـترامٍ كبـير. سأسـتفيد مـن حقيقـة أنـه لديـه العديـد مـن الأصدقـاء والصِّـلات في مُجتَمَـعِ الصَّفـوَة".

"عَمَّاذا تتحدَّث بحَقِّ الشيطان؟"، سأله البروفسور.

"ذُكِـرَت سُـلالة آل سـايم أوَّل مـا ذُكِـرَت في القـرن الرابـع عـشر"، قـال سـايم؛ "لكـن الحكايـات المرويَّـة تقـول إن واحـدًا منهـم امتطـى خَيلَـه وراء بـروس في بانوكبـيرن. منـذ العـام 1350 كانـت شـجرة العائلـة واضحـة جـدًّا".

"لقد فقد عَقلَه"، قال الدكتور الضئيل، مُحَملِقًا.

"كانــت راياتنــا المرفوعــة"، تابــع ســايم بهــدوء، "وشــعارها "أشرِطَــة مـن الفضَّـة تحمـل ثلاثـة صلبـان متداخِلَـة" مـع اختـلاف الكلـمات التـي تَحمِلُهـا".

أمسك البروفسور بتلابيب سايم بعُنفٍ من معطفه.

"بالـكاد ابتعدنـا عـن السـاحل"، قـال لـه. "هـل أصابـَك دوارُ البَحـرِ أم أنـَّك تَهـذِرُ في المـكان الخاطـئ؟".

"ملاحظـاتي عَمَليَّـة عـلى نحـوٍ مُؤلِـم تقريبًـا"، أجابـه سـايم، بطريقـةٍ غـير مُتعجِّلـة. "إن سـلالة سـان إيوسـتاش قديمـة جـدًّا. ليـس بوسـع الماركيز إنـكارُ أنـه واحِـدٌ مـن النُّبَـلاء. لا يمكنـه إنـكارُ أنَّنـي واحـد مـن النُّبـلاء. وحتـى نضـع مسـألة وضعـي الاجتماعـي بعيـدًا عـن أيَّـة شـكوك، أقـترح أن نُمسِـكَ بـه في أقـرب فرصـةٍ. لكننـا مـا زلنـا في المينـاء".

انطلقـوا عـلى الشـاطئ تحـت الشـمس الحارقـة فيـما يشـبه الإغـماءة. قادهـم سـايم، الـذي احتـلَّ الآن موضـع الزَّعامـة الـذي احتلَّـه بـولْ في لنـدن؛ عـبر مَسـيرةِ اسـتعراضٍ بَحريَّـة حتـى وصـل بهـم إلى مجموعـة مـن المقاهـي، تُظَلِّلها كُتلَـةٌ هائلـة مـن الخُـضرَة وتُطِـلُّ عـلى البحـر. في سَـيرِه أمامهـما كانـت خطواتـه مُتمايِلَـةً بعـض الـشيء، مُطَوِّحًـا بعصـاه وكأنهـا سَـيفٌ. كان مـن الواضـح أنـه يتَّجِـه إلى الطـرف الأقـصى مـن صَـفِّ المقاهـي، لكنـه توقَّـف بَغتَـةً. بإيمـاءة حـادَّةٍ طالَبَهـم بالصَّمـت، ثـم أشـار بإصبـعٍ واحـدة مـن يـده ذات القُفَّـاز إلى منضـدة مقهـى تحـت ضفَّـةٍ مـن أوراق الأشـجار المزهِـرَة عليهـا كان يجلـس الماركيـز دي سـان إيوسـتاش، أسـنانه تلتمـع في لِحيَتِـه السَّـوداء الكثيفـة، ووجهـه الأسـمر الشـجاع مُظلَّـلٌ بقُبَّعـة قَـشٍّ صفـراء فاتحـة، وحـواف هيئتـه مُحـدَّدة عـلى خلفيـة البحـر البنفسـجي.

الفصل العاشر

المبارَزة

جلس سايم على منضدة في المقهى مع رفاقه، عيناه الزرقاوان تُشِعَّان كالبحر المتلألئ من تحته، ثم طلب قِنِّينَةً من نبيذ الساومور بلهفَةٍ مُبتَهِجَة. كان لسببٍ ما في حالة من الانتشاء العجيب. مِزاجُه عالٍ على نحوٍ غير طبيعي؛ يرتفع مع هبوط الساومور، وفي نصف ساعة كان حديثه سَيلًا من الهُراء. أفصح لهما أنه بصَدَدِ خُطَّةٍ لخلق حديث سينبثق بينه وبين الماركيز المميت. كان يُدوِّنه بجنون مستخدمًا قلمًا من الرَّصاص. وأصبحت الخُطَّة على شكل تعاليمَ دينيَّةٍ مكتوبة بأسئلة وإجابات، وبكلمات متسارِعَة قدَّمها لهما.

"سأقترب منه. وقبل أن ينزع قُبَّعته، سأنزع قُبَّعتي. سأقول "الماركيز دي سان إيوستاش على ما أعتقد؟". وسيقول "السيد سايم

المعروف على ما أظنُّ؟". ثم سيقول بفرنسيَّةٍ بديعةٍ، "كيف حالُكَ؟"، ثم سأجيبه بلَهجَة كوكني أكثر إتقانًا: "أوه، سايم فحسب..."".

"أوه، توقَّف"، قال الرجل ذو العُوَينات. "تمالَكْ نفسك، وألقِ بتلك القصاصة بعيدًا. ماذا ستفعل حقًّا؟".

"لكنها تعاليمُ دينيَّةٌ رائعة"، قال سايم على نحوٍ مُثير للشفقة. "اسمَحْ لي بأن أقرأها عليك. فهي تضمُّ ثلاثة وأربعين سؤالًا وإجابةً فقط، وبعض إجابات الماركيز ذكيَّة على نحوٍ مُدهِش. أحب أن أكون منصفًا مع أعدائي".

"لكن ما الفائدة من كل هذا؟"، سأله دكتور بولْ مغتاظًا.

"أن ينتهي الأمر إلى مواجهتي، ألَا ترى"، قال سايم، بإشراق. "عندما يقدِّم الماركيز الإجابة التاسعة والثلاثين، التي تقول..."

"هل خطر على بالِكَ بأيِّ شكل"، سأله البروفسور، ببساطَةٍ تأمُّليَّة، "أن الماركيز قد لا يقول أيًّا من الأشياء الثلاثة والأربعين التي وضعتَها له؟ في هذه الحالة -كما أفهم- ستبدو الحِكَم الساخرة التي وضعتَها مُصطَنَعةً بشكلٍ ما".

ضرب سايم المنضدة بوجهٍ مُتألِّق.

"يا للعجب، كم أن هذا حقيقيٌّ"، قال سايم، "لم أُفكِّر في هذا أبدًا. سيدي، ذكاؤكَ يتجاوز العادِيَّ. يومًا ستصنع اسمًا".

"أوه، أنتَ سكرانٌ مثل بومَةٍ!"، قال الدكتور.

"يبقى فقط"، تابع سايم رابِطَ الجَأش تَمامًا، "أن نَصِلَ لطريقةٍ ما لإذابة الجليد (إذا كان لي أن أَصِفَ الأمرَ بذلك) بيني وبين الرجل الذي أنتوي قَتلَه. وحيث أنه لا يمكن التنبؤ بمسار الحوار من قِبَل أحد طَرَفَيْه بمُفرَدِه (كما أشرتَ بتلك الفَراسة العميقة)؛ فإن الشيء الوحيد الذي يمكن فِعلُه، في رأيي، هو أن يقوم طرفٌ واحد، إلى أقصى

حدٍّ مُمكِنٍ، بالحوار بأكمله بنفسه. وهذا ما سأفعله، بحقِّ القِدِّيس چورچ!"، ثم نهض بغتةً، وشَعرُه الأصفر يَتطايَرُ بفِعلِ نَسيم البَحر الرَّقيق.

كانت فرقةٌ موسيقيَّةٌ تعزف موسيقاها في مقهًى صاخِبٍ يختفي في مكانٍ ما بين الأشجار، وامرأة كانت قد توقَّفَت عن الغناء لتوِّها. في رأس سايم الملتَهِب كان خَبطُ فرقة الآلات النَّحاسيَّة يبدو كارتجاجِ وقَعقَعَةِ ذلك الأرغن اليَدويِّ في ميدان ليستر، الذي على أنغامه انتظر الموتَ ذاتَ مرَّةٍ. تطلَّع عبر المنضدة الصغيرة إلى حيث يجلس الماركيز. كان الرَّجلُ قد أضحى لديه رفيقان الآن، فرنسيَّان وَقوران بمعاطِفَ من الفرو، وقُبَّعاتٍ حريريَّة، أحدهما يُعلِّق الوردة الحمراء لوسام جوقَةِ الشرف الفرنسية، رجلان من وضع اجتماعيٍّ راسِخٍ كما يبدو. بجانب هذه الأزياء السوداء الاسطوانيَّة، بدا الماركيز -في قُبَّعَتِه المتراخية من القَشِّ وملابسه الربيعية الخفيفة- كبوهيميٍّ وحتى كبَربَريٍّ؛ لكنَّه بدا كماركيز. بل قد يقول المرء إنَّه يبدو كملك، بأُبَّهته الحيوانية، وعينيه الساخرتين، ورأسه المزهوِّ المرتفع على خلفيَّة البحر الأرجوانيِّ. لكنه لم يكن ملكًا مسيحيًّا، بأي شكل، كان -بالأحرى- طاغِيَةً داكِنَ البشرة، نِصفَ إغريقيٍّ، نِصفَ آسيويٍّ، كان، في الأيام التي بَدَت فيها العبوديَّةُ أمرًا طبيعيًّا، يتطلَّع من عَلٍ إلى البحر المتوسط، إلى سُفُنِه الشِّراعيَّة وإلى عبيده الغارقين في الأنين. هكذا بالضَّبط، فكَّر سايم، سيبدو الوجهُ الذَّهبيُّ الأسمر لذلك الطَّاغية على خلفيَّة أشجار الزيتون الخضراء الداكنة والأزرق المحتَرِق.

"هل ستذهب للتعامُل مع مسألة اللقاء؟"، سأله البروفسور مُغتاظًا، بعد أن رأى أن سايم ما زال يقف في مكانه بلا حراكٍ.

أفرغ سايم آخر كأس من النبيذ الفائِر.

"نعـم، أجابـه، مشـيرًا إلى الماركيـز ورفاقـه، "ذلـك اللقـاء سـيُصيبني بالتَّعاسـة. سـأذهب لِشـدِّ الأنـف القبيـح الهائـل خمـريِّ اللـون لذلـك الاجتـماع".

خطـا عَبرَهـم بسُرعَـةٍ، وبثَبـاتٍ كامـل. أحنـى الماركيـز -بعـد أن رآه- حاجِبَيـه الآشـوريَّين الأسـودين بدَهشَـةٍ، لكنـه ابتسـم بتـأدُّب.

"أنت السيد سايم، على ما أعتقد"، قال له.

انحنى سايم.

"وأنـت الماركيـز دي سـان إيوسـتاش"، قـال لـه بلُطـفٍ. "اسـمح لي أن أجـذب أنفَـكَ".

انحنـى للقيـام بذلـك، لكـن الماركيـز جَفـلَ متراجِعًـا، هـازًّا مقعـده، ثـم أمسـك الرَّجُـلان ذوا القُبَّعتـين العاليتـين بسـايم مـن كتفيـه.

"لقد أهانني هذا الرجل!"، قال سايم، بإيماءات تفسيريَّةٍ.

"أَهانَكَ؟"، صاح الجِنتلمان ذو الوردة الحمراء، "متى؟".

"أوه، الآن لتوِّه"، قال سايم بتهوُّرٍ. "لقد أهان أُمِّي".

"أهان أُمَّكَ!"، صاح الجِنتلمان مُرتابًا.

"حسنًا، أيًّا كان الأمر"، قال سايم، مُتنازلًا قليلًا، "لقد أهان عَمَّتي".

"لكـن كيـف يمكـن أن للماركيـز قـد أهـان عَمَّتَـكَ لتـوِّه الآن؟" قـال الجِنتلـمان الثـاني بتعجُّـبٍ منطقـيٍّ. "كان جالسًـا هنـا طـوال الوقـت".

"أها، هذا ما يقوله!" قال سايم بغموضٍ.

"لم أَقُـل شـيئًا عـلى الإطـلاق"، قـال الماركيـز، "باسـتثناء أمـرٍ مـا بشـأن الفرقـة الموسـيقيَّة. لم أَقُـل سـوى إننـي أحِـبُّ أن يُعـزَف ڤاجـنر جيِّـدًا".

"كان ذلك تلميحًا إلى أسرتي"، قال سايم بثباتٍ. "فعمَّتي كانت تعزف ڤاجنر على نحوٍ سيِّئ. كانت مسألةً مُؤلِمَةً جدًّا. دائمًا ما نتعرَّض للإهانة بسببها".

"يبدو هذا عجيبًا جدًّا"، قال الجنتلمان المتأنِّق، وهو ينظر إلى الماركيز بتشكُّك.

"أوه، أُؤكِّد لك"، قال سايم بجدِّيَّة، "مُحادَثتُكم بأكملها كانت مُحمَّلَةً بتلميحاتٍ واضحة لنقاط ضَعفِ عَمَّتي".

"هذا هُراء!"، قال الجنتلمان الثاني. "عن نفسي لم أَقُل شيئًا لنصف ساعةٍ باستثناء إعجابي بغناء تلك الفتاة ذات الشَّعر الأسود".

"حسنًا، هذا تلميحٌ آخر!"، قال سايم بسخطٍ. "كان شَعر عَمَّتي أحمرَ اللَّون".

"يبدو لي"، قال الآخر،"أنَّكَ ببساطةٍ تبحث عن ذريعةٍ لإهانة الماركيز".

"بحَقِّ القِدِّيس چورچ!"، قال سايم، مستديرًا ومُتطلِّعًا إليه، "يا لَكَ من صَبيٍّ ذَكِيٍّ!".

جَفلَ الماركيز بعينين ملتَهِبَتَيْن كعينَيْ نَمِرٍ.

"تَنشُدُ عِراكًا معي!" صاح قائلًا. "تبحث عن مُشادَّةٍ معي! يا إلهي! أبدًا لم يوجد رجلٌ مُضطرٌّ للبحث عنها طويلًا. هؤلاء السادة ربما يقومون بالأمر من أجلي. لكن ما زالَت هناك أربع ساعات من ضوء النهار. دعونا نتعارك هذا المساء".

انحنى سايم بأناقة بديعة جدًّا.

"أيُّها الماركيز"، قال له، "إن أفعالك جديرةٌ بالمجد والدِّماء. اسمح لي بالتشاوُرِ لوَهلَةٍ مع السَّادة الذين سأضع نفسي بين أيديهم".

بثلاثِ خطوات طويلة انضمَّ إلى رفيقَيْه الَّلذَيْن، بعد أن رَأَوا هجومَه تحت تأثير الشمبانيا وأنصتوا إلى تفسيراته البلهاء، جَفلَوا تمامًا من رؤيته؛ الآن وقد عاد إليهما فائقًا من أَثَرِ السُّكْر، شاحبًا قليلًا، مُتحدِّثًا إليهم بصوتٍ خفيضٍ ذي طابعٍ عَمليٍّ حماسيٍّ.

"لقد أتممت الأمر"، قال لهم بصوتٍ مبحوح. "نجحتُ في عقد عراكٍ مع الوحش. لكن انظروا وأنصِتوا بعنايَةٍ. لا يوجد وقتٌ للحديث. أنتما مُساعِداي، وكل شيء يجب أن يأتي منكما. الآن عليكما أن تُصِرَّا، على نحو قاطِعٍ، على أن ينطلق النزال غدًا بعد السابعة؛ من أجل منحي الفرصة لمنعه من اللحاق بقطار الساعة 7.45 المتَّجِه إلى باريس. إذا فاته ذلك القطار فسيُفوِّت الجريمة. لن يرفض لقاءَكما في حيِّزٍ قَصيرٍ كهذا من الزمان والمكان. لكن إليكما ما سيفعله. سيختار ميدانًا في مكان ما بالقرب من محطَّةٍ على جانب الطريق؛ حتى يمكنه استقلال القطار. إنه مُبارِزٌ بارِعٌ جدًّا، وبالتالي فإنه على ثِقَةٍ بقتلي في الوقت اللازم حتى يلحق بالقطار. لكن بإمكاني المبارزة أيضًا، وأعتقد أن بإمكاني إبقاؤه مشغولًا بالنِّزال بأي شكلٍ حتى يُفوِّت القطار. وحينها ربما يقتلني لمنح مشاعره العَزاء. هل تفهمان قَصدي؟ حسنًا جدًّا إذن، دعوني أقدِّمكما لحفنَةٍ من أصدقائي الرائعين"، ثم قادهم بسرعة عبر الاستعراض العسكري، وقدَّمهما إلى مساعِدَيْ الماركيز باسمَيْن أرستقراطيَّيْن جدًّا لم يسمعا به من قبل.

كان سايم عُرضةً لنوبات من الإدراك العجيب، الدخيل على شخصيَّته الطبيعية. كانت هذه النوبات (كما كان الحال مع اندفاعته بشأن العُوَيناتِ) تتَّخذ أشكالًا من الحَدْس الشاعري، ترتقي أحيانًا إلى مستوى النبوءات المفرِطَة.

توقَّع بِدقَّةٍ استراتيجية غريمه في النزال. وعندما أُبلغَ الماركيز من قِبَل مساعديه أن سايم لن يتعارك إلَّا في الصباح، فلا بُدَّ أنه أدركَ على

الفـور العَقبـةَ التـي قامـت فجـأةً بينـه وبـين مسـألة إلقائـه للقُنبُلـة في العاصمـة. بالطبـع لم يتمكَّـن مـن تفسـير هـذا الاعـتراض لأصدقائـه؛ لذلـك اختـار المسـار الـذي تنبَّـأ بـه سـايم. أوعـز إلى مسـاعديه بالاتفـاق عـلى مـرجٍ صغـير لا يَبعُـدُ كثـيرًا عـن خَـطِّ السـكة الحديديـة، وكان عـلى يقـينٍ بالنهايـة المميتـة في الاشـتباك الأول.

عندمـا جـاء هابِطًـا بهـدوء إلى ميـدان الـشرف، لم يكـن مـن الممكـن تخمـين أنـه يعـاني مـن أي قلـق بشـأن أي رحلـة: يـداه في جيبـه، وقُبَّعتُـه مـن القَـشِّ عـلى ظهـر رأسـه، ووجهـه المليـح النحـاسيُّ يَسـطَعُ في الشـمس. لكـن الغربـاء قـد يـرون أنـه مـن العجيـب أن يظهـر في إثـره، ليـس مسـاعداه فحسـب يحمـلان صنـدوق السـيوف، لكـنْ اثنـان مـن خَدَمِـه أيضًـا يحمـلان حقيبـة سَـفَرٍ وسَـلَّة غَـداء.

في هـذه السـاعة المبكِّـرة مـن الصبـاح، أغرَقَـت الشـمسُ كُلَّ شيء في دفئهـا، واندهـش سـايم عـلى نحـوٍ غامِـضٍ لرؤيـة كثـيرٍ مـن أزهـار الربيـع تتوهَّـج بالذهبـي والفـضِّيِّ بـين الأعشـاب الطويلـة التـي وقَفَـت فيهـا الصُّحبـة بأكملهـا غارقـين حتـى رُكَبِهـم تقريبًـا.

باسـتثناء الماركيـز، كان جميـع الرجـال في زِيِّ الصبـاح الوقـور داكِـنِ اللـون، مـع قُبَّعـاتٍ تُشـبِه قِمَـمَ المداخـن السـوداء؛ الدكتـور الضئيـل عـلى الأخَـصِّ، مـع إضافـة عُوَيناتِـه السـوداء، كان يشـبه حانوتيًّـا في مسرحيـة هزليَّـةٍ. لم يكـن في وسْـعِ سـايم سـوى الشـعور بالتناقـض الهَـزليِّ بـين أرديـةِ مَسـيرةِ الكنيسـة الجنائزيـة هـذه والمـرج الغنـي المتلألـئ والأزهـار البريـة الناميـة في كل مـكان. لكـنَّ حقيقـة الأمـر أن هـذا التناقُـضَ الكوميـدي بـين الأزهـار الصفـراء والقُبَّعـات السـوداء لم يَكُـن سـوى التَّناقُـضِ المأسـاويِّ بـين الأزهـار الصَّفـراء والعمليـة السـوداء. عـلى يمينـه كانـت غابـة صغـيرة؛ وعـلى شـماله بعيـدًا يسـتقرُّ المنحنـى الطويـل لخَـطِّ السِّـكَك الحديديـة، وهـو مـا كان سـايم، في الحقيقـة، يحجبـه عـن الماركيـز، الـذي كان بـدوره

يصبو إليه كهدفٍ للهروب. من أمامه، خلف المجموعة السَّوداء لغُرَمائِه، كان بإمكانه أن يرى، كسَحابَةٍ مُخضَّبَة، أَجَمَةَ لَوزٍ صغيرة مزدحمة بالأزهار على خلفيَّة خَطِّ البحر الواهي.

اقتربَ حامِلُ وسام جوقة الشرف الفرنسي، الذي كان اسمه على ما يبدو كولونيل دوكروا، من البروفسور ودكتور بولْ بتأدُّبٍ شديد، واقترح أن يُعتَبَرَ النِّزالُ منتهيًا مع أوَّل جرح خطير.

مع ذلك، أصرَّ دكتور بولْ، الذي كان يُدرِّب سايم بعناية على هذا الاستراتيجية، بوَقارٍ شديدٍ، وفرنسيَّةٍ رديئة للغاية، أنَّ النزال لا بُدَّ أن يستمرَّ حتى يسقط واحِدٌ من المقاتلين عاجزًا. كان سايم قد اتَّخذ قراره بتجنُّب تعجيز الماركيز ومنع الماركيز من تعجيزه لعشرين دقيقةً على الأقل. في عشرين دقيقة سيكون قطار باريس قد مضى.

"بالنسبة لرَجُلٍ ذي براعة وبسالة معروفة كالسيد دي سان إيوستاش"، قال البروفسور بوقارٍ، "فإنه بالتأكيد لن يُلقي بالًا للطريقة العادية، ولاعبنا لديه أسبابٌ قوية للمُطالَبَةِ بمواجهة أطوال، أسباب تمنعني خُطورَتُها من الإفصاح عنها، لكن بسبب الطبيعة العادلة والشريفة التي يمكنني أن...".

"وَلَدٌ مُزعِج!"، انطلقت بالفرنسية من الماركيز القابع خلفه، بعد أن أظلم وجهه فجأة، "لنتوقَّفْ عن الحديث ونبدأ النزال". ثم أطاح برأس زهرة طويلة بعصاه.

كان سايم يتفهَّم نفادَ صبره الوَقِح هذا. تطلَّع غريزيًّا من فوق كتفه لرؤية إن كان القطار قادمًا من بعيد. لكن لا دُخانَ يبدو في الأفق.

ركع الكولونيل دوكروا على رُكبَتَيْه وفتح الصندوق، مستخرجًا منه زوجًا من السيوف المتماثِلَة، استقبلا ضوء الشمس وحوَّلاه إلى شُعاعَيْن من النار البيضاء. قدَّم واحدًا إلى الماركيز، الذي اختطفه بلا أيِّ

رسميَّاتٍ، وآخر إلى سايم، الذي أخذه، وثناه، وجهَّزه للنِّزال، مُستغرِقًا أطول وقتٍ ممكن يسمح به الوقار.

وبعدها تناول الكولونيل زوجًا آخر من النِّصال، ومتناولًا واحدًا لنفسه وآخر لدكتور بولْ، تابع مَهمَّتَه في وضع الرجال في أماكِنهم.

كان كِلا المحارِبَيْن قد انتزعا معاطِفَهما، ووقفا والسُّيوف في أيديهما. وقف المساعدان على كلِّ جانبٍ من خَطِّ النزال بسيوفٍ مسحوبة أيضًا، لكن قاتمَين ما زالا في معاطِفهما الصوفية وقبعاتهما الداكنة. تبادل المحاربان التحية. ثم قال الكولونيل بهدوء، "اشتباك!" وبعدها تلامس السيفان واختلطا.

عندما استشرى اهتزازُ الحديد المتشابك عبر ذراع سايم، فإن كل المخاوف الفانتازيَّة التي كانت مَوضِعًا لقصته تساقَطَت منه كتساقُطِ الأحلام من رَجُلٍ يستيقظ لتوِّه. تذكَّرها بوضوح وبترتيب كأوهام عُصابيَّة- كيف أصبح الخوف من البروفسور خوفًا من الحوادث المستبِدَّة للكابوس، وكيف أصبح الخوف من الدكتور خوفًا من الخواء المطلق للعلم. الأول كان الخوف القديم من حدوث أي معجزة، والثاني الخوف الحديث الأكثر يأسًا من عدم حدوث أي معجزة. لكنه يرى الآن أن هذه المخاوف كانت خيالاتٍ، فقد وجد نفسه في حضرة الحقيقة العظيمة للخوف من الموت، والشعور الفَظِّ عديم الشفقة به. شعرَ وكأنه رجلٌ كان يحلم طوال الليل بالسقوط من على جُرف، ثم استيقظ في الصباح ليجد نفسه مُتدلِّيًا من حبل مشنقة. لأنه فور أن رأى شعاع الشمس يجري على نصل غريمه، وفور أن شعر بلسانَي الصُّلبِ يتلامسان، ويهتزَّان كأشياء حيَّةٍ- أدرك على الفور أن غريمه كان مُحارِبًا مُرعِبًا، وأن ساعته الأخيرة ربما قد حانت.

شعر بقيمَةٍ عجيبة وحيَّة في كل التراب من حوله، في العشب تحت قدميه؛ شعر بحبِّ الحياة في كل الأشياء الحيَّة. كان بإمكانه

تَخَيُّل العشب وهو ينمو؛ بل وتَخيُّلُ أن الأزهار النَّديَّة تنبثق وتَتبرعَمُ في المروج من حوله- أزهار باللَّون الأحمر الدامي، وأخرى تشتعل بالذهبي والأزرق، حتى تنجز موكب الربيع الاحتفالي. ومتى شَرَدَت عيناه لومضة مُبتَعِدَةً عن العينين الهادئتين، المحدِّقَتَيْن، المنوِّمة للماركيز، كانت تريان الأجَمةَ الصغيرة لشجرة الَّلوز على خلفيَّة خَطِّ الأفق. راوَدَه شعورٌ بأنه إذا نجح في الهروب بمعجِزَةٍ ما فلن يمانع في الجلوس للأبد أمام شجرة اللوز تلك، غيرَ راغبٍ في أي شيء آخر في العالم.

لكن في حين أن الأرض والسماء وكل شيء حوله كان يتمتَّع بالجمال الحيِّ لشيء مفقود، فإن النصف الآخر في رأسه كان رائقًا كالزجاج؛ يتحاشى ضربات عدوِّه بنوعٍ من المهارة الآلية التي أبدًا لم يَظُنَّ أنه يتمتَّع بها. في إحدى الضربات انطلق طرف سيف عَدوِّه على طول رسغه، مُخَلِّفًا خيطًا رفيعًا من الدم، لكن إمَّا أنه لم يُلاحظ أو تمَّ تجاهُلُه ضِمنًا. من حين لآخر كان يردُّ بضربات انتقاميَّة، ومرَّةً أو اثنتين شعر باقترابه من إصابة هدفه، لكن بما أنه لم يَرَ أيَّ دماء على النصل أو القميص فقد اقتنع أنه مُخطِئٌ. ثم حدث توقُّفٌ تلاه تَغيُّر.

خَشيَةَ أن يفقد كلَّ شيء فإن الماركيز، قاطِعًا تحديقَتَه الهادئة، أرسل نظرةً خاطفة من فوق كتفه إلى خطِّ السكة الحديدية على يمينه. ثم عاد إلى سايم بوجهٍ مُشوَّه كوجه الشيطان، ثم استأنف النِّزالَ كما لو كان بعشرين سيفًا. كان الهجوم سريعًا وهائجًا، لحَدِّ أن السيف الوحيد المتلألئ بَدَا كزَخَّاتٍ من الأسهم المتلألئة. لم يكن أمام سايم خيارٌ سوى أن ينظر إلى خَطِّ السكة الحديدية؛ لكن أيضًا لم يَكُن به حاجَةٌ إلى ذلك. كان بإمكانه تخمين سبب جنون الماركيز المفاجئ في المعركة- كان قطار باريس على مرأى البَصَر.

لكـن طاقـة الماركيـز المروِّعـة انحرَفَـت عـن خَطِّها. في مرَّتَيْن فإن سـايم -متفاديًـا الضربـات- نجـح في إقصـاء طـرف سـيف خصمـه إلى خـارج دائـرة القتـال؛ وفي المـرة الثالثـة كانـت ضربتـه الانتقاميـة سريعـة جـدًّا، بحيـث لم يَعُـد هنـاك أي شـكٍّ بشـأن الضربـة هـذه المـرة. في الواقـع انحنـى سـيف سـايم تحـت وطـأة وزن جسـم الماركيـز، بعـد أن اخترقـه.

كان سـايم عـلى يقـين بأنـه ضرب نَصلَـه مخترقًـا عَـدوَّه كـما يَشُـقُّ البُسـتانيُّ بـضرب رَفْشِـه في الأرض. مـع ذلـك، قفـز الماركيـز واقفًـا بعـد الضَّربَـةِ مُنتَصِـبَ الظهـر، ووقـف سـايم مُحَدِّقًـا في طـرف سـيفٍ كالأبلـه. لم تكـن عـلى خصمـه أي دمـاء عـلى الإطـلاق.

بعـد لحظَـةٍ مـن الصَّمـت المتخشِّـب، انقـضَّ سـايم بـدوره باهتيـاجٍ عـلى خصمـه، ممتلئًـا بفضـولٍ مُشـتَعِلٍ. ربمـا كان الماركيـز، بشـكل عـامٍّ، مبـارِزًا أفضـلَ مـن سـايم، بالنَّظَـرِ إلى تَفوُّقِـه في البدايـة، لكـن في هـذه اللحظـة بـدا الماركيـز مُهتاجًـا وفي أسـوأ أحوالـه. قاتَـلَ بوحشـيَّةٍ، بـل وبضعـف، وباسـتمرارٍ كان يتطلَّـع بعيـدًا إلى خَـطِّ السـكة الحديديَّـة، كـما لـو أنـه يخـشى القطـار أكـثر مـن خَشـيَتِه الحديـد المسـتدَقِّ. كان سـايم، مـن ناحيتـه، يقاتـل بشراسَـةٍ وبحـرصٍ رغـم ذلـك، بغَضَـبٍ فكـريٍّ؛ توَّاقًـا لحَـلِّ لُغـز سَـيفِه الخـالي مـن الدمـاء. لهـذا السـبب؛ أصبـح يسـتهدف جسـدَ الماركيـز بشـكلٍ أقـلَّ، مُرَكِّـزًا ضرباتـه عـلى حَلقِـه ورأسـه. بعـد ذلـك بدقيقـة ونصـف شـعر بنصـل سـيفه يخـترق عُنُـقَ الرَّجُـل أسـفلَ الفَـكِّ. لكنـه خـرج نظيفًـا. مُوشِـكًا عـلى الجنـون، اندفـع ثانيـةً، وصنـع مـا ينبغـي أن يكـون نَدبـةً في عنـق الماركيـز. لكـن لم تظهـر أيُّ نَدبَـة.

لوَهلَـةٍ امتـلأت سـماءُ سـايم ثانيـةً بمظاهـر الرُّعـب السـوداء فـوق-الطبيعيَّـة. بالتأكيـد عـاش الرجـل حيـاةً مسـحورةً. لكـن هـذا الرُّعـب الروحـاني الجديـد كان أكـثر فزعًـا مـن الانقـلاب الروحـي رأسًـا عـلى عقـب الـذي تجسَّـد في القعيـد الـذي تعقَّبـه. لم يكـن البروفسـور سـوى عِفريـتٍ؛

لكن هـذا الرَّجُـلُ كان شيطانًا- ربّما كان الشيطانَ ذاتَه! عـلى أيَّـة حـالٍ، أصبـح هـذا يقينيًّـا، بعـد أن غـاص سـيفٌ بَـشَريٌّ في جسـده لثـلاث مـرات ولم يُخَلِّـف أي علامـة. عندمـا خَطَـرَت تلـك الفكـرة عـلى سـايم، اسـتقام في وقفتـه، وكل مـا كان طيِّبًـا في داخلـه صَـدَحَ عاليًـا في الهـواء كـما وكأنَّـه ريـاحٌ عالِيَـةٌ تُخَشـخِشُ بـين أوراق الشَّـجَر. فكَّـر في كل الكائنـات البشريـة في حكايتـه- في المشـاكي الصينيـة في سـافْرون بـارك، في الفتـاة ذات الشَّـعر الأحمـر في الحديقـة، في البحَّـارة الطِّيِّبـين المرتَشِـحين بالجعَّـة عـلى رصيـف الميـنـاء، في رُفَقائِـه الملكيِّـين الواقفـين بجـواره. ربمـا كان الأمـر أنـه كان مُختـارًا كبطَـلٍ لِـكُلِّ تلـك الأشـياء الغَضَّـة والرحيمـة مـن أجـل مُقارَعَـةِ السُّـيوف مـع عَـدوٍّ كُلِّ الخَلـق. "أيًّـا كان الأمـر"، قـال لنفسـه، "أنـا أكـثر مـن مجـرَّد شـيطان، أنـا إنسـان. بإمـكاني فِعـلُ أمـرٍ واحـد يَعجَـزُ عنـه إبليـس نفسـه- بمقـدوري أن أمـوت"، ومـع اخـتراق السـيف لرأسـه، تناهـى إلى سـمعه نَعيـبٌ خافِـتٌ ونـاءٍ، سيتحوَّل سريعًـا إلى قَعقَعَـةِ قطـار باريس.

انخـرط في القتـال ثانيـةً برعونَـةٍ خارِقَـة، كواحِـدٍ مـن المحمَّديِّـين يلهـث طَمَعًـا في الفِردَوسِ. ومـع اقـتراب القطـار أكـثر وأكـثر تخيَّـل أنـه يرى أُناسًـا يُشـيِّدون أقـواسَ الزُّهـور في باريـس؛ ثـم انضـمَّ إليهـم وسـط الضجيـج المتنامـي ومجـد الجمهوريـة العظيمـة التـي كان يحمـي بوَّابتها ضـدَّ هجوم الجحيـم. تصَّاعَـدَت أفـكارُه أعـلى وأعـلى مـع ارتفـاع صَخَـبِ القطـار الـذي انتهـى، كـما لـو كان بفَخـرٍ، بصفـيرٍ طويـل وحـادٍّ. لقـد توقَّـفَ القطـار.

بغتـةً ولِدَهشَـةِ الجميـع تراجـع الماركيـز قافِـزًا بعيـدًا عـن مُتنـاوَلِ السَّـيفِ، وطـرح سـيفه أرضًـا. كانـت قَفزَتُـه مُذهِلَـةً، بعيـدًا عـن حقيقـة أن سـايم كان قـد غمـس سـيفه قبـل وَهلَـةٍ في فَخِـذِ الرَّجـل.

"توقَّـفْ!"، قـال الماركيـز بصـوتٍ يفـرض انصياعًـا لحظيًّـا. "أرغـب في قَـوْلِ شيء".

"ما الأمر؟"، سأله الكولونيل دوكروا، مُحَدِّقًا. "هل حدث خطأٌ في النزال؟".

"هناك خطأ في مكانٍ ما"، قال دكتور بولْ، الذي كان شاحِبًا قليلًا. "لقد جرح مقاتلنا الماركيز أربع مرَّاتٍ على الأقل، ولم يُصَب هو بأيِّ أذًى".

رفع الماركيز يده عاليًا تحيط به هالَةٌ عجيبة من الصَّبر الشَّبحيِّ.

"رجاءً دعوني أتحدَّث"، قال لهم." إنها مسألة هامَّة، سيد سايم"، تابَعَ قوله، مستديرًا إلى خصمه، "نحن نتقاتَلُ اليوم، إذا أسعفتني ذاكرتي؛ لأنَّكَ أبدَيتَ أمنية (أراها غير عقلانيَّة) في أن تَشدَّ أنفي. هل تفضَّلتَ وشَدَدتَ أنفي الآن بأسرع ما يمكن؟ عليَّ اللحاق بالقطار".

"أعترض بأن هذا أمرٌ مُخالِفٌ إلى أقصى حد"، قال دكتور بولْ بسخط.

"إنَّه بالتأكيد مُتضارِبٌ بشكل ما مع سابِقَةٍ"، قال الكولونيل دوكروا، مُتطلِّعًا بحُزنٍ إلى محارِبِه. "توجد، على ما أعتقد، حالةٌ في السِّجلَّات (كابتن بيلجراد والبارون زومبت) تمَّ فيها تغيير الأسلحة في منتصف المواجهة بناءً على طلب أحد المحارِبَيْن. لكن بالكاد يمكننا اعتبار الأنف كسلاح".

"هل ستقوم بشدِّ أنفي أم لا؟"، قال الماركيز بغَضَبٍ. "اقتَرِبْ، سيد سايم! كنتَ ترغب في القيام بذلك، فقُم به! لا تتصوَّر مدى أهمية ذلك بالنسبة لي. لا تَكُن أنانيًّا بهذا الشكل! اجذِبْ أنفي في الحال، عندما أطلب منكَ"، وانحنى قليلًا إلى الأمام بابتسامَةٍ ساحرة. كان قطار باريس، لاهثًا ومتأوِّهًا، قد زحف داخلًا إلى محطَّةٍ صغيرة وراء التل المجاور.

راود سايم شعورٌ بأنه مرَّ بهذه المغامرات من قبل: الشعور بأن مَوجَةً مُريعةً ومُتسامِيَةً قد ارتفعت إلى السماء ثم غَدَت على وشك الانقلاب فجأة. سائِرًا في عالَمٍ يفهمه بعضَ الشيء، اتَّخذ خطوتين إلى الأمام وقبض على الأنف الرومانيِّ لهذا النبيل الاستثنائي. شدَّه بقوة، ثم انخلع في يده.

وقفَ لبضع ثوانٍ بوَقارٍ أحمَقَ، بمُقدِّمَة الأنف الكرتونيَّة بين أصابعه، مُتطلِّعًا إليها، بينما الشمس والسُّحُب وتلال الأشجار تنظر من عَلٍ إلى مشهد الحماقة هذا.

كسر الماركيز الصَّمتَ بصوتٍ صادِحٍ ومُتهلِّل.

"إذا رغب أحدكم في الاستفادة من حاجِبي الأيسر"، قال لهم، "فليأخذه. كولونيل دوكروا، فلتَقبَلْ حاجبي الأيسر! إنه من الأشياء التي قد تُفيدُكَ في أي يومٍ"، ثم بوقار انتزع واحدًا من حاجِبَيْه الآشوريَّيْن الدَّاكِنَيْن، مُمزِّقًا نِصفَ جبينه الأسمر تقريبًا معه، وبتأدُّبٍ قَدَّمه إلى الكولونيل، الذي وقف مُحمَرًّ ومبهوتًا من الغضب.

"لو كنتُ أعرف"، قال مُتَلعثِمًا، "أنني أنوب عن رِعديدٍ يحشو نفسه من أجل القتال...".

"أوه، أعرف، أعرف!"، قال الماركيز، مُلقيًا باستهتارٍ بأجزاء متنوِّعة من نفسه يمينًا وشمالًا في أرجاء الميدان. "أنت مُخطئ؛ لكن لا يمكن تفسير الأمرِ الآن. أقول لك إن القطار قد وصل إلى المحطَّة!".

"نعم"، قال دكتور بولْ باهتياجٍ، "وسيخرج القطار من المحطَّة. سيخرج بدونِكَ. نعرف جيدًا ما يقدر عليه الشيطان...".

رفعَ الماركيز الغامض يديه بإيماءَةٍ يائسة. كان كفزَّاعة عجيبة تقف هناك في الشمس بنصف وجهها وقد تقشَّر، ونِصفُه الآخر يتوهَّج ويَئِنُّ من الأسفل.

"هل ستصيبونني بالجنون؟"، صاح قائلًا. "فالقطار...".

"لن تَصِلَ إلى القطار"، قال سايم بحَسمٍ، وقبض على سيفه.

استدار الشَّكلُ البشريُّ المتوحش نحو سايم، وبدا أنه يستجمع شتاتَ نفسِه من أجل بَذلِ جَهدٍ مَهيبٍ قبل أن يتحدث.

"أنتَ أيُّها البدين الهائل، المزعج، ذو عين الذُّبُّ، المتخبِّط، الصاخب، عديم العقل، مَن نبذه الرَّبُّ، الخَرِف، الأحمق اللعين!"، قال ذلك بدون التقاط نَفَسٍ واحد. "أنت أيُّها المغفَّل، ذو الوجه الوردي، يا نبتةَ اللِّفتِ ذات الشَّعر الفاتح! أنت أيُّها...".

"لن تصل إلى هذا القطار"، كرَّر سايم.

"ولماذا بِحَقِّ الجحيم"، زمجر الآخر، "قد أرغب في الوصول إلى القطار؟".

"نعرف جميعنا"، قال البروفسور بصرامَةٍ. "ستذهب إلى باريس لإلقاء قنبلة!".

"وكأني سأذهب إلى أريحا لألقي بجابروك!"[1]، صاح الآخر، مُمزِّقًا شَعرَه، الذي تساقَطَ بسهولة.

"هل فقدتم عقولكم جميعًا، حتى لا تدركوا مَن أنا؟ هل تعتقدون حَقًّا أنني أرغب في اللحاق بذلك القطار؟ عشرين قطارًا إلى باريس قد يَمرُّ أمامي بدون أن ألحق به. اللعنة على القطارات المتَّجِهَة إلى باريس!".

"إذن لماذا أنتَ مُهتَمٌّ بالأمر؟"، بدأ البروفسور قائِلًا.

(1) Jabberwock: شخصيَّة خَياليَّة، وحش هائج، في قصيدة الهُراء Jabberwocky التي ظهَرَت في رواية "أليس في المرآة" (1871) للويس كارول- (المترجم)

"لماذا أهتمُّ بالأمر؟ لا يشغلني إطلاقًا اللحاق بالقطار؛ لا يُقلِقني سوى أن يَلحَقَ بي القطار، والآن، يا إلهي!، لقد لَحِقَ بي".

"يُؤسِفني إبلاغُكَ"، قال له سايم زاجِرًا، "أنَّ مُلاحظاتِكَ لا تخلق أيَّ انطباعٍ لديَّ. ربما إذا انتزعت بقايا جبينِكَ الأصليِّ وجُزءًا ممَّا كان ذقنك في السابق، سيصبح مَقصِدُكَ أكثر وضوحًا. الصَّفاء العقلي يُحقِّق نفسه بطُرُقٍ كثيرة. ماذا تعني بالقَول إنَّ القطار قد لحق بك؟ ربما يكون الأمر خيالًا أدبيًّا من جانبي، لكن بشكلٍ ما أشعر أنه يعني شيئًا ما".

"إنه يعني كلَّ شيء"، قال الآخر، "ونهاية كل شيء. لقد قادَنا الأحد الآن إلى فَجوَةِ يَدَيه العميقة".

"قادنا نحن!"، كرَّر البروفسور، كما لو كان مُخدَّرًا. "ماذا تقصد بقَولِكَ (نحن)؟".

"الشُّرطَةُ بالطَّبع!"، قال الماركيز، وانتزع فروةَ رأسه ونِصفَ وَجهِه.

كان الرأس الذي برز أشقرَ، مُمشَّطًا بعناية، رأسٌ ذا شَعرٍ ناعم شائع في أوساط الكونتسابلات الإنجليز، لكن الوجه كان شاحبًا للغاية.

"أنا المفتِّش راتكليف"، قال، بشكلٍ من أشكال العَجَلةِ التي أوشَكَت على أن تتحوَّل إلى خشونة.

"اسمي معروفٌ جيِّدًا في الشرطة، وبإمكاني أن أرى بالطبع أنكم تابِعون لها. لكن إذا راوَدَكم أيُّ شَكٍّ بشأن موقفي، فها هي بطاقتي"، وبدأ في سَحبِ بطاقةٍ زرقاء من جيب معطفه.

أبدى البروفسور إيماءَةً مُجهَدَةً.

"أوه، لا تُرِنا إيَّاها"، قال بإرهاق؛ "لدينا ما يكفي من البطاقات لملءِ مِضمار سباقٍ كامِلٍ".

انتابت الرَّجلَ الضَّئيلَ الذي يُدعَى بولْ، كغيره من الرجال ذَوي السُّوقيّة والابتذال، حركاتٌ مُفاجِئَة من الذَّوق الراقي. هنا بالتأكيد نَجَحَ في إنقاذ الموقف. ففي وسط هذا المشهد التحوُّلي المذهل خَطَا للأمام بكلِّ وَقاره ومسؤوليَّته كمساعدٍ في المبارزة، وخاطَبَ مُساعِدَيْ الماركيز.

"يا سادة"، قال لهما، "ندين لكما باعتذارٍ قَويٍّ؛ لكنني أؤكِّد لكما أنكما لستما ضحيةً لمزحةٍ رديئة كما تتخيَّلان، أو لأي شيء، في الحقيقة، يُخجل الرجال ذوي الشرف. لم تضيِّعا وقتكما؛ فقد ساعدتما على إنقاذ العالم. لسنا مهرِّجين، بل رجال تُعساء جدًّا في حربٍ مع مؤامرة واسِعَةٍ. جمعية سِرِّيَّة من الفوضويِّين تحاول اصطيادنا كالأرانب؛ وهم ليسوا مجرَّدَ مجانين أشقياء يلقون بالقنابل هنا وهناك بسبب الجوع أو الفلسفة الألمانية، لكن كنيسة ثَرِيَّة وقوية ومُتعصِّبة، كنيسة التشاؤمية الشَّرقيَّة، تضع هدفًا مُقدَّسًا لها تدمير البشرية كالأفعى. يمكنكم إدراك مدى اهتياجهم لاصطيادنا عبر حقيقة اضطرارنا إلى التنكُّر بهذا الشكل، تمامًا كما تنكَّرَ ذلك مَن أُقدِّم له اعتذاري، وإلى تَحَمُّل مقالب كهذا المقلب التي مَرَرتُما به".

انحنى المعاونُ الأصغر سِنًّا للماركيز، رَجلٌ قصير بشارب أسود، بتأدُّبٍ وقال:

"بالطبع، أقبل اعتذارك؛ لكن عليك بدورك أن تُسامِحني إن رفضتُ المضيَّ معكم في مهامِّكم الشَّاقَّة القادمة، واسمح لي أن أقول صباح الخير! فمشهد صديقٍ مُتَحضِّرٍ ومُوَقَّر، نعرفه جيِّدًا، يتحوَّل إلى شظايا في الهواء الطَّلق هو أمرٌ غير معتاد، وفي المجمَلِ، يكفي يومٌ واحد من المفاجآت. كولونيل دوكروا، لا أُحِبُّ بأيِّ شَكلٍ أن أؤثِّر على أفعالك، إذا شارَكتني شعوري بأن الصُّحبة الحاضرة غير طبيعيَّةٍ قليلًا، فأنا عائِدٌ الآن إلى المدينة".

تحـرَّك الكولونيـل دوكـروا بشـكلٍ آليٍّ، ثـم شـدَّ فجـأةً شـارِبَه الأبيـض وانطلـق قائـلًا:

"لا، بحَـقِّ القديـس چورچ! لـن أصحَبَـكَ. إذا كان هـؤلاء السـادة في ورطـةٍ حقيقيـة مـع حفنـة المخرِّبـين هـؤلاء، فسـأقف إلى جانبهـم. لقـد حاربـتُ مـن أجـل فرنسـا، ومـن الصعـب ألَّا أتمكَّـن مـن القتـال مـن أجـل الحضـارة".

انتـزع دكتـور بـولْ قُبَّعَتـه ولـوَّح بهـا، مبتهجًـا كـما لـو أنـه في حشـد عـام.

"لا تُثِر ضجيجًا عاليًا"، قال المفتش راتكليف، "قد يَسمَعُكَ الأحَدُ".

"الأحد!" صاح بولْ، وأسقط قُبَّعَتَه.

"نعم"، أجابه راتكليف، "قد يكون معهم".

"مع مَن؟" سأله سايم.

"مع الرُّكَّاب الخارجين من ذلك القطار"، قال الآخَر.

"مـا تقولـه يبـدو جنونيًـا بالكامـل"، بـدأ سـايم في القـول. "لمـاذا، في واقـع الأمـر- لكـن، يـا إلهـي"، صـاح عاليًـا فجـأةً، كرجُـلٍ يـرى انفجـارًا عـلى البُعـد، "يـا إلهـي! إذا كان هـذه صحيحًـا فـإن كُلَّ الحاضريـن الملاعـين مِنَّـا في مجلـس الفوضويِّـين كانـوا ضِـدَّ الفوضويـة! كل رجُـلٍ مولـود كان مُحقِّقًـا سِرِّيًّـا باسـتثناء الرئيـس وسـكرتيره الشـخصيِّ. مـاذا يعنـي هـذا؟".

"يعنـي!" قـال الشُّرطـي الجديـد بعُنـفٍ لا يُصـدَّق. "يعنـي أننـا أصبحنـا أمواتًـا! ألا تعـرف الأحـد؟ ألا تعـرف أن مزحاتِـه دائمًـا مـا تكـون بسـيطةً لدرجـة أنهـا لا تَخطُـر عـلى البـال؟ هـل يمكنكـم تَخيُّـل أي شيء يُعبِّر عـن الأحـد أكـبر مـن هـذا، أن يضـع كلَّ أعدائـه الأقويـاء في المجلـس الأعـلى، ثـم يتأكَّـد أنـه لم يكـن أعـلى؟ أقـول لكـم إنـه اشـترى كُلَّ صنـدوق ائتـمان، واسـتولى عـلى كلِّ تلغـراف، وسـيطر عـلى كل خَـطِّ سِـكَّةٍ حديديـة- خاصَّـةً

خـط السـكك الحديديـة ذلـك!"، وأشـار بأصابـع مرتعشـة إلى المحطّـة الصغيرة عـلى جانـب الطريـق. "الحركـة بأكملهـا تخضـع لسـيطرته؛ ونصف العـالم جاهـز للثّـورة مـن أجلِـه. لكـنَّ خمسـة أشـخاص فحسـب، ربمـا، وقفـوا صفًّـا واحـدًا لمقاومتـه، ثـم وضعهـم الشـيطان العجـوز في المجلـس الأعـلى، لإضاعـة وقتهـم في مراقبـة بعضهـم البعـض. وبمـا أننـا كنّـا حمقـى، فقـد خطّـط لكامـل حماقاتنـا! كان الأحـد يعـرف أن البروفسـور سـيُطارِدُ سـايم عـبر شـوارع لنـدن، وأن سـايم سـيقاتلني في فرنسـا. انشـغل هـو بتكديـس رؤوس أمـوال هائلـة، والاسـتيلاء عـلى خطـوط التلّغـراف الهائلـة، بينـما نحـن المعاتيـه الخمسـة كُنّـا نركـض وراء بعضنـا البعـض كحفنـة مـن الرُّضّـع المرتبكـين يلعبـون الاسـتغمّاية".

"حسنًا؟"، سأله سايم متماسكًا بعض الشيء.

"حسـنًا"، أجابـه الآخـر بهـدوءٍ مُفاجِـئٍ، "لقـد وجدَنـا نلعب الاسـتغماية في حقـلٍ ذي جَـمالٍ ريفـيٍّ هائـل وعُزلَـةٍ شـديدة. مـن المحتمـل أنـه نجـح بالفعـل في الاسـتيلاء عـلى العـالم؛ ولم يَبـقَ أمامـه سـوى الاسـتيلاء عـلى هـذا الحقـل وكل الحمقـى عليـه. وحيـث أنّكـم ترغبـون حقًّـا في معرفـة اعـتراضي عـلى وصـول ذلـك القطـار، سـأخبركم. اعـتراضي هـو أن الأحـد أو سـكرتيره قـد خـرج منـه لتـوِّه ".

أخـرج سـايم صيحـةً لا إراديـة، واسـتداروا جميعًـا بأعينهـم ناحيـة المحطّـة البعيـدة. بالفعـل، كانـت مجموعـة كبـيرة مـن الأشـخاص تتحـرّك في اتجاههـم. لكنهـا كانـت بعيـدة جـدًّا عـلى أن يتمكّنـوا مـن تمييزهـا بـأي شـكل.

"مـن عـادة المرحـوم الماركيـز دي سـانت إيوسـتاش"، قـال الشرطـي الجديـد، مسـتَخرِجًا حقيبـةً جلديّـة، "أن يحمـل دائمًـا نظّـارات أوبـرا. إمّـا الرئيـس أو السـكرتير قـادِمٌ الآن في إثرنـا مـع ذلـك الحشـد. لقـد أمسـكوا بنـا في مـكانٍ هـادئ لطيـف لـن تُلـحَّ علينـا فيـه أيُّ إغـواءات لحنـثِ يميننـا

وإبلاغ الشرطة. دكتور بول، أشكُّ أنك سترى على نحو أفضل بهذه النظارات من عُوَيناتِك الغارقة في الزُّخرَفَة تلك".

ناولَ النَّظَّارات الميدانية إلى الدكتور، الذي انتزع عُوَيناتِه على الفور ووضع الجهاز الجديد على عينيه.

"لا يمكن أن يكون الأمر بالسُّوء الذي تقوله"، قال البروفسور، مُرتَعِشًا بعض الشيء. "هناك عدد كبير منهم بالتأكيد، لكنهم قد يكونون مُجرَّد سُيَّاحٍ عاديِّين فحسب".

"هل يرتدي السُّيَّاحُ العادِيُّون"، سأله بول، بنظَّارَةِ الميدان على عينيه، "أقنِعَةً سوداء تُخفي نصف وجوههم؟".

انتزع سايم المنظار من يديه انتزاعًا، ونظر من خلاله. بدا معظم الرجال في الحشد المتقدِّم عاديِّين فعلًا؛ لكن كان من الحقيقي تمامًا أن اثنين أو ثلاثة من القادة في المقدِّمة يرتدون أقنِعَةً سوداء تصل إلى أفواههم. هذا التَّنكُّر مُكتَمِلٌ جدًّا، خاصَّةً من هذه المسافة، وجد سايم أنه من المستحيل استنتاجُ أي شيء من الذقون المحلوقة النظيفة للرجال الذي يتحدَّثون في المقدِّمة. لكن أثناء حديثهم ذلك ابتسموا جميعًا وابتسم أحدُهم في جانِبٍ واحِدٍ من وجهه.

الفصل الحادي عشر

المجرِمون يُطارِدون الشُّرطَةَ

أزاحَ سايم المنظارَ من عَينَيْه بارتياحٍ يغلب عليه الخوفُ.

"الرئيس ليس معهم، على أيِّ حال"، قال لهم، ومسح على جبينه.

"لكنَّهم بالتأكيد بعيدون في الأفق"، قال الكولونيل الحائر، طارِفًا بعينيه بعد أن استردَّ أنفاسه بعض الشيء من التفسير المتعجِّل، لكن المتحضِّر، الذي كان دكتور بولْ قد قدَّمه.

"هل يُمكِنُكَ بأيِّ حال أن تتعرَّف على الرئيس بين كلِّ هؤلاء الناس؟".

"هل يمكنني أن أتعرَّف على فيل أبيض بين كل هؤلاء الناس!" أجابه سايم مهتاجًا بعض الشيء. "كما تقول حقًّا، فهم على مَبعَدَةٍ؛ لكن إذا كان يسير معهم... يا إلهي! أعتقد أن هذه الأرض ستهتزُّ".

بعـد توقُّـفٍ لبُرهَـةٍ قـال الرجـل الجديـد المدعـو راتكليـف بصرامـة حزينـة:

"بالطَّبـع الرئيـس ليـس معهـم. أتمنَّـى مـن بـرج الجَـوزاء أن يكـون معهـم. الأكـثر احتـمالًا هـو أن الرئيـس يمـضي عـلى خَيلِـه بانتصـارٍ عـبر شـوارع باريـس، أو يجلـس عـلى أنقـاض كاتدرائيـة سـانت بـول".

"هـذا عبـث!" قـال سـايم. "ربمـا قـد وقـعَ أمـرٌ مـا في غيابنـا؛ لكـن لا يمكنـه أن ينجـح في كل هـذا بهـذه السرعـة. مـن الحقيقـي تمامًـا رغـم ذلـك"، أضـاف، مقطِّبًـا بتشـكُّكٍ ناظِـرًا إلى الحقـول البعيـدة التـي تـؤدِّي إلى المحطَّـة الصغـيرة، "مـن الحقيقـي بالتأكيـد أن تَجمُّعًـا مـن النـاس في طريقـه إلينـا؛ لكنهـم لا يُمثِّلـون كامـل الجيـش الـذي ننتظـره".

"أوه، بـل هـم كذلـك"، قـال المحقِّـق السِّرِّيُّ الجديـد باحتقـار، "وعـلى أي حـال فهـم ليسـوا قـوَّةً كبـيرة. لكـن دعنـي أُخـبرك بصراحـة أنهـم ذو قـوَّةٍ كبـيرة بالمقارنـة بنـا- نحـن لسـنا كُـثرًا يـا بنـي في كـون الأحـد. لقـد اسـتولى عـلى كُلِّ خطـوط التلغـراف لنفسـه. لكـن أن تقتـل المجلـس الأعـلى فهـي مسـألة تافِهَـة بالنسـبة لـه، كبطاقَـةٍ بريديَّـة؛ قـد يتركهـا لسـكرتيره الخـاص"، ثـم بصـق عـلى العشـب.

ثم استدار إلى الآخرين وقال بحَزمٍ:

"يوجـد الكثـير لِيُقـالَ عـن المـوت؛ لكـن إذا كان أحدكـم يرغـب في البديـل الآخـر، فأنصحكـم بشـدَّة أن تمضـوا في إثـري".

بهـذه الكلـمات، أدارَ ظهـره العريـض وخطـا بنشـاطٍ صامِـتٍ نحـو الغابـة. تلفَّـت الآخـرون مـن فـوق أكتافهـم، ورأوا أن السـحابة المظلِمَـة للرجـال قـد انفصلـت عـن المحطَّـة وبـدأت في تَحرُّكهـا بنظـام عجيـبٍ نحـو السـهل. ورأوا كذلـك، بأعيُنِهـم المجـرَّدة فحسـب، اللطـخ السـوداء عـلى الوجـوه في المقدِّمـة، التـي كانـت تَـدُلُّ عـلى الأقنعـة التـي ترتديهـا.

استداروا وتبعوا قائدهم، الذي كان قد وصل بالفعل إلى الغابة، واختفوا بين الأشجار المتلألئة.

كان ضوء الشمس على العشب جافًا وحارًّا؛ لذلك باختراقهم الغابة اصطدموا بظلالٍ باردة، وكأنهم غوّاصون يغطسون في بِركةٍ مُعتِمة. كان داخل الغابة مكتظًا بأشعّةِ شمسٍ مُتكسِّرة وظلال مهتزّة. كانت تخلق ما يشبه حجابًا مرتجفًا، يستدعي إلى الذهن تَرنُّحَ آلةِ عرضٍ سينمائيّة. حتى الأشكال البشرية المصمَتة السائرة مع سايم كان بإمكانها بالكاد رؤية ما أمامها بسبب تداخُل شعاع الشمس والظلال الراقصة أمامهم. حينًا، كان رأس الرجل منهم يضاء بضوء لوحات رامبرانت، طامِسًا كل ما عداه؛ وحينًا آخر ينقلب الوضع ويتمتّع بيَدَيْن بيضاوَيْن واضِحَتَيْن ووجهٍ زِنجيٍّ. كان الماركيز السابق قد سحب قُبّعَة القَشّ القديمة على عينيه، والظل الأسود لحافّتها قد قطع وجهَه إلى نِصفَيْن متساوِيَيْن حتى بدا وكأنه يرتدي واحدًا من الأقنعة السوداء النصفية لملاحِقيهم. وأصبح شعورُ سايم الكاسح بالاندهاش غارقًا في الخيالات. هل كان يرتدي قناعًا؟ هل كان أيٌّ منهم يرتدي قناعًا؟ هل كان أيٌّ منهم أي شيء؟ غابة السِّحر هذه، التي تتحوّل فيها وجوه الرجال إلى الأسود والأبيض بالتناوُب، التي تنتفخ فيها أشكالهم البشرية تحت شعاع الشمس ثم تتلاشى في الظلام عديمِ الشَّكل، هذه الفوضى المطلَقَة من الجلاء والقتامة (بعد ضوء النهار الصافي في الخارج)، بَدَت لسايم تجسيدًا مثاليًا للعالم الذي كان يتحرك فيه لثلاثة أيام، هذا العالم حيث ينزع الرجال لِحاهم وعُوَيناتِهم وأنوفَهم، ويتحوّلون إلى أُناسٍ آخرين. تلك الثقة المأساوية في الذات التي شعر بها عندما صدَّق أن الماركيز كان شيطانًا كانت قد اختفت على نحوٍ غريب الآن وقد أدرك أن الماركيز كان صديقًا. شعرَ بتَوْقٍ لأن يسأل بعد كلِّ هذه الاندهاشات عن معنى الصديق وماهيّة العدو. هل كان هناك أي شيء مختفيًا وراء ما تَبدَّى؟ كان الماركيز قد انتزع أنفَه وتحوّل إلى مُحقّقٍ

سِرِّيٍّ. ألم يكن بإمكانه ربما نَزْعُ رأسه والتَّحوُّل إلى غُول؟ ألم يكن كل شيء، في نهاية المطاف، كأرضِ عَجائِبَ مُذهِلَةٍ، كرقصة النُّور والظلام هذه؟ كل شيء كان نظرةً خاطفة، والنظرة الخاطفة دائمًا ما تأتي على غير انتظار، ودائمًا ما تُنسَى. فجابرييل سايم قد وجد في قلب تلك الغابة الغارقة في رذاذ الشمس ما وجده الكثير من الرسَّامين الحداثيِّين هناك. وجد الشيء الذي يُسمِّيه الحداثيُّون بالانطباعيَّة، وهو اسمٌ آخر لتلك التَّشَكُّكيَّة النهائية التي تَعجَزُ عن إيجاد أيِّ أرضيَّةٍ للكون.

تمامًا كما يتلوَّى رجلٌ في حُلمٍ شيطانيٍّ في صُراخه واستيقاظه، ناضَلَ سايم بجَهدٍ مفاجئ حتى يطرح عنه هذا الخيال الأخير والأكثر بشاعة. بخطوتَيْن نافِدَتَي الصبر تجاوز الرَّجُلُ في قُبَّعة القش التي يرتديها الماركيز، الرجل الذي أصبح يخاطبه باسم راتكليف. بصوتٍ مُبتَهِجٍ وصاخِبٍ بشكلٍ مُباغِتٍ، حطَّم الصمت الذي لا قرارَ له، وخلق حديثًا.

"هل لي أن أسأل"، قال له، "إلى أين نحن ذاهبون؟".

كانت شكوك روحه أصيلةً وحقيقية، لحَدِّ أنه ابتهج غايةَ الابتهاجَ لسماع رفيقه يتحدَّث بصوتٍ بَشريٍّ خفيض.

"علينا أن نهبط عبر مدينة لانسي وصولًا إلى البحر"، قال له. "أعتقد أن ذلك الجزء من البلاد هو الأقلُّ احتمالًا أن يكون معهم".

"ماذا تعني بكلِّ هذا؟"، صاح سايم. "لا يمكنهم إدارة العالم الحقيقي بتلك الطريقة. بالتأكيد ليس كل الرجال العاملين فوضويِّين، وحتى وإن كانوا كذلك، فلا يمكن لمجرد غوغاء أن تهزم الشرطة والجيوش الحديثة".

"مجرَّد غوغاء!"، كرَّر صديقه الجديد بنَخرَةِ استهزاء. "إذن فأنت تتحدَّث عن الطغام والطبقات العاملة كما لو كانوا هم المسألة. قد يكون الأمر كذلك، بفِكرَتِكَ البلهاء الأبدية، إذا كانت الفوضوية تنبع

مـن الفقـراء. لمـاذا ينبغـي أن تكـون ذلـك؟ كان الفقـراء ثـوّارًا بالفعـل، لكـن أبـدًا لم يكونـوا فوضويّـين؛ فهـم يسـتفيدون أكـثر مـن أي شـخص آخـر مـن وجـود حكومـةٍ مُناسِـبَةٍ مـا. الفقـير يتمتّـع بمصلحـة حقًّـا في البلـد. بينـما الرجـل الـثري ليـس كذلـك؛ يمكنـه المضيُّ بعيـدًا إلى غينيـا الجديـدة في يَخْـتٍ. أحيانًـا مـا يعـارض الفقـراء مسـألة أن يخضعـوا للحُكـم عـلى نحـو سـيِّئ؛ بينـما الأثريـاء يعارضـون مسـألة خضوعهـم للحُكـم عـلى الإطـلاق. دائمًـا مـا كان الأرسـتقراطيُّون فوضويّـين، كـما تـرى في حـروب البارونـات".

"كمحـاضرة في التاريـخ الإنجليـزي للرجـال الضئيلـين"، قـال سـايم، "هـذا كلـه حَسَـنٌ جِـدًّا؛ لكننـي لا أفهـم بعـد مـا يعنيـه".

"مـا يعنيـه"، قـال مُحدِّثُـه، "هـو أن معظـم الرجـال، الذيـن يُمثِّلـون الـذراع اليمنـى للأحـد العجـوز، هـم مليونـيرات مـن جنـوب أفريقيـا وأمريـكا. وهـذا سـبب اسـتحواذه عـلى كل الاتصـالات، وهـذا سـببٌ أن آخـر أربعـة أبطـال مـن قـوة الشرطـة لمكافحـة الفوضويّـة يركضـون عـبر الغابـات كالأرانـب".

"المليونـيرات، هـذا أمـرٌ يُمكننـي فَهمُـه"، قـال سـايم متأمِّـلًا، "كلهـم مجانـين تقريبًـا. لكـن الإمسـاك بحفنـة مـن الجنتلمانـات العجائـز الأشرار ذوي الهوايـات شيءٌ، والاسـتيلاء عـلى الأُمَـمِ المسـيحية العظيمـة شيءٌ آخـر. أُراهِـنُ بنـزع أنفـي عـن وجهـي (اعـذُرني عـلى التلميـح) بـأن الأحـد سـيقف عاجـزًا بالكامـل أمـام مَهمَّـةِ تحويـل أي شـخص عـادي يتمتّـع بالصِّحَّـة في أيِّ مـكان".

"حسـنًا"، قـال الآخـر، "هـذا يعتمـد بعـضَ الـشيء عـلى نـوع الشـخص الـذي تقصـده".

"حسـنًا، عـلى سـبيل المثـال"، قـال سـايم، "لا يمكنـه أبـدًا تحويـل ذلـك الشـخص"، وأشـار مبـاشرةً أمامـه.

كانوا قد وصلوا إلى مساحَةٍ مفتوحة غارقة في ضوء الشمس، بَدَت في نظر سايم كالعودة الأخيرة لإدراكه السليم؛ في وسط هذه الغابة كان الخَلاءُ بمثابة رَمزٍ قد يُعبِّر جيِّدًا عن الإدراك السليم بواقعيَّة مُريعَةٍ بعض الشيء. مُحترِقًا بالشمس ومُلوَّثًا بالعرق، ومُثقَلًا بالوقار الذي لا قرارَ له للمساعي الضرورية الصغيرة، كان فلَّاحٌ فرنسيٌّ مُتثاقِلٌ يقطع الأخشاب بفأس. عربته تقف على بُعد أمتار قليلة، ممتلئة إلى نصفها بجذوع الشجر؛ والحصان الذي يقتات على العشب كان -كَسَيِّده- شُجاعًا لكن ليس بائِسًا؛ بل كان -كَسيِّده أيضًا- مُنتَعِشًا لكن يشوبه بعض الحزن. كان الرجل نورمانديًا، أطول من الفرنسي العادي وهزيلًا جدًّا؛ وهيئته الدَّاكِنَة مُنتَصِبَة حاجِبَةً مُربَّعًا من ضوء الشمس، كتشبيهٍ رمزيٍّ للعمل والكَدِّ المرسوم على أرض من الذهب.

"يقول السيد سايم"، صاح راتكليف قائلًا للكولونيل الفرنسي، "إن هذا الرجل -على الأقل- أبدًا لن يكون فوضويًا".

"السيد سايم على صوابٍ بعض الشيء"، أجابه الكولونيل دوكروا، ضاحكًا، "فقط إن كان السبب أن لديه الكثير من الممتلكات للدفاع عنها. لكنني نسيتُ أنكم لستم مُعتادين في بلادكم على أن يكون الفلَّاحون أثرياء".

"يبدو فقيرًا"، قال دكتور بولْ متشكِّكًا.

"بالضَّبط"، قال الكولونيل؛ "ولهذا فهو ثريٌّ".

"لديَّ فكرة"، صاح دكتور بولْ قائلًا فجأة؛ "كم سيطلب مَثَلًا لأخذِنا في توصيلةٍ في عربته؟ هؤلاء المطارِدون يسيرون على أقدامهم، وبالتالي يمكننا أن نُخلِّفَهم وراءنا".

"أوه، امنَحْه ما يريد!"، قال سايم بحماس. "أحمل معي أكوامًا من المال".

"لـن يقبـل أبـدًا"، قـال لهـم الكولونيـل؛ "لـن يمنحَكُـم أيَّ احـترامٍ مـا لم تسـاوِمُوه".

"أوه، هذا إذًا فاصَلَ في السِّعر!" قال بولْ بنَفادِ صَبرٍ.

"إنـه يُفاصِـلُ لأنـه رجـلٌ حُـرٌّ"، قـال الآخـر. "لا تفهـم ذلـك؛ لـن يُـدرِكَ معنـى الكـرم. لا يقبـل البقشـيش بالأحـرى".

وحتَّـى أثنـاء سَـماعِهم لوقـع الأقـدام الثقيلـة لمُلاحِقيهـم وراءهـم، اضطـرُّوا للوقـوف والثَّبـات في أماكنهـم حتـى يتحـدَّث الكولونيـل الفرنـسي إلى قاطـع الأخشـاب الفرنـسي بـكل المـزاح والمشاكسـة التـي تليـق بسـوقٍ شَـعبيٍّ بـلا أيِّ اسـتعجال. في نهايـة الدقائـق الأربعـة، رغـم ذلـك، اكتشـفوا أن الكولونيـل كان عـلى حَـقٍّ؛ فقـد انغمـس قاطـع الأخشـاب في خُطَطِهـم، ليـس بالعبوديَّـة الغامضـة لعامِـلٍ دُفِـعَ لـه بسـخاء، لكـن بجدِّيَّـة مُحـامٍ يتلقَّـى أتعابـه الملائمـة. أخبرهـم أن أفضـل شيء أمامهـم هـو أن يتَّخـذوا طريقهـم إلى النُّـزُل الصغـير عـلى التـلال المطِلَّـة عـلى لانـسي، وفيـه حتـمًا سـيتعاطَف معهـم صاحـب النُّـزُل، وهـو جنـديٌّ عجـوز أصبـح تَقيًّـا في سـنواته الأخـيرة، إلى درجـة تَحَمُّـل مخاطِـرِ مُسـاعَدتِهم. بالتـالي، تكوَّمَـت الصُّحبَـة بأكملهـا عـلى أكـداسِ الخشـب، وانطلقـوا متأرجحـين عـلى العربـة البدائيـة نـزولًا إلى الجانـب الآخـر الأكـثر انحـدارًا مـن الغابـة. ورغـم أن المركبـة كانـت مُتداعِيَـةً ومتثاقلـة، إلا أنهـا مَضَـت بسرعـة معقولـة، وسريعًـا مـا راوَدَهـم الانطبـاعُ المبهِـجُ بأنهـم ابتعـدوا تمامًـا عـن مُطارِديهـم، أيًّـا مَـن كانـوا؛ ذلـك أنهـم لم ينجحـوا حتـى الآن في حَـلِّ لُغـزِ كيـف نجـح الفوضويُّـون في جمـع كُلِّ هـؤلاء الأتبـاع. كان يكفيهـم وجـودُ رَجُـلٍ واحـد؛ وقـد هربـوا فـورَ رؤيتهـم للابتسـامة المشـوَّهة للسـكرتير. كان سـايم يتلفَّـتُ مـن حـينٍ وآخـر إلى الجيـش في إثرِهـم.

مـع تَخفُّـف الغابـة مـن الأشـجار أوَّلًا ثـم انكماشـها مـع ابتعادهـم عنهـا ماضـين في طريقهـم، كان بإمكانـه أن يـرى المنحـدرات المشمِسَـة وراء

الغابـة وحولهـا؛ وعـبر هـذه المنحـدرات كان الحَشـدُ الأسـود المربَّـع مـا زال يتحـرَّك كخنفسـة هائلـة. عـبر ضـوء الشـمس القـوي جـدًّا وعينيـه القويَّتَـيْن جـدًّا، تِلِْسـكوبِيَّةِ القُـدرَة تقريبًـا، كان بإمـكان سـايم رؤيـة هـذه الكتلـة مـن الرجـال بوضـوحٍ تـام، بـل ورؤيتهـم كأشـكالٍ بشريَّـةٍ مُنفَصِلَـةٍ؛ لكنـه اندهـش تمامًـا مـن الطريقـة التـي يتحرّكـون بهـا كرَجُـلٍ واحـد. بَـدَوا وكأنَّهـم يرتـدون ملابِـسَ داكِنَـةً وقُبَّعـاتٍ بَسـيطةً، كأيِّ زحـامٍ عـاديٍّ يخـرج إلى الشـوارع؛ لكنـه لا ينتـشر ويتمـدَّد ويقتفـي أثـر خطـوطٍ عديـدة وصـولًا إلى نقطـة الهجـوم، كـما يفعـل أي طُغمَـة مـن الرِّعـاع. كانـوا يتحرّكـون بشـكلٍ مـن أشـكال التَّخشُّـب المريـع والشِّريـر، كجيـشٍ مـن الآلات الزَّاحِفَـة.

أشار سايم بهذا إلى راتكليف.

"نعـم"، أجابـه الشُّرطـيُّ، "هـذا مـا يُسـمَّى بالانضبـاط. هـذا هـو الأحـد. ربمـا يكـون عـلى بعـد خمسـمائة ميـل، لكـن الخـوف منـه مـزروعٌ فيهـم جميعًـا، كإصبـع الـرَّبِّ. نعـم، يسـيرون بانتظـام؛ ولـكَ أن تُراهِـنَ بحذائِـكَ الطويـل أنهـم يتحدَّثـون بانتظـام، وبـل ويفكِّـرون بانتظـامٍ. لكـن الأمـر الهـام لنـا هـو أن يختفـوا بانتظـام".

أومـأ سـايم. كان مـن الحقيقـي أن اللطخَـةَ السـوداء مـن الرجـال المطارِديـن كانـت تنكمـش أكـثرَ وأكـثر كلَّـما ضرب الفـلّاحُ حِصانَـه بشـدَّة.

انسـابَت صفحـةُ الأرض المشمِسَـة، رغـم اسـتوائها في المجمَـلِ، هابِطَـةً عـلى الجانـب البعيـد مـن الغابـة في أمـواج مـن التَّحـدُّر الشـديد نحـو البحـر، بطريقـةٍ لا تختلـف كثـيرًا عـن المنحـدرات السُّـفلَى لتـلال ساسـيكس الصغـيرة. الفَـرقُ الوحيـد أن الطريـق في ساسـيكس كان أحيانًـا مـا ينقطـع ويَـذوي كينبـوعٍ صغـير، لكـن هنـا كان الطريـق الفرنـسيُّ الأبيـض يمتـدُّ أمامهـم مُنطَلِقًـا كشـلَّال ميـاه. عـلى هـذا الانحـدار المبـاشر كانـت العربـة تُقَعقِـعُ بزاويـةٍ كبـيرة، وفي غضـون دقائـق، مـع ازديـاد الطريـق انحـدارًا،

رأوا أسـفلهم ميناء لانسي الصغير وقوسَ البَحرِ الأزرق الهائل. كانت سحابة أعدائهم المتَنقِّلَة قد اختفت بالكامِل من الأفُق.

اتَّخذ الحصانُ والعربة استدارةً حادَّةً حول أَجَمَةٍ من أشجار الدِّردار، وأوشَكَ أنفُ الحصان على ضرب وجه چنتلمان عجوز كان يجلس على المقاعد الطويلة خارج مقهى صغيرٍ اسمه "لو سولي دي أور" (شمس الذهب). غَمْغَمَ الفلَّاحُ باعتذارٍ، وهبط من مجلسه. نزل الآخرون أيضًا واحدًا بعد آخر، وتحدَّثوا إلى الچنتلمان العجوز بعباراتٍ مُتشظِّية من المجامَلات؛ ذلك أنه كان من الواضح تمامًا من طريقته الرِّحراحَة أنه مالِكُ الحانة الصَّغيرة.

كان أبيضَ الشَّعر، بوجهٍ تُفَّاحِيٍّ لصَبيٍّ صغير، وعينين ناعِسَتَيْن وشارِبٍ رَماديٍّ؛ بدين، متبطِّل، وبريء جدًّا، من النوع الذي يمكن العُثورُ عليه في فرنسا، لكنه مع ذلك أكثرُ شيوعًا في ألمانيا الكاثوليكيَّة. كل شيء بشأنه: غليونه، الإناء الذي يحتسي فيه البيرة، أزهاره، وقَفيرُ النَّحل بجواره- كان يوحي بسلامٍ مُتوارَثٍ؛ فقط عندما تطلَّع الزائرون إلى أعلى أثناء دخولهم لرَدهَةِ النُّزُل، رأوا السيف مُعلَّقًا على الحائط.

انطلق الكولونيل، بعد أن حيًّا صاحب النُّزل كصديق قديم، مُسرِعًا إلى رَدهَةِ النُّزُل، وجلس بعد أن طلب بعض المرطِّبات الطُّقوسيَّة. أثار الحَسمُ العسكري لأفعاله اهتمامَ سايم، الذي جلس إلى جواره وانتهز الفرصة بعدما انطلق صاحب النُّزُل العجوز من أجل إرضاء فضوله.

"هل لي أن أسألَكَ، يا كولونيل"، قال بصوتٍ خفيض، "لماذا جِئنا إلى هنا؟".

ابتسم الكولونيل دوكروا من وراء شاربه الأبيض المتوهِّج.

"لسَبَبيْن، يا سيدي"، قال له؛ "وسأُخبِرُك بالأوَّل، ليس لأنه أكثر أهميَّةً، لكن لأنه أكثر نَفعًا. جئنا إلى هنا لأن هذا هو المكان الوحيد على مدى عشرين ميلًا الذي يُمكِننا الحصولُ منه على أحصِنَة".

"أحصنة!"، كرَّر سايم، رافعًا بصره إليه.

"نعم"، أجاب الآخر؛ "إذا شئتم أن تبتعدوا حقًّا عن أعدائكم فهي الأحصنة ولا شيء آخر، بالطبع ما لم يكن لديكم درّاجات وسيارات في جيوبكم".

"وإلى أين تنصحنا بأن نَتَّجِهَ؟"، سأله سايم متشكِّكًا.

"بلا أدنى شَكٍّ"، أجابه الكولونيل، "من الأفضل لنا أن نُسرِعَ إلى مخفر الشرطة وراء المدينة. يبدو لي أن صديقي، الذي كنتُ معاونًا له في مُبارَزَةٍ وَقَعَت في ظلِّ ظروفٍ مُخادِعَة بعض الشيء، يبالِغُ كثيراً في إمكانيات ثورة شامِلَة؛ لكن حتى هو ليس بإمكانه أن يقول -على ما أعتقد- أننا لن نكون في مأمَنٍ مع رجال الدَّرَك".

أومأ سايم بجدِّيَّة؛ ثم قال بغتةً:

"والسبب الثاني للمجيء إلى هنا؟".

"سببي الثاني للمَجيء إلى هنا"، قال دوكروا بوقار، "لأنه من المناسب جدًّا أن نرى رَجُلًا صالحًا أو اثنين عندما يكون المرءُ على وشك الموتِ".

تطلَّع سايم لأعلى إلى الحائط، ورأى اللوحَةَ الدِّينيَّة الحزينة المرسومة على نحوٍ غير بارِعٍ. ثم قال:

"أنتَ على حَقٍّ"، ثم بعد ذلك على الفور، "هل اهتمَّ أيُّ شَخصٍ بمسألة الأحصِنَة؟".

"نعم"، أجابه دوكروا، "لك أن تَطمَئِنَّ أنني أصدرتُ أوامري في اللحظة التي دلفتُ فيها إلى النُّزل. أعداؤك هؤلاء لم يُبدُوا أيَّ حِسٍّ بالاستعجال، لكنهم يتحرّكون بسرعة مُثيرَةٍ للإعجاب حقًّا، مثل جيش مدرَّبٍ جيِّدًا. لم أتخيَّل أبدًا أن يكون الفوضويُّون مُنضَبِطين بهذا الشكل. ليس أمامنا لحظة واحدة لإضاعتها".

في أثناء حديثه، جاء صاحِبُ النُّزل العجوز ذو العينين الزروقاوين والشعر الأبيض متهاديًا إلى القاعة، وأعلن أن الأحصنة السِّتَّة مُسْرَجَة في الخارج.

بحسب نصيحة دوكروا تزوَّد الخمسة الآخرون ببعض الطعام والنبيذ الذي يمكن حمله معهم، واحتفظوا بسيوف المنازَلَةِ؛ كونها الأسلحة الوحيدة المتوفِّرة، ومضوا بصخَبٍ نازلين عبر الطريق المتحدِّر الأبيض. خلَّفوا وراءهم الخادِمَيْن، اللَّذَيْن كانا يحملان حقائب الماركيز عندما كان ماركيزًا، حتى يحتَسِيَا الشراب في المقهى بعد موافقة الخمسة بالإجماع، وليس على الإطلاق ضدَّ رغبتهما.

عند هذه اللحظة، أصبحت شمس الظهيرة مائِلةً نحو الغرب، وبشُعاعها كان بإمكان سايم رؤية الشكل البشريِّ الصلب لصاحب النُّزُل العجوز ينكمش أكثر وأكثر، لكنه ما يزال واقفًا مُتطلِّعًا في إثرهم بصمتٍ. وضياءُ الشمس يتخلَّل شَعرَه الفضِّيَّ. أصاب سايم توهُّمٌ واضحٌ متطيِّرٌ، خلَّفته في عقله تلك العبارة التي نطق بها الكولونيل عَرَضًا، أن هذا الرجل ربما كان بالفعل هو آخِرُ الغُرباءِ الصالحين الذي يتوجَّب عليه رؤيته عند الموت.

كان ما زال يتطلَّع إلى هذا الشكل البشري المتلاشي، الذي كان يقف كلطَخةٍ رماديَّة يشوبها لهبٌ أبيض على خلفية من الجدار الأخضر العظيم للمُنحَدَرِ المستقِرِّ وراءه. وبينما هو يحملق في أعلى المنحدر وراء صاحب النُّزل، تراءى له جيش الرجال الزاحفين المتَّشِحين بالسَّواد. بَدَوْا وكأنهم مُعلَّقون فوق الرجل الصالح ومنزله كسحابةٍ سوداء من الجراد، وحينها بالضَّبط ارتَقَوْا جِيادَهم.



الفصل الثاني عشر

الأَرضُ في فَوضَى

حاثِّين جِيادَهم على العَدْوِ مُسرِعَةً، بلا أيِّ اعتبار للتَّحذُّر المثلَّم بعض الشيء للطريق، سرعان ما نجح الخيَّالةُ على استعادة تفوُّقهم على الرجال الزاحفين، وأخيرًا ظهرت أوَّلُ كتلة للأبنية في لانسي وحَجَبَت عنهم مُلاحقيهم. رغم ذلك، كانت المسيرة طويلة، وفي اللحظة التي وصلوا فيها إلى المدينة الحقيقية كان الغرب يشتعل بلَونِ ومِزاجِ الغروب. أشار الكولونيل إلى أنهم -قبل التَّوجُّه في النهاية إلى مخفَرِ الشُّرطَة- عليهم أن يبذلوا جهدًا، بصورة مُؤقَّتة، لإضافة شخصٍ آخر إليهم قد يكون مُفيدًا.

"أربعة من الرجال الخمسة الأثرياء في هذه المدينة"، قال لهم، "هم محتالون معروفون. أقترح أن هذه النسبة متساوية إلى حدٍّ كبير في باقي العالم. الخامس صديقٌ لي، وهو رجلٌ رائع جدًّا؛ والأكثر أهمِّيَّة بالنسبة لنا، أنه يملك سيَّارة".

"أخـشى"، قـال البروفسـور بطريقَتِـه المنتشـية، مُتَطلِّعًـا إلى الـوراء عـلى طـول الطريـق الأبيـض الـذي قـد تظهـر عليـه اللطخـة السـوداء، الزّاحِفَـة في أي لحظـة، "أننـا بالـكاد لدينـا أي وقـتٍ مـن أجـل زيـاراتِ مـا بعـد الظهـيرة هـذه".

"منزل دكتور رينار على بُعدِ ثلاثِ دقائِقَ فقط"، قال الكولونيل.

"الخطر الذي يتربَّص بنا"، قال دكتور بولْ، "لا يبعد دقيقَتَيْن".

"نعـم"، قـال سـايم، "إذا تابعنـا طريقنـا بسرعـة فـلا بُـدَّ أن نُخلِّفَهـم وراءنـا، فهـم مُترجِّلـون عـلى أقدامهـم".

"إنه يملك سيّارَةً"، قال الكولونيل.

"لكنّنا قد لا ننجح في الحصول عليها"، قال بولْ.

"نعم، لكنه في صَفِّنا تمامًا".

"لكنَّه قد يكون في الخارج".

"أَمسِكْ لسانَكَ"، قال سايم فجأة. "ما هذه الضوضاء؟".

لثانيـة تجمَّـدوا في أماكنهـم كتماثيـل الفرسـان، ولثانيـة -أو لثانيتـين أو ثـلاثٍ أو أربـعٍ- بَـدَت السَّـماءُ والأرض وقـد تجمَّدَتـا بدورهـما. حينهـا تناهـت إلى سـمعهم، في الْتِيـاعِ الانتبـاه، عـبر الطريـق، تلـك الرعشـة التـي لا توصَـفُ والخفقـات التـي لا تعنـي سـوى شيء واحـد: أحصِنَـة!

تبـدَّى عـلى وجـه البروفسـور تَغَـيُّرٌ لحظـيٌّ، كـما لـو أنـه قـد ضُرِب بصاعِقَـةٍ ومـع ذلـك خلَّفتـه بـلا أذًى.

"لقـد لحقـوا بنـا"، قـال لهـم، بسـخرية عسـكريَّةٍ مُقتَضَبَـة. "اسـتعدُّوا لاسـتقبال الخَيّالَـة!".

"مـن أيـن تحصَّلـوا عـلى الأحصِنَـة؟"، سـأله سـايم، وهـو ينخـس جـواده تلقائيًّا.

كان الكولونيل صامتًا للحظات، ثم قال بصوت متوتِّر:

"كنتُ أتحدَّث بدِقَّةٍ شديدة عندما قلتُ إن "شمس الذهب" كانت المكان الوحيد الذي يمكننا التَّحصُّل منه على أحصِنَةٍ في نطاق عشرين ميلًا".

"لا!"، قال سايم بعنف، "لا أعتقد أنه يمكن أن يفعل ذلك. ليس بكل ذلك الشَّعر الأبيض".

"ربما فعل ذلك مضطرًّا"، قال الكولونيل برفق. "لا بُدَّ أنهم أقوى بمائِة مَرَّة؛ لهذا السبب سنذهب جميعًا إلى صديقنا رينار، الذي يملك سيَّارةً".

بهذه الكلمات طوَّح بجواده بعُنفٍ مُنعَطِفًا عند إحدى زوايا الشارع، وانطلق قُدُمًا بسرعة مُدويَّة، لحَدٍّ أن الآخرين، رغم خَبَبِهم بسرعَةٍ معقولة، وجدوا صعوبةً في اللحاق بالذيل المتطايِر لجواده.

كان دكتور رينار يقطن في منزلٍ مُريحٍ وعالٍ على قمَّة شارعٍ مُتحدِّر؛ لذلك عندما ترجَّل الخيَّالة من على جِيادهم عند بابه كان بإمكانهم رؤية الحافَّة الخضراء للتَّلِّ، والطريق الأبيض يمرُّ عَبرَها، وهم واقفون فوق كل أسقف المدينة. التقطوا أنفاسهم من جديد عندما رأوا أن الطريق أصبح خاليًا، ثم قرعوا جرس الباب.

كان دكتور رينار ذا لِحيَةٍ برَّاقةٍ، بُنِّيَّةِ الَّلونِ، مثالٌ جيِّد على تلك الطبقة المهنيَّة الصامتة، لكن المشغولة جدًّا التي طالما نجَحَت فرنسا في الحفاظ عليها مقارنةً بإنجلترا. عندما أُثيرَت المسألة أمامه أبدى استهانته المطلَقَة بفَزَع الماركيز السابق؛ وقال له، بالتَّشكُّكيَّة الفرنسية الحادَّة، إنه لا يوجد أدنى احتمال بأن تنشِبَ ثَورةٌ فَوضويَّةٌ شاملة. "الفوضوية"، قال له، هازًّا كتفيه بلا مبالاة، "مُجرَّدُ أمرٍ طفوليٍّ!".

•

"والأمر هكذا"، صاح الكولونيل فجأةً، مشيرًا من فوق كتف الآخر، "فإن ما تراه أمرٌ طفوليٌّ أيضًا، أليس كذلك؟".

تطلَّعوا جميعًا من حولهم، وشاهدوا انعطافةَ الخَيَّالة السُّود تنزاح على قِمَّة التَّلِّ بكل طاقة أتيلا[1]. لكن رغم سرعة انطلاقهم، كانوا كتلةً تحافظ على التحامها، وكان بإمكان سايم ورفاقه رؤية الأقنعة السوداء للصَّفِّ الأول مُرَتَّبةً كصَفٍّ من الأردِيَة المتطابِقَة. لكن رغم أن المربَّع الرئيسي كان على نفس الشَّاكِلَة، رغم سيره على نحوٍ أسرع، لاحظوا الآن اختلافًا مثيرًا على منحدَرِ التَّلِّ، كما لو كان على خريطة مائِلَةٍ. كانت كتلة الخيَّالة في مجموعة واحدة؛ لكنَّ فارِسًا واحِدًا منهم انطلق بعيدًا متقدِّمًا على الصفوف، وبحركاتٍ مُهتاجَةٍ من رأسه وكَعبِه نَخَسَ جَوادَه أسرعَ وأسرعَ، حتى أصبح من الممكن أن يتخيَّل المرءُ أنه لم يَعُدْ مطارِدًا بل مطارَدًا. لكن حتى من تلك المسافة الكبيرة كان بإمكانهم رؤية شيء ما طائشًا لا يمكن التَّشكيك في هيئته البشرية، لحَدِّ أنهم تيقَّنوا أنه كان السكرتير نفسه. "يُؤسِفُني قَطعُ نِقاشِكُم المتحضِّر"، قال لهم الكولونيل، "لكن هل لك أن تُقرِضَني سيَّارَتَكَ الآن، في غضون دقيقتَيْن؟".

"أشكُّ كثيرًا بأنكم مجانين جميعًا"، قال لهم دكتور رينار، مبتسمًا بمودَّة؛ "لكن الجنون لا قدَّر الله لا ينبغي أن ينهي الصداقة. لنذهب إلى المرآب معًا".

كان دكتور رينار رجلًا لطيفًا ذا ثروة مهولة؛ كانت غُرَفُ منزله كمُتحَفِ دي كلوني للعصور الوسطى، يمتلك ثلاث سيارات. رغم ذلك، بدا أنه نادرًا جدًّا ما يستخدمها؛ كونه يتمتَّع بالذائقة البسيطة للطَّبقة المتوسِّطة الفرنسية، وعندما أقبل أصدقاؤه المتلهِّفون على

(1) أتيلا الهوني، كان آخِرَ حُكَّام الهون (Huns) وأقواهم، وأسَّس في إقليم روسيا وأوروبا إمبراطوريةً كبيرةَ الاتِّساع، عاصمتها في ما يُسمَّى هنجاريا اليوم- (المترجم)

فَحْصِها، استغرق الأمرُ منهم بعضَ الوقت لطمأنَةِ أنفسهم أنَّ واحدة منها يمكنها أن تعمل بالكاد، تلك التي نجحوا بصعوبةٍ نِسبيَّةٍ في جلبها إلى الشارع أمام منزل الدكتور. عندما خرجوا من المرآب المعتم جَفَلوا عندما اكتشفوا أن الشَّفَقَ قد حلَّ بالفعل بسرعة حلولَ الليل في الغابات الاستوائية. إمَّا أنهم ظلُّوا في المكان لأطول ممَّا يتخيَّلون، أو أن خيمةً استثنائية من السُّحُب قد تجمَّعَت فوق المدينة. تطلَّعوا إلى أسفل الشوارع المتحدِّرة، وبدا أنهم يرون ضبابًا رقيقًا يصَّعَّدُ من البحر.

"الآن أو لا للأبد"، قال لهم دكتور بولْ. "أسمع الجياد".

"لا"، صحَّح له البروفسور، "بل جواد واحد".

ومع إنصاتهم إليها، كان من الواضح أن الضوضاء، المقتربة بسرعة على أحجار الطريق المجَلجِلَة، لم تكُن ضوضاء موكِبِ الفرسان بأكمله، بل ضجيج ذلك الخيَّال الواحد، الذي خلَّف الموكب وراءه من بعيد- السكرتير المجنون.

ذات مرَّةٍ امتلَكَت عائلة سايم -كمعظم العائلات التي لم تَعُد تحيا حياةً بسيطة- مَركَبَةً بمُحرِّك، وبالتالي كان عليمًا بها. كان قد قفز على الفور إلى مقعد السائق، وبوَجهٍ مُحتَقِنٍ انخرط في ثَنيٍ وشَدٍّ الآلة التي طال إهمالُها. انحنى بكل قوَّته على المقبض، ثم قال بهدوءٍ تامٍّ:

"أخشى أنها لن تعمل".

أثناء حديثه، توقَّفَ رَجُلٌ فجأةً حول زاوية الشارع مُتخشِّبًا على جواده المندفع، باندفاع وتخشُّب السَّهم. على وجهه انطَلَقَت ابتسامةٌ أوشَكَت على خلخلة ذقنه. انطلق بمحاذاة السيَّارة الهامِدَة، التي تكدَّسَت فيها الصُّحبَة الحاضِرَة، ووضع يده على مُقدِّمَتها. كان السكرتير، وانبثق فمُه مستقيمًا تمامًا بمهابَةِ الانتصار.

كان سايم مُنحَنيًا بشدَّة على عجلة القيادة، والصَّمت مُهَيْمِنٌ بلا أيِّ صَوتٍ سوى قَعقَعَةِ الملاحِقين الآخرين السَّائرين نحو المدينة. ثم فجأةً صَدَحَت صرخةٌ من الحديد المحتَكّ في السيارة التي قفَزَت للأمام. انتزعت السيارة السكرتيرَ وأطارته من سَرجِه، كسكِّينٍ ينطلق من غَمدِه، وأسقطَته برَفسَةٍ مُريعة على بعد عشرين ياردة؛ وخلَّفَته هامِدًا تمامًا على الطريق بعيدًا أمام جواده المرتعب. مع انعطاف السيارة عبر زاوية الشارع بانحناءة بديعة، كان بإمكانهم رؤية الفوضويِّين الآخرين يملؤون الشارع ويُنهِضون قائِدَهم السَّاقِطَ.

"لا أفهم لماذا أظلمت فجأةً"، قال البروفسور أخيرًا بصوتٍ خفيضٍ.

"سيتحوَّل الظلام إلى عاصِفَةٍ على ما أعتقد"، قال دكتور بولْ. "من المؤسف أننا لا نملك مصباحًا في هذه السيارة، حتى نرى طريقنا على الأقل".

"بل لدينا"، قال الكولونيل، ومن أرضيَّة السيارة أخرج مِشكاةً ثَقيلَةً حديديَّة مُنحَنِيَة، من طرازٍ قديم، بمصباح داخِلَها. كان من الواضح أنها مِشكاةٌ أثريَّة، وليس من المستَبعَد أن استخدامها الأصلي كان شِبهَ دينيٍّ بشكل ما؛ ذلك أن على أحد جوانبها بَرَزَت آثارٌ خَشِنَةٌ لصليبٍ.

"من أين حصَلتَ عليها؟" سأله البروفسور.

"حصَلتُ عليها من حيث حصلت على السيارة"، قال الكولونيل، ضاحِكًا بخفوتٍ، "من أعزِّ أصدقائي. فبينما كان صديقنا هنا يناضل مع عجلة القيادة، هرعتُ صعودًا عبر الدَّرَج الأمامي للمنزل وتحدَّثتُ إلى رينار، الذي كان يقف في رواق منزله كما تذكَّر. "أعتقد"، قلتُ له، "أن لا وقتَ لدينا للحصول على مصباح". تطلَّع لأعلى، طارِفًا بمودَّة للسقف المنحني البديع لشُرفَتِه الأمامية. منه كانت تتدلَّى، بسلاسِلَ من الشُّباك الحديدية المذهِلَة، هذه المشكاة، كَنزٌ من مئات الكنوز في

منزلـه العامـر بالكنـوز. بقـوَّةٍ عموديَّـةٍ انتـزع المصبـاحَ مـن سـقف منزلـه، مُحطِّـمًا إلى شـظايا الألـواحَ المطلِيَّـةَ، وبعنفـه هـذا أسـقط مزهريَّتَـيْنِ زرقاويـن. ثـم ناولنـي المشـكاة الحديديـة، ووضعتهـا في السـيارة. ألم أكـن مُحِقًّـا في قـولي إن دكتـور رينـار إنسـان جديـر بالمعرفـة؟".

"نعـم، كنـتَ عـلى حـقٍّ"، قـال سـايم بجدِّيَّـة، ثـم قـام بتعليـق المشـكاة الثقيلـة عـلى المقدِّمـة. في موقفهـم هـذا بأكملـه تَبـدَّت صـورةٌ رَمزيَّـةٌ بعينهـا عـبر التناقُـض بـين الأتوموبيـل الحديـث ومصباحهـا الإكلـيركي العجيـب. انطلقـوا بعـد ذلـك عـبر الجـزء الأكـثر هـدوءًا مـن المدينـة، مُصادِفـين عـلى الأكـثر واحـدًا أو اثنـين مـن العابريـن، الذيـن لم تظهـر عليهـم أي إشـارة تـدلُّ عـلى مُسـالَمةٍ أو عَدائيَّـة المـكان. الآن، رغـم ذلـك، بـدأت النوافـذ عـلى المنـازل في الاسـتضاءة واحـدة بعـد الأخـرى، مانِحَـةً شـعورًا أكـبرَ بالاسـتقرار والإنسـانية. اسـتدار دكتـور بـولْ إلى المحقِّـق السري الجديـد الـذي كان يقـود المعركـة حتَّـى الآن، وأضفـى عـلى نفسـه واحِـدَةً مـن ابتسـاماته الـودودة والتلقائيَّـة.

"هذه الأنوار تَمنَحُ المرءَ مزيدًا من البهجة.

قطَّب المفتِّشْ راتكليف حاجِبَيْه معًا.

"لا توجـد سـوى مجموعـةٍ واحـدة مـن المصابيـح تمنحنـي البهجـة"، قـال لـه، "وهـي أنـوار مخفَـرِ الشُّرطـة الـذي يُمكِننـي أن أراه وراءَ المدينـة. أرجـو الـرَّبَّ أن نَصِـلَ إلى هنـاك في عـشر دقائـق".

ثـم انفَجَـرَت تفاؤلِيَّـةُ دكتـور بـولْ وذائِقَتُـه السـليم المتفجِّـرة مـن داخلـه.

"أوه، هـذا ليـس إلَّا هَذَيانًـا لا معنـى لـه!"، صـاح قائـلًا. "إذا كنـتَ تعتقـد حقًّـا أن الأنـاس العاديِّـين في المنـازل العادِيَّـة هـم فوضويُّـون بدورهـم، فـلا بُـدَّ أنـك أكـثر جنونًـا مـن الفوضويِّـين أنفسـهم. إذا اسـتدرنا وحاربنـا تلكـم الرجـال فـإن المدينـة كلهـا سـتنقلب وتحـارب في صفِّنـا".

"لا"، قـال الآخـرُ ببسـاطةٍ مُتصلِّبـة، "المدينـة بأكملهـا سـتحارب في صفِّهـم. سـنرى".

أثناء حديثهم كان البروفسور قد انحنى باستثارةٍ مُفاجِئة.

"ما هذا الضَّجيج؟" قال لهم.

"أوه، الجياد وراءنا ربما"، قال الكولونيل. "ظَنَنتُ أننا تَخلَّصنا منهم".

"الجيـاد وراءنـا! لا"، قـال البروفسـور، "إنهـا ليسـت الجيـاد، وليسـت وراءنـا".

في نفـس اللحظـة تقريبًـا التـي نطـق فيهـا بتلـك الكلـمات، ظهـر مـن خلفهـم عـبر نهايـة الشـارع شـكلان لامعـان مُقَعقِعـان واندفعـا بجوارِهـم. كانـت انطلاقتهـما كوَمضَـةٍ تقريبًـا، لكـنَّ الجميـع رأوا أنهـما كانـا سـيَّارَتَيْن، وحينهـا انتصـب البروفسـور ووجهُـهُ شـاحِبٌ وأقسـم أنهـما كانتـا السـيارتين الأُخرَيَـيْن في مـرآب دكتـور رينـار.

"أقـول لكـما إنهـما سـيَّارتاه"، كـرَّر قائـلًا، بعينـين هائجتـين، "وأنَّهـما مُكتَظَّتَـيْن برجـالٍ ذوي أقنعـة!".

"مسـتحيل!" قـال الكولونيـل بغَضَـبٍ. "ليـس لدكتـور رينـار أبـدًا أن يمنحهـم سـياراته".

"ربمـا أجـبروه عـلى ذلـك"، قـال راتكليـف بهـدوء. "المدينـة بأكملهـا في صَفِّهـم".

"ما زِلتَ تُصدِّق ذلك"، سأله الكولونيل بارتيابٍ.

"ستُصدِّقون جميعكم ذلك قريبًا"، قال الآخر بهدوءٍ يائِسٍ.

حلَّ بهم صمتٌ مُرتَبِكٌ لوَهلَةٍ، ثم بدأ الكولونيل في الحديث ثانيةً فجأةً:

"لا، لا يمكننـي تصديـق ذلـك. الأمـر كلُّـه هـراء. الشـعب البسـيط لبلـدة فرنسـية مسـالمة...".

انقطع حديثه بسبب هدير ووهج مفاجئ من النور، بدا قريبًا من عينيه. مع تقدُّم السيارة خلَّفَت وراءها بُقعَةً طافِيَةً من الدخان الأبيض، وكان سايم قد سمع صيحةً انطلقت بجواره.

"يا إلهي!"، قال الكولونيل، "أحدهم أطلق علينا النار".

"لا تجعل ذلك يقطع حديثك"، قال راتكليف المتجهِّم."اسْتَمِرَّ في ملاحظاتِكَ رجاءً يا كولونيل. كنتَ تتحدَّث، على ما أعتقد، عن الشعب البسيط لبلدةٍ فرنسيَّةٍ مُسالِمة".

لم يكن الكولونيل المحدِّق في حالة تسمح له بتمييز أي هجاء أو سخرية. أدار عينيه حول زوايا الشارع.

"مُذهِل"، قال لهم، "مُذهِلٌ بشكلٍ لا يُصدَّق".

"إن شخصًا مُرهَفَ الإحساس"، قال سايم، "قد يرى في ذلك شيئًا بغيضًا. إلَّا أنني أعتقد أن هذه الأضواء البعيدة في الحقل وراء هذا الشارع هي لرجال الدَّرَك. سنصل إليهم قريبًا".

"لا"، قال المفتِّش راتكليف، "لن نَصِلَ أبدًا إلى هناك".

كان أثناء قوله هذا مُنتَصِبًا يتطلَّع إلى ما أمامه بحماس. والآن جلس وأرخى شَعرَه الأَملَسَ بحركة يَملؤها الضَّجَر.

"ماذا تعني؟" سأله بولْ بحِدَّة.

"أعني أننا لن نَصِلَ إلى هناك أبدًا"، قال التشاؤُميُّ بهدوء. "لديهم صَفَّان من الرجال المدَرَّعين على الطريق بالفعل. بإمكاني رؤيتهم من هنا. المدينة مُحتَشِدَة لمحاربتنا، كما قُلتُ إنها كذلك. لا يسعني سوى التمرُّغ في الراحة العجيبة لدِقَّة آرائي المتناهية".

ثم جلس راتكليف بارتياحٍ في السيارة وأشعل سيجارةً، لكن الآخرين نهضوا باستثارةٍ وبدؤوا جميعًا في التَّحديق إلى نهاية الطريق. كان سايم قد أبطأ السيَّارةَ بعد أن أصبحت خُطَطُهم مَوضِعَ شَكٍّ،

وأوقفها أخيرًا عند زاوية شارعٍ جانبيٍّ يهبط على نحوٍ حادٍّ جدًّا في اتجاه البحر.

كانت الظلال تملأ المدينة بأكملها، لكن الشمس لم تغرب بعد؛ ومتى استطاع شُعاعُها اختراقَ السُّحُب، كان يصبغ كلَّ شيء بلونٍ ذَهبيٍّ مُحترِق. على هذا الشارع الجانبي كان الضوءُ يسطع حادًّا وضيِّقًا كعمودٍ من النور الاصطناعي على خشبة المسرح. يضرب سيَّارَةَ الأصدقاء الخمسة، ويجعلها كمَركَبَةٍ حربيَّةٍ مُحتَرِقَة. لكن بقية الشارع، على طرفَيْه خصوصًا، كان غارقًا في الشَّفَق الداكن، ولبضع ثوانٍ لم يكن بإمكانهم رؤية أي شيء. وحينها أصدر سايم -الذي كان أَحَدَّهم نَظَرًا- صفيرًا ساخرًا قصيرًا.

"إن الأمر حقيقيٌّ تمامًا. يوجد زحام أو جيش أو شيء من ذلك القبيل في نهاية ذلك الشارع".

"حسنًا، حتى إن كان هذا صحيحًا"، قال بولْ بنَفادِ صَبرٍ، "فلا بُدَّ أنه شيء آخر- شِجارٌ مُصطَنَعٌ أو عيد ميلاد العُمدَة أو شيء ما. لا يمكنني ولن أصدِّق أن هؤلاء الناس البسيطين المبتهجين يمضون في مكانٍ كهذا، والديناميت في جيوبهم. انطلق للأمام قليلًا يا سايم، ولنُلقِ نظرة عليهم".

زحَفَت السيارة مائة ياردة تقريبًا للأمام، ثم جَفلَوا جميعًا بدكتور بولْ ينفجر في نوبة عالية من الضحك.

"يا إلهي، أنتم حفنَةُ البُلَهاء!" صاح قائلًا، "بماذا أخبرتكم. ذلك الزحام مُطيعٌ للقانون كبقَرةٍ، وحتى وإن لم يَكُن كذلك، فهو في صَفِّنا".

"كيف عرفتَ؟"، سأله البروفسور، مُحدِّقًا.

"أنتَ وطواطٌ أعمى"، صاح بولْ، "ألا ترى مَن يقودهم؟".

دقَّقوا النظر ثانيةً، ثم صاح الكولونيل، باندهاشَةٍ في صوته:

"يا إلهي، إنه رينار!".

كان أمامهم -بالفعل- صَفٌ من الأشكال البشرية الغائمَة تركض عبر الطريق، ولم يَكُن من الممكن رؤيتهم بوضوحٍ؛ لكنها قريبةٌ بما يكفي لمعرفة أن ضوء المساء العارِض لم يكن سوى دكتور رينار يخطو جيئةً وذهابًا، بقبّعته البيضاء، مُخَلِّلًا أصابِعَه في لِحيَتِه الداكنة الطويلة، وحامِلًا لمسدّسٍ في يده اليسرى.

"كم كنتُ أحمقَ!" قال الكولونيل متعجِّبًا. "بالطبع، لقد جاء الصبي العجوز لنجدتنا".

كان دكتور بولْ عاجزًا عن كَتمِ ضحكاته، مُؤَرجِحًا سيفه في يده بلا مُبالاةٍ كَعُكّازٍ. ثم قفز من السيّارة وهرع عبر المسافة الفاصلة، صائحًا:

"دكتور رينار! دكتور رينار!".

بعد ذلك بلحظة واحدة ظنَّ سايم أن عينيه قد جُنّتا في رأسه. ذلك أن مُحِبَّ الخير دكتور رينار قد رفع مسدّسه ببطءٍ وأطلق النار مرّتين على بولْ، لِحَدٍّ أنَّ الطلقتَيْن صَدَحَتا عبر الطريق.

في نفس اللحظة تقريبًا التي ارتفعت فيها هَبّةٌ السحابة البيضاء من هذا الانفجار المريع انطلقت أيضًا هبّةٌ طويلة من سحابة بيضاء من سيجارة راتكليف صاحب المذهَبِ المتشَكِّك. كجميع البقية، أصبح شاحبًا قليلًا، لكنه ابتسم. انتصب دكتور بولْ، الذي أُطلِقَت عليه الرصاصتان، فاقدًا فَروَةَ رأسه فحسب، ساكنًا تمامًا في منتصف الطريق بلا أدنى إشارة على الخوف، ثم استدار ببطءٍ وزَحَفَ راجعًا إلى السيارة، وارتقاها بثُقبَيْن في قُبّعته.

"حسنًا"، قال مُدخِّن السيجارة ببطء، "ما رأيكم الآن؟".

"أعتقـد"، قـال دكتـور بـولْ بحسـم، "أنني أسـتلقي عـلى سريـرٍ في العقار رقـم 217، مبـاني بيبـودي، وأننـي سأسـتيقظ قريبًـا واثِبًـا مـن الفِـراش؛ أو أننـي، إذا لم يكـن الأمـر هكـذا، جالِـسٌ في زنزانـة صغـيرة ذات وسـائدَ في هانويـل، وأن الطبيـب لا يسـتطيع تحديـدَ حالتـي. لكـن إذا كانـت ترغبـون في معرفـة مـا لا أعتقـده، فسـأخبركم بـه. لا أعتقـد مـا تعتقدونـه. لا أعتقـد، ولـن أعتقـد أبـدًا، أن حفنَـةَ الرجـال العاديـيْن هـؤلاء هـم جماعـة مـن المفكِّريـن الحداثيِّين القَذِريـن. لا يـا سـيدي، أنـا ديمقراطـيٌّ، ولا أظـنُّ رغـم ذلـك أن الأحـد بإمكانِـه تحويـل واحـدٍ فحسـب مـن العُـمَّال البسـيطين أو القافزيـن مـن عـلى مناضـد البيـع. لا، قـد أكـون مجنونًـا، لكـن الإنسـانية ليسـت كذلـك".

استـدار سـايم بعينيـه الزرقاويْـن المتألِّقَتَيْن ناحيـةَ بـولْ بلهفَـةٍ لم يُبيِّن مغزاهـا الواضِـحَ.

"أنـتَ رجـلٌ نَبيـلٌ جـدًّا"، قـال لـه. "بمقـدورِكَ أن تؤمـن بسـلامة عقـل الآخريـن عـلى أن تؤمـن بسـلامة عَقلِـكَ. وأنـتَ عـلى حـقٍّ تمامًـا بشـأن الإنسـانية، بشـأن الفلّاحـين والنـاس كصاحـب النُّـزُل العجـوز المبتهـج ذلـك. لكنَّـكَ لسـتَ عـلى حَـقٍّ بخصـوص رينـار، راوَدَتنـي شـكوكٌ تجاهَـه مـن البدايـة. إنـه عقـلانيٌّ، والأسـوأ، أنـه ثـريٌّ. إذا نجـح أحدهـم في تدمـير الواجـب والديـن حقًّـا، فسـيكون مـن الأثريـاء قطعًـا".

"إذن فقـد تدمَّـرا الآن حقًّـا"، قـال الرجـل ذو السـيجارة، واعتـدل بيديـه في جيبـه. "الشـياطين قادِمون!".

تطلّـع الرجـال في السـيارة بقلـقٍ إلى تحديقَتِـه الحالمـة، ورأوا أن الكتيبـة بأكملهـا في نهايـة الطريـق كانـت تتقـدَّم ناحِيَتَهـم، دكتـور رينـار يزحـف باهتيـاجٍ في المقدِّمـة، لحيتـه مُتطايِـرَة في الهـواء.

قفز الكولونيل خارجًا من السيارة باندهاشٍ لا يقبل المساوَمَة.

"يـا سـادةً"، صـاح قائـلًا، "هـذا الأمـر لا يُصـدَّق. لا بُـدَّ أنهـا مَزحَـةٌ ملعوبـة. إذا كنتُـم تعرفـون رينـار كـما أعرفـه؛ فالأمـر يشـبه أن تُسَـمُّوا الملكـة ڤيكتوريـا بمفجِّـرَة الديناميـت. إذا عرفتـم حقًّـا شـخصيَّة الرَّجُـل...".

"دكتـور بـولْ"، قـال سـايم سـاخرًا، "اكتشـف جوهـر شـخصيَّته عـبر الثُّقبَـيْن في قُبَّعَتِـه عـلى الأقـل".

"أقول لكم إن هذا لا يمكن!" صاح الكولونيل، ضارِبًا الأرض بقدَمَيْه.

"سيشرح رينار لكم الأمر. سيشرحه لي"، ثم خطا إلى الأمام.

"لا تتعجَّل هكذا"، تَشدَّق المدخِّن. "قريبًا جدًّا سيفسِّره لنا جميعًا".

لكـن الكولونيـل المتـبرِّم أصبـح بالفعـل بعيـدًا عـن مـدى السـمع، متقدِّمًـا نحـو العـدوِّ المتقـدِّم. رفـع دكتـور رينـار المستشارُ مُسدَّسَـه ثانيـةً، لكـن بعـد أن أدرك هويـّةَ خصمِـه، تـردَّد قليـلًا، حتـى تقابَـلَ الكولونيـل معـه وجهًـا لوجـهٍ بإيمـاءاتٍ مُهتاجَـةٍ مـن الاحتجـاج.

"لا فائـدةَ مـن هـذا"، قـال سـايم. "لـن يحصـل عـلى أيِّ شيء مـن ذلـك الوَثنـيِّ العجـوز. أقـترح أن نصطـدم بهـم مُقتَحِمـين المنتصـف، أن نصطـدم بهـا كالرَّصاصـات التـي اخترَقَـت قُبَّعَـةَ بـولْ. قـد نُقتَـل، لكننـا لا بُدَّ سـنقتل عـددًا معقـولًا منهـم".

"لا أوافـق عـلى ذلـك"، قـال دكتـور بـولْ، وفجاجـة فضيلتـه المخلِصـة تتزايَـد في كلِّ لحظـة. "ربمـا كان هـؤلاء البائسـين يرتكبـون خَطَـأً. امنحـوا الكولونيـل فرصـة".

"هل نتراجع إذن؟" سأل البروفسور.

"لا"، قـال راتكليـف بصـوتٍ بـارد، "الشـارع وراءنـا تحـت سـيطرتهم أيضًـا. في الواقـع، أعتقـد أننـي أرى واحـدًا آخـر مـن أصدقائـكَ يـا سـايم".

اسـتدار سـايم بمهـارةٍ، وحـدَّق للـوراء في الأثـر الذيـن خلَّفـوه. رأى كيانًـا غـيرَ مُنتَظِـمٍ مـن خيَّالـة يتجمَّعـون ويركضـون بجيادهـم نحوهـم

في الظَّلام. رأى أعلى سَرجِ المقدِّمة الوَهَجَ الفضِّيَّ لسَيفٍ، ثم رآه يرتفع ويقترب من الوهج الفضِّيِّ لشَعرِ رَجُلٍ عجوز. في اللحظة التالية، بعُنفٍ قاصِفٍ، كان قد طوَّح بالسيارة واستدار بها مندفعًا إلى الشارع الجانبي المتَحدِّر إلى البحر، كرجُلٍ لا يرغب سوى في الموت.

"ماذا يجري بحق الشيطان؟"، صاح البروفسور، قابضًا على ذراعَيْه.

"لقد سَقطَت نَجمَةُ الصَّباح!" قال سايم، مع انحدار سيَّارته نحو الظلام كنَجمٍ ساقِط.

لم يفهم الآخرون كلماته، لكنهم عندما تطلَّعوا وراءهم إلى الشارع في الأعلى كان بإمكانهم رُؤيَةُ الخَيَّالة العَدائيِّين يستديرون حول الزاوية نزولًا على المنحدرات في إثرِهم؛ وفي مُقدِّمَتِهم كان صاحب النُّزُل الصالح، مُحتَقِنًا بالغضب البريء لضوء المساء.

"العالم مجنون!" قال البروفسور، ثم دفن وجهه في يديه.

"لا"، قال دكتور بولْ بخنوعٍ قاسٍ، "إنه أنا المجنون".

"ماذا سنفعل؟"، سأل البروفسور.

"في هذه اللحظة"، قال سايم، بتجرُّدٍ عِلميٍّ، "أعتقد أننا سنصطدم بعمود الإنارة".

في اللحظة التالية كان أن ارتَطَمَت السيارةُ بجسمٍ حديديٍّ مُرتَجَّةً على نحو كارثي. في اللحظة التي تَلَتها زَحَفَ الرِّجالُ الأربعة خارجين من السيارة تحت فوضى المعادِن، ثم برز أمامهم عمودُ إنارَةٍ طويلٍ وهزيل، كان ينتصب مباشَرَةً على حافَّة الرصيف البحري، ملتويًا ومنحنيًا، كفرع لشجرة مكسورة.

"حسنًا، لقد حطَّمنا شيئًا ما"، قال البروفسور، بابتسامَةٍ خافتة. "في هذا بعض العَزاء".

"أنـت في طريقـك لأن تُصبِـحَ فَوضويًـا"، قـال سـايم، نافِضًـا ملابِسَـه بغريزتـه في التأنُّـق.

"الجميع كذلك"، قال راتكليف.

أثنـاء حديثهـم، اقـترب منهـم الفـارس ذو الشّـعر الأبيـض وتابِعـاه صاخِبـان مـن الأعـلى، وفي نفـس اللحظـة تقريبًـا كان طابـورٌ قاتِـمٌ مـن الرجـال يهرَعـون صائِحـين عـلى طـول الجبهـة البحريـة. انتـزع سـايم سـيفًا، ووضعـه بـين أسـنانه؛ وغـرز اثنـينِ آخريـن تحـت إبطيـه، ورابعًـا في يـده اليـسرى والمشـكاة في يـده اليمنـى، ثـم قفـز مـن الرصيـف العـالي هابطًـا إلى الشـاطئ مـن الأسـفل.

قفـز الآخـرون في إثـره، بقبـولٍ مُشـتَرَكٍ لذلـك الإجـراء الحاسـم، مُخلِّفـين وراءهـم الـرُّكامَ والطُّغمَـةَ المتجمِّعـة في الأعـلى.

"أمامنـا فُرصَـةٌ واحـدة أخـرى"، قـال سـايم، نازِعًـا السـيف الحديـديّ من فمـه. "أيًـا كان مـا يعنيـه هـذا الهَـرْجُ، أعتقـد أن مخفَـرَ الشرطـة سـيمنحنا العَـونَ. لا نسـتطيع الوصـول إلى هنـاك؛ فقـد اسـتولوا عـلى الطريـق. لكـن هنـاك مرفـأ أو حاجـز أمـواج ينطلـق إلى داخـل البحـر هنـا بالضبـط، وهـو مـا يمكننـا الدفـاع عنـه لفـترة أطـول مـن أيِّ شيء آخـر، وكأنـه هوراتيـوس[1] وجِـسره. علينـا أن ندافـع عنـه حتـى يصـل رجـال الـدرك. ابقَـوْا في إثـري".

تَبِعَـه الآخـرون بينـما وهـو ينـزل مُنسَـحِقًا إلى الشـاطئ، وفي ثانيـة أو اثنتـين ارتطَمَـت أحذيتهـم الطويلـة ليـس بحـصى البحـر الصغـير، لكـن بأحجـارٍ عريضـة مسـتوية. زحفـوا نازلـين عـبر رصيـف طويـل واطـئ، مُسرعـين في صَـفٍّ واحـد إلى البحـر القاتـم الهائـج، وعندمـا وصلـوا إلى

(1) كان بوبليـوس هوراتيـوس كوكليـز (Publius Horatius Cocles) ضابطًـا في جيـش الجمهوريـة الرومانيـة المبكِّـرة، ودافَـعَ عـن عائلـة بونـس سوميشـيوس ضـدَّ الجيـش الغـازي للملـك الإتـروري- (المترجـم)

نهاية الرصيف شعروا بأنهم قد وصلوا إلى نهاية حكايتهم. ثم استداروا وواجهوا المدينة.

كانت تلك المدينة قد تغيَّرَت معالِمُها بفعل اللغط والهياج. على طول الحاجز البحري العالي الذي هبطوا منه لتوِّهم كان يسري الضَّبابُ المظلِمُ والصاخب للبشريَّة، بأذرعٍ مُطوِّحة ووجوهٍ غاضبة تحاول تَلَمُّسَهم وتتوهَّج ناحيتهم. كان الطابور المظلم الطويل مُرَقَّطًا بالمشاعل والمشاكي؛ لكن حتى في الموضع الذي لم يتوهَّج فيه وَجهٌ غاضِبٌ بعينه بفعل المشاعل، كان بإمكانهم أن يروا في ذلك الشكل البشري القَصِيِّ -بإيماءاته الأكثر قتامةً- كراهيةً مُنظَّمَةً. كان من الواضح أنهم رجال ملعونون من بين كل البشر، لكنهم لم يعرفوا السببَ.

قفز رجلان أو ثلاثة، ضَئيلين وسودًا كالقِرَدَة، على الحافَّة كما فعلوا وسقطوا على الشاطئ. جاءوا حارثين عبر الرمال العميقة، صائِحين على نحو مُرعِب، وناضلوا من أجل الخَوضِ في البحر عشوائيًّا. كانوا مثالًا يُحتَذَى، وسرعان ما بدأت الكتلة السوداء من الرجال بأكملها في الركض والتقطُّر على الحافَّة كالعسل الأسود.

في المقدِّمة بين الرجال على الشاطئ رأى سايم الفلَّاح الذي كان قد قاد عربتهم. انغمس ناشرًا الرَّذاذَ في الأمواج المتكسِّرة على حصانٍ جَرٍّ هائل، وهزَّ فأسه ناحِيَتَهم.

"الفلَّاح!"، صاح سايم. "لكنَّ الفلَّاحين لم يثوروا منذ العصور الوسطى".

"حتى وإن جاءت الشرطة الآن"، قال البروفسور بحُزنٍ، "فليس بإمكانِها فِعلُ شيءٍ مع هؤلاء الأوباش".

"هراء!"، قال بولْ بيَأسٍ؛ "لا بُدَّ أنَّ بعض البشريين قد تخلَّفوا وراءهم في البلدة".

"لا"، قال المفتِّش اليائس"، "الكائن البشري سينقرض قريبًا. نحن آخر أفراد النوع البشري".

"ربما"، قال البروفسور بذهنٍ شاردٍ. ثم أضاف بصَوتِه الحالِم، "ماذا تقول نهاية (دونكيان)[1]؟".

""لم يَعُد الوَهجُ العامُّ؛ ولا الخاصُّ، يجرؤ على السطوع؛

لم يَبقَ أيُّ نورٍ بَشريٍّ، ولا أي لمحة إلهيَّة!

انظر! لقد استُرِدَّت الفَوضى، مَليكَتُك؛

خَبَا الضَّوءُ أمامَ كلمَتِك باعِثَةِ العَدَم؛

يَدُك، الفوضويَّةُ الأكبر، تُمسِكُ بالسِّتار لإنزالِه؛

والظَّلامُ الكَونيُّ يَدفِنُ كُلَّ شيء"

"توقَّفوا!" صاح بولْ فجأةً، "ها هم رجال الدَّرك".

كانت أضواء مخفَرِ الشُّرطَةِ الواطئة مُرَقَّطة، تقطعها أشكالٌ بشرية مسرعة، وعبر الظلام تناهى إلى سَمعِهم في الظلام صوتُ قَعقَعَةٍ وتَصادُمِ خيَّالَةٍ مُنضَبِطَة.

"إنهم يَشحِنون الغوغاء!" صاح بولْ بنشوةٍ أو كتحذير.

"لا"، قال سايم، "بل يتشكَّلون على طول الحاجز".

"لقد خلعوا بندقيَّاتهم"، صاح بولْ راقصًا باستثارة.

"نعم"، قال راتكليف، "وسيُطلقون النارَ علينا".

أثناء حديثه وصَلَت إليهم فَرقَعَةُ تَراشُق بالبنادق، وبَدَت الرصاصات وكأنها تتقافز كحبَّات البرَد على الأحجار أمامهم.

"لقد انضمَّ إليهم رجالُ الدَّرك!" صاح البروفسور، وضرب جبينَه.

---

(1) The Dunciad: قصيدة سرَديَّة بطوليَّة لألكسندر بوب- (المترجم)

"أنا في الصَّومَعة المبطَّنة"، صاح بولْ بثباتٍ.

طغى عليهم صمتٌ طويل، ثم قال راتكليف، متطلِّعًا إلى ما وراء البحر المنتفخ بشكلٍ من أشكال الأرجوانيِّ الرَّماديِّ:

"ماذا يهمُّ مَن المجنون ومَن العاقل؟ قريبًا سنموت جميعًا".

استدار سايم إليه وقال:

"أنت يائِسٌ تمامًا، إذن؟".

بقيَ راتكليف صامِتًا كالحَجَر؛ ثم قال أخيرًا بهدوء:

"لا؛ الغريب أنني لستُ يائسًا تمامًا. لا يوجد سوى أملٍ ضَئيلٍ مجنون واحِدٍ لا أستطيع إخراجه من عقلي. قوّة هذا الكوكب بأكملها تقف ضدَّنا، مع ذلك لا يسعني سوى التَّساؤل ما إذا كان هذا الأمل الضئيل العَبَثيُّ قد تحوَّل إلى يأسٍ بعد".

"في ماذا أو في مَن يَكمُن أمَلُكَ؟" سأله سايم بفضول.

"في رَجُلٍ لم أَرَه أبدًا"، قال الآخر، مُتطلِّعًا إلى البحر الرصاصي.

"أعرف ما تعنيه"، قال سايم بصوت خفيضٍ، "الرجل في الغرفة المظلِمَة. لكن لا بُدَّ أنَّ الأَحَدَ قد قتَلَه الآن".

"ربما"، قال الآخر بثباتٍ؛ "لكن حتى إن كان الأمر كذلك، فسيكون الرَّجُلَ الوحيدَ الذي وَجَدَ الأَحَدُ صعوبةً في قتله".

"سمعتُ ما قلت"، قال البروفسور، بظهره وقد استدار. "أنا أيضًا أتشبَّث بقوَّةٍ بالشيء الذي لم أَرَه أبدًا".

على نحوٍ مُفاجِئٍ تمامًا، تطوَّح سايم، الذي كان يَقِفُ كما لو كان التفكير الاستبطاني قد حَجَبَ عينيه، وصاح قائِلًا كرَجُلٍ يستيقظ من نومه:

"أين الكولونيل؟ ظَنَنتُ أنه معنا!".

"لقد ذهب للتحدث إلى رينار"، قال البروفسور.

"لا يمكننا تَركُه بين هؤلاء الوحوش"، صاح سايم. "دعنا نموت كجنتلمانات إذا كان الأمر...".

"لا تُشفِقْ على الكولونيل"، قال راتكليف، بضحكةِ استهزاءٍ شاحِبَة. "إنه يتمرّغ في الراحة. إنه...".

"لا! لا! لا!"، صاح سايم في ما يُشبِه السُّعار، "ليس الكولونيل أيضًا! لن أصدِّق هذا أبدًا!".

"هل تصدِّق عينيكَ؟"، سأله الآخر وأشار إلى الشاطئ.

كان الكثير من ملاحقيهم قد خاضوا في الماء هازِّين قبضاتهم، لكنَّ البحر كان هائِجًا، ولم يستطيعوا الوصول إلى الرصيف البحري. رغم ذلك، انتصب شكلان بشريّان أو ثلاثة على بداية الممرّ الحجري، وبدا أنهم يتقدَّمون بحَذَرٍ عليه. وَهَجُ مِشكاةٍ مُتقطِّعٍ كان يضيء وجوهَ الاثنين في المقدِّمة. أحد الوجهين يرتدي قناعًا أسودَ حتى منتصفه، وتحته كان الفَمُ يتلوَّى بجنونٍ عُصابيٍّ لحَدِّ أن خُصلات اللِّحيَة كانت تلتفُّ في دوائِرَ لا تنتهي كشيءٍ حَيٍّ، مضطرب. والآخر كان الوجه الأحمر والشارب الأبيض للكولونيل دوكروا. كانا مُنغَمِسَيْن في تشاوُرٍ حماسيٍّ.

"نعم، لقد رحل هو أيضًا"، قال البروفسور، وجلس على أحد الأحجار. "لقد اختفى كلُّ شيء. لقد انتهيتُ! لا يمكنني أن أَثِقَ في آلتي الجَسديَّة ذاتها. أشعر كما لو أن يدي قد تتطاير وتصفعني".

"عندما تتطاير يدي"، قال سايم، "فإنها ستصفع شخصًا آخر"، ثم خطا على طول الرصيف ناحية الكولونيل، السيف في يَدٍ والمشكاة في اليد الأخرى.

كـما لـو كان لتدمـير آخـر الآمـال أو الشـكوك، فـإن الكولونيـل، بعـد أن رآه قادمًـا، صـوَّب مُسدَّسـه إليـه وأطلـق النـار. أخطَـأت الطَّلقَـةُ سـايم، لكنهـا أصابَـت سـيفه، مُحطِّمَـةً إيَّـاه عنـد المقبـض. أسرع سـايم في خُطوَتِه، وطـوَّح بالمشـكاة الحديديَّـة عـلى رأسـه.

"يهـوذا أمـام هـيرودس!" قـال، وطـرح الكولونيـل أرضًـا عـلى الأحجـار. ثـم اسـتدار إلى السـكرتير، الـذي بـدأ الزَّبَـدُ في التشـكُّل عـلى فَمِـه المرتعـب، وأمسـك بالمصبـاح عاليًـا بحركـة متصلِّبـة ومانِعَـة، لدرجـة أن الرجـل، في حقيقـة الأمـر، تجمَّـد لوَهلَـةٍ، واضطـرَّ إلى إصاخـة سـمعه.

"هـل تـرى هـذه المشـكاة؟"، صـاح سـايم بصـوت مخيـفٍ. "هـل تـرى الصليـب المحفـور عليـه، واللهـب داخلـه؟ لم تصنعـه أنـتَ. لم تُضِئـه أنـتَ. رجـالٌ أفضـلُ منـكَ، رجـالٌ بمقدورهـم الإيمـان والطاعـة، جدلـوا أمعـاءَ الحديـد وحافظـوا عـلى أسـطورة النـار. لا يوجـد شـارع تمـشي عليـه، ولا خيـط ترتديـه، إلَّا ويُصنَـع كـما صُنِعَـت هـذه المشـكاة، عـبر إنكار فلسـفتك عـن الـتراب والجِـرذان. ليـس بإمكانِـكَ صُنـعُ شيءٍ. ليـس بإمكانـك سـوى التدمـير. ستُدمِّر النَّـوعَ البـشريَّ؛ سـتدمِّر العالَـم. قـد يكفيـكَ ذلـك. لكـن هـذه المشـكاة المسـيحية العتيقـة لـن تسـتطيع تدميرَهـا. سـتذهب إلى حيـث تعجَـزُ إمبراطوريَّتُـكَ مـن القِـرَدَة عـن العثـور عليهـا".

ثـم ضرب السـكرتير عـلى الفـور بالمشـكاة حتـى ترنَّـح؛ ثـم أدارهـا في دوَّامَـةٍ مَرَّتَـيْن حـول رأسـها، وطوَّحهـا بعيـدًا إلى البحـر، حيـث توجَّهَـت كصـاروخٍ مُصطَخِـبٍ ثـم سـقطت.

"السـيوف!"، صـاح سـايم، مديـرًا وجهـه المسـتَعِرَ إلى الثلاثـة وراءه. "لنهجـم عـلى هـؤلاء الأوبـاش؛ فقـد حـان أوان موتنـا".

جـاء رفاقـه الثلاثـة في إثـره بالسـيوف في أيديهـم. كان سـيف سـايم مكسـورًا، لكنـه اسـتعار نبُوتًـا مـن قبضـة صيـاد، طارِحًـا إيَّـاه أرضًـا. خـلال لحظـة واحـدة كان لهـم أن يطرحـوا أنفسـهم عـلى وجـه الغوغـاء ويموتـوا،

لـو لم تتوقّـف المسـألة فجـأة. كان السـكرتير، بعـد حديـث سـايم إليـه، مُنتَصِبًا بيـده عـلى رأسـه المضروبـة كـما لـو كان دائخًـا؛ والآن انتـزع قناعـه الأسـود.

لم يكشِـفْ الوجـهَ الشّـاحِب، الـذي تقـشّر بهـذا الشـكل تحـت ضـوء المصبـاح، عـن غضـب بقـدر مـا تكشّـف عـن حـيرة ودهشـة. رفـع يـده عاليًـا بسُـلطَةٍ مُضطَرِبَـة.

"لا بُدَّ أن هنـاك خطأ مـا"، قـال لهـم. "سـيد سـايم، أعتقـد أنـك بالـكاد تفهـم موقِفَـكَ. أُلقـي القبـضَ عليـكَ باسـم القانون".

"باسم القانون؟" قال سايم، وأسقط عصاه.

"بالتأكيـد!" قـال السـكرتير. "أنـا مُحقِّـقٌ سِرِّيٌّ مـن سـكوتلاند يـارد"، ثـم أخـرج بطاقـةً زرقـاءَ صغـيرةً مـن جيبـه.

"ومَن تَظُنُّ أنَّنا نكون؟" سأله البروفسور، وألقى أسلحته.

"أنتـم"، قـال السـكرتير بتصلُّـب، "عـلى حسـب مـا أعلـم كحقيقـةٍ، أعضـاء في المجلـس الأعـلى للفوضويِّـين. مُتنكِّـرًا كواحِـدٍ منكـم، فإننـي...".

ألقى دكتور بولْ بسيفه في البحر.

"أبـدًا لم يوجـد أيُّ مجلـسٍ أعـلى للفوضويِّـين"، قـال لـه. "نحـن جميعًـا حفنـةٌ مـن رجـال الشرطـة ننظـر إلى بعضنـا البعـض. وكل هـؤلاء الأنـاس اللطفـاء الذيـن كانـوا يُمطِرونـا بالطَّلَقـات ظنُّـوا أننـا مـن مُفجِّـري الديناميـت. أعـرف أننـي لم أكـن لأُخطِـئَ بشـأن هـؤلاء الرِّعـاع"، قـال لـه، مُشـيرًا إلى الجُمـوع الهائلـة التـي امتـدَّت الآن عـلى الجانِبَـيْن. "إن العَـوامَّ ليسـوا مجانـين. أنـا نفسـي مـن العَـوامِّ، وأعـرف ذلـك. سـأنطلق الآن إلى الشـاطئ لحَمـلِ الـشَّراب إلى جميـع مَـن هنـا".

الفصل الثالث عشر

مُطارَدَةُ الرَّئيس

في الصَّباح التالي استقلَّ الأشخاص الخمسة المذهولون، الجَذِلون، القارِبَ المتَّجِهَ إلى دوفر. كان لدى الكولونيل العجوز البائس سببٌ ما للشكوى بشأنه، بعد اضطراره لقتال زُمرَتَيْنِ لا وجودَ لهما، ثم طرحِه أيضًا بمشكاة حديديَّة. لكنه كان چنتلمانَ نبيلًا، وبتحرُّره في النهاية عبر حقيقة أن أيًّا من الطرفين لا علاقة له بالديناميت، ودَّعَهُم على رصيف الميناء بلُطفٍ كبير.

كان لدى المحقِّقين الخمسة المتصالحين مائة تفصيلة وتفصيلة لتفسيرها لبعضهم البعض. كان على السكرتير أن يخبر سايم بسبب ارتدائهم للأقنعة في البداية بغَرَضِ الاقتراب من العدوِّ المفتَرَض كزُملاء في المؤامرة.

وكان على سايم أن يشرح لماذا فرُّوا هاربين بتلك السرعة عبر بلدٍ مُتحضِّر. لكن فوق كل هذه التفاصيل والمسائل التي كان من الممكن تفسيرها، ارتفع الجَبَلُ المركزي للمسألة التي لم يكن بإمكانهم تفسيرها. ماذا كان يعني كل هذا؟ إذا كانوا جميعًا ضُبَّاطًا مُسالمين، فمَن هو الأحدُ؟ وإذا لم يَكُن قد استولى على العالم حقًّا، فإلى ماذا يسعى في نهاية المطاف؟ كان المفتِّش راتكليف مُغْتمًّا ما زال بشأن كلِّ هذا.

"لا أستطيع أن أكتشف خَبَايَا اللعبة الصغيرة التي يلعبها الأحدُ العجوز بأكثر من أيٍّ منكم"، قال لهم. "لكن أيًّا مَن كان الأحد، بخلاف ذلك، فهو بالتأكيد ليس مواطنًا بريئًا. اللعنة! هل تتذكَّرون وجهه؟".

"أؤكِّد لك"، أجابه سايم، "أنني غير قادر على نسيانه أبدًا".

"حسنًا". قال السكرتير، "أفترض أننا سنعرف كل شيء تقريبًا، فغدًا لدينا اجتماعنا العام التالي. وعُذرًا منكم"، قال لهم، بابتسامةٍ مُخيفَةٍ بعض الشيء، "كوني على دراية بمهامِّي السِّكرتاريَّة".

"أعتقد أنك على حقٍّ"، قال البروفسور مُتفَكِّرًا. "أعتقد أننا قد نكتشف الأمر من خلاله؛ لكن أعترف أنني أشعر ببعض الخوف من سؤال الأحد عمَّن هو حقًّا".

"لماذا"، سأله البروفسور، "خوفًا من القنابل؟".

"لا"، قال البروفسور، "خشيةَ أن يُخبِرَني".

"لنتناول بعض الشراب"، قال دكتور بولْ، بعد بُرهَةِ صَمتٍ.

طوال رحلتهم بالكامل عبر القارب والقطار كانوا في غاية الابتهاج، لكنهم ظلُّوا متقاربين على نحوٍ غريزيٍّ. حاول دكتور بولْ، الذي كان دائمًا صاحِبَ المذهب المتفائل في العُصبة، بشتَّى الطُّرق إقناعَ الأربعة

الآخرين بأن الصُّحبة بأكملها يجب أن تستقلّ نفس عربة الخيل من ڤكتوريا؛ لكنهم رفضوا ذلك، واستقلُّوا سيارة، مع دكتور بولْ يغنِّي في المؤخِّرة. أنهوا رحلتهم في فندق في بيكاديللي سيركيس؛ حتى يكونوا على مَقرَبةٍ من الإفطار المبكِّر في الصباح التالي في ميدان ليستر. مع ذلك، لم تكن مغامرات ذلك اليوم قد انتهت بالكامل. كان دكتور بولْ -مُستاءً من الاقتراح العام بالخلود للنوم- قد خطا خارجًا من الفندق عند حوالي الساعة الحادية لرؤية والتَّمتُّع ببعضٍ من جَمال لندن. إلَّا أنه بعد ذلك بعشرين دقيقة عاد وأحدث ضجيجًا في قاعة الاستقبال. واضطرَّ سايم -الذي حاول في البداية تَهدِئته- إلى الإنصات إليه أخيرًا بانتباهٍ جديدٍ تمامًا.

"أقول لك لقد رأيته!" قال دكتور بولْ، بتأكيدٍ مُتصلِّب.

"مَن؟" سأله سايم بسرعة. "ليس الرئيس؟".

"ليس الأمر بهذا السوء"، قال دكتور بولْ، بضحكَةٍ لا داعي لها، "ليس الأمر بهذا السوء. لقد رأيته هنا".

"رأيتَ مَن هنا؟"، سأله سايم بنَفاد صَبرٍ.

"الرَّجُل كثيف الشعر"، قال الآخر بإشراقٍ، "الرجل الذي اعتاد أن يكون كثيفَ الشَّعر: جوجول. إنه هنا"، ثم قدَّم إليهم الشاب المطابِقَ للأوصاف مُمسِكًا بذراعه المتمنِّعة، وهو الشاب الذي كان قد زحف منذ خمسة أيام خارجًا من المجلس بشَعرٍ أحمر رقيقٍ ووَجهٍ شاحب، أول مَن تَمَّ كَشفُه من بين جمع الفوضويِّين المزيَّفين.

"لماذا تقلق بشأني؟" صاح قائلًا. "لقد طردتموني باعتباري جاسوسًا".

"جميعنا جواسيس!" همس سايم.

"جميعنا جواسيس!" صاح دكتور بولْ. "هيا، لِنحتسِ شرابًا".

في الصباح التالي زحَفَت كتيبة السِّتَّة الذين اتَّحدوا من جديد بإحساس مُتبلِّدٍ نحو الفندق في ميدان ليستر.

"هذا مُثيرٌ للبهجة حقًّا"، قال دكتور بولْ: "نحن ستَّة رجال ذاهبون لسؤالِ رجُلٍ واحد عن معنى وجوده".

"أعتقد أنه أمر عجيب بالأحرى"، قال سايم. "أعتقد أنهم ستة رجال ذاهبون إلى رَجُلٍ واحد لسؤاله عن معنى وجودهم هم".

استداروا في صَمتٍ دخولًا إلى الميدان، ورغم أن الفندق كان في الزاوية المقابلة، إلَّا أنهم رأوا على الفور الشُّرفَةَ الصغيرة وشكلًا بشريًّا بَدَا كبيرًا جدًّا بالمقارنة بها. كان يجلس بمفرده برأس مُنحَنٍ، مُمعِنًا النظر في صحيفة. لكن كل أعضاء المجلس، الذي جاؤوا للتصويت بإسقاطه، عَبَرُوا الميدان كما لو كانوا تحت مُراقَبَةِ سماءٍ ذات مائة عَيْنٍ.

كانوا قد تَنازَعوا كثيرًا فيما بينهم بشأن سياستهم، وبشأن ما إذا كان ينبغي لهم ترك جوجول غير المقنَّع خارج المسألة والبدء بشكل دبلوماسي، أو إحضاره وتفجير الوضع بالبارود على الفور. انتصر في النهاية تأثيرُ سايم وبولْ لصالح المسار الأخير، رغم أن السكرتير كان يسألهم حتى النهاية عن سبب مُهاجَمَتِهم للأحَدِ بتلك القسوة.

"سببي بسيطٌ للغاية"، قال له سايم. "أُهاجِمُه بقَسوَةٍ لأنني خائِفٌ منه".

ساروا في إثر سايم صعودًا على الدَّرَج المظلِم في صمت، وخرجوا جميعًا في نفس الوقت إلى ضوء الصباح الساطع وضوء ابتسامة الأحد المبهِرَة.

"ممتاز"، قال لهم. "يُبهِجُني جدًّا رؤيتكم جميعًا. يا له من نَهارٍ بديع. هل مات القيصر؟".

استجمع السكرتير -الذي صادف أن يكون في المقدِّمَة- نفسَه من أجل اهتياجٍ وَقور.

"لا يا سيِّدي"، قال بتجهُّم، "لم تحدث مَذبَحَة. لم أجلب إليك أيَّةَ أخبارٍ عن عُوَيناتٍ مُثيرةٍ للاشمئزاز".

"عُوَيناتٌ مُثيرةٌ للاشمئزاز؟" كَرَّر الرئيسُ، بابتسامةٍ مُشرِقَة، مُتسائِلة. "هل تقصد عُويناتِ دكتور بولْ؟".

شعر السكرتير باختناقٍ لوَهلَةٍ، وتابع الرئيسُ بما يشبه الاستجداءَ المُداهِنَ:

"بالطبع، جميعنا لدينا آراؤنا، وحتى أَعيُنُنا الخاصة، لكن أن تدعوها بالمثيرة للاشمئزاز أمام الرجل نفسه...".

انتزع دكتور بولْ عُوَيناتِه وحَطَّمها على المائدة.

"عُوَيناتي بنتُ حَرامٍ"، قال لهم، "لكنني لستُ كذلك. انظروا إلى وجهي".

"أجرؤ على القول إنه من ذلك النوع من الوجوه الذي ينمو على المرء"، قال الرئيس، "في الحقيقة، إنه ينمو عليكَ؛ ومَن أنا حتى أتعارك مع الثِّمار البَرِّيَّة على شجرة الحياة؟ أجرؤ على القول إنه سينمو عليَّ يومًا ما".

"لا وقتَ لدينا لهذه الحماقات"، قال السكرتير، مُقتَحِمًا الحديثَ بوحشية. "لقد جئنا لنعرف ما يعنيه كلُّ هذا. مَن أنت؟ ما أنت؟ لماذا جَمَعتَنا هنا؟ هل تعرف مَن نحن وما نحن؟ هل أنتَ رَجُلٌ أبلَهُ يلعب دورَ المتآمِر، أم أنَّكَ رَجُلٌ ماهِرٌ يلعب دورَ الأحمق؟ أَجِبْني، أقول لك".

"المرشَّحون"، هَمْهَمَ الأحدُ، "مُطالَبون فقط بالإجابة عن ثمانية من السبعة عشر سؤالًا على الورق. حسب ما أرى، فأنتم تطلبون مني

إخبارَكُم بما أنا، وما أنتم، وما هـذه المنضدة، وما هـذا المجلس، وما هـذا العالَمُ حسب معرفتي. حسنًا، سأذهب بعيدًا لتمزيق الحجاب عن مسألة غامضة واحدة. إذا كنتم ترغبون في معرفة ما أنتم، فأنتم مجموعة من الشباب الحَمْقى ذوي النوايا الطّيّبة".

"وأنتَ"، قال سايم، مُنحَنِيًا للأمام، "ما أنت؟".

"أنا؟ ما أنا؟" زمجر الرئيس، ونهض ببطءٍ إلى ارتفاعٍ لا يُصدَّق، كمَوجَةٍ هائلة على وشك أن تتقوَّس فوقهم وتبتلعهم. "ترغبون في معرفة ما أنا، أليس كذلك؟ بول، أنت رَجُلُ عِلْمٍ. فتِّشْ في جذور هذه الأشجار واكتَشِفْ حقيقَتها. سايم، أنت شاعِرٌ. حدِّقْ في سحابات الصباح هذه. لكنّي أقول لكم هذا، إنكم ستعرفون حقيقةَ آخِرِ شَجَرةٍ وأعلى سحابَةٍ قبل أن تُدركوا حقيقتي. ستفهمون البحرَ، وسأظَلُّ أنا لُغزًا مُقفَلًا أمامكم؛ ستعرفون ماهيَّةَ النجوم، ولن تعرفوا ماهيَّتي. منذ بدء العالم دأب الرِّجالُ جميعهم على اصطيادي كذِئبٍ: الملوكُ والحُكَماءُ، الشُّعراءُ والمشَرِّعون، كل الكنائس، وكل الفلسفات. لكن أبدًا لم أقَعْ في المصيدة، وستسقط السَّماوات في اللحظة التي أستدير فيها لمواجَهَة مُلاحِقِيَّ. لقد مَنحتُهم مُتعَةً تليق بما أنفقوه من أموال، وهذا ما سأفعله الآن".

قبل أن يتمكَّن أحدهم من التحرُّكِ، كان الرَّجُلُ الوحشيُّ قد تَمايَلَ كإنسانِ غابٍ عملاق على حاجز الشرفة. مع ذلك وقبل أن يسقط جَذَبَ نَفسَه لأعلى ثانيةً على قضيبٍ أفقي، ودافِعًا ذقنه الهائلة على حافَّة الشرفة، قال لهم بجلال:

"شيء واحد سأخبركم به رغم ذلك بشأن مَن أنا. أنا الرجل في الغرفة المظلِمَة، الذي جعلكم جميعًا رجالَ شُرطَة".

بعد قوله هذا سقط من الشرفة، متقافزًا على الأحجار في الأسفل ككرة هائلة من المطاط الهندي، وانطلق متجهًا إلى زاوية شارع

الحمـراء، حيـث لـوّح لعربـة أجـرة تجرهـا الخيـول وقفـز داخلهـا. كان المحققـون السريـون السـتة واقفـين مصعوقـين وشـاحبين في ضـوء تأكيـده الأخـير؛ إلّا أنـه عندمـا اختفـى في عربـة الأجـرة، اسـتعاد سـايم حواسـه العمليـة، وقفـز مـن عـلى الشرفـة بتهـور شـديد أدّى إلى كـسر قدميـه تقريبًـا، ثـم اسـتدعى عربـة أجـرة أخـرى.

قفـز هـو وبـولْ إلى عربـة الأجـرة معًـا، والبروفسـور والمفتِّـش في عربـة أخـرى، بينـما تسـلّق السـكرتير وجوجـول في إثرهـم عربـةً ثالِثَـةً بصعوبـة في آخـر لحظـة للّحـاقِ بسـايم المحلّـق، الـذي كان يلحـق بالرئيـس المحلّـق. قادهـم الأحَـدُ في مُطـارَدَةٍ شَرِسَـة في اتجـاه الشـمال الغـربي؛ ذلـك أن سـائِقَ عَرَبتِـه -الـذي كان مـن الواضـح أنـه تحـت تأثـير مـا يفـوق المحفِّـزاتِ العاديَّـة- حـثَّ حِصانـه عـلى الخَبَـبِ بسرعـةٍ تَكسِر الأعنـاق. لكـن سـايم لم يكـن في مِـزاجٍ رائِـقٍ للمُلاطَفـات، فانتصـب واقِفًـا في عربتـه صائحًـا، "أوقفـوا اللـص!" حتـى هـرع المـارة بجـوار عربتـه، وبـدأ رجـال الشرطـة في التوقُّـف وطَـرحِ أسـئلة. كل هـذا كان لـه تأثـيره عـلى سـائق عربـة الرئيـس، الـذي بـدأ في التطلُّـع بشَـكٍّ، وأبطـأ عربتـه تدريجيًـا. ثـم فتـح مشـبَكَ الحاجـز للتحـدُّث بعقلانيَّـةٍ مـع زبونـه، وفي فعلـه هـذا تـرك السَّـوطَ الطويـل متراخيًـا عـلى مقدِّمـة العربـة. انحنـى الأحـد للأمـام، قبـض عليـه، وانتزعـه بعُنـفٍ مـن يَـدِ الرجـل. ثـم واقفًـا في مقدِّمـة العربـة بنفسـه، جَلَـدَ الحصـانَ وزَمجَـرَ عاليًـا، حتـى أصبحـوا ينهبـون الشـوارع كعاصفـة طائِـرَةٍ. شـارعًا بعـد شـارعٍ، وميدانًـا بعـد ميـدان انطلقـت هـذه العربـة المدوِّمَـة المسـتحيلة، التـي كان راكبهـا يحـثُّ الحصـان عـلى الخَبَـب، وسـائقها يحـاول يائسًـا إيقافَهـا. جـاءت العربـات الثـلاث الأخـرى في إثرهـا (إذا كانـت العبـارة مقبولـة لعربـة تجرُّهـا الخيـول) ككلابٍ لاهثـة. الدكاكـين والشـوارع وكأنهـا تُـضرَب بأسـهُمٍ مُجَلجِلَـة.

في ذروة نشـوة السرعـة، اسـتدار الأحـدُ عـلى الجـدار الفاصـل حيـث يقـف، ومُـبرِزًا رأسـه العَبـوسَ الهائِـلَ مـن العربـة، بشَـعرِه الأبيـض يتطايـر

في الهواء، نظر إلى مُلاحِقيه بوجهٍ مُفزِعٍ، وكأنه قُنفذٌ عملاقٌ. ثم رافعًا يده اليمنى بسرعة، طوَّح بَكُرَةٍ من الورق في وجه سايم واختفى. أمسك سايم بالشيء أثناء محاولَةِ تَحاشيها غريزيًّا، ثم اكتشف أنها تتكوَّن من ورقتين مُتغضِّنَتَيْن. واحدة موجَّهةٌ له والأخرى لدكتور بولْ، بسلسلة طويلة -تَهكُّميَّة ربما- من الأحرُفِ بعد اسمه. كانت تحيَّات وألقاب دكتور بولْ -على أيِّ حال- أطولَ كثيرًا من الرسالة الموجَّهة له؛ ذلك أن الرسالة نفسها لم تتكوَّن سوى من الكلمات:

"ماذا بشأن مارتن تابر[1] الآن؟".

"ماذا يعني ذلك المختَلُّ العجوز؟"، سأل بولْ، محدِّقًا في الكلمات. "ماذا تقول رسالَتُكَ يا سايم؟".

كانت رسالة سايم رغم ذلك أطولَ، وتقول التالي:

"لا أحد سيندم مقدارَ نَدَمي على أي شيء بسبب طبيعة تدخُّل رئيس الشَّمامِسَة. أثق أن الأمر لن يَصِلَ إلى ذلك. لكن، للمرَّة الأخيرة، أين أحذيتكم المطَّاطِيَّة؟ المسألة في غاية السوء، خاصة بعد ما قاله العم".

بدا سائق عربة الرئيس وأنه يستعيد بعضَ السيطرة على حصانه، والملاحِقون قد تقدَّموا قليلًا مع زَحفِهم دائرين للدخول إلى طريق إدجوير. وهنا حدث ما بدا للحُلَفاء أنه توقُّفٌ في صالحهم. ففي وسط حركة المرور من كل نوع، التي كانت تتوقَّف أو تنحرف يمينًا أو يسارًا، انطلقت من آخر الطريق الطويل زَمجَرَةٌ لا يمكن إخطاؤها لسيَّارَةِ إطفاءٍ، ظهرت بعد بضعِ ثوانٍ كعاصِفَةٍ نحاسيَّةٍ. لكن سريعًا بعد مرورها، كان الأحد قد قفز خارجًا من عَرَبَتِه، مُنقضًّا على سيَّارة الإطفاء، مُمسِكًا بها، ومُتدلِّيًا من عليها، وكان بالإمكان رؤيته وهو

(1) Martin Tupper (1889-1810): كاتب وشاعر إنجليزي، مُؤلِّف كتاب "فلسفة الأمثال". (المترجم)

يختفي على البُعد الضَّاجّ مُتحدِّثًا إلى رَجُل الإطفاء المذهول بإيماءاتٍ تَفسيريَّة.

"في إثره!" عوى سايم. "لن ينجح في تضليلنا الآن. لن يُخطِئَ أحدٌ سيَّارةَ إطفاء".

جَلَدَ سائقو العربات الثلاث -الذين ظلُّوا مَبهوتين لوَهلَةٍ- جيادَهم وقَلَّلوا بعض الشيء من المسافة بينهم وبين فريستهم المختَفِيَة. اعترف الرئيس بهذا الاقتراب عبر المجيء إلى مؤخِّرة العَرَبة، مُنحَنيًا بتكرار، مُقبِّلًا يَدَيه، وأخيرًا مطوِّحًا بورقة مطويَّةٍ بعناية إلى صدر المفتِّش راتكليف. عندما فتحها الجنتلمان، ليس بلا بنفادِ صَبرٍ، وجد أنها تحتوي على الكلمات:

"اهربْ على الفور. الحقيقة بشأن مشدَّات سروالِكَ أصبحت معروفةً.

الإمضاء: صديق".

كانت سيارة الإطفاء قد اقتربت من الشمال، في منطقة لم يتعرَّفوا عليها؛ ومع جَرْيِها بجانب خَطٍّ من الأسوار العالية المظلَّلة بالأشجار، جَفَلَ الأصدقاءُ السِّتَّة، لكنهم شعروا ببعض الارتياح بسبب رؤيتهم للرئيس يقفز من سيارة الإطفاء، رغم عدم تبيُّنِهم ما إذا كان ذلك بسبب نَزوةٍ أخرى أو الاعتراض المتزايد لمستضيفيه. رغم ذلك، وقبل أن تتمكَّن العربات الثلاثة من الوصول إلى تلك البُقعَة، كان الرئيس قد تسلَّق الأسوار العالية كقِطٍّ رَماديٍّ ضخم، وطوَّح بنفسه من فوقها، ثم اختفى في ظلام الأوراق.

بإيماءة غاضِبَةٍ أوقف سايم العَرَبَةَ، قفز خارجًا منها، وانقضَّ بدوره مُتسلِّقًا الأسوار. بعد أن وضع قدمًا واحدة فوق السور، يتبعه أصدقاؤه، استدار بوجهه إليهم شاحِبًا بشدَّة في الظِّلِّ.

"ما هـذا المـكان؟" سـألهم. "هـل يمكـن أن يكـون مَنـزِلَ الشـيطان العجـوز؟ سـمعتُ أنـه يمتلـك منـزلًا في شـمال لنـدن".

"هـذا أفضـلُ كثـيراً"، قـال السـكرتير مُتجهـمًا، مُثبِّتًـا قَدَمَـه، "سـنجده في منزلـه".

"لا، لكنـه ليـس كذلـك"، قـال سـايم، عاقِـدًا حاجِبَيْـه. "يتناهـى إلى سـمعي أبشـعُ أشـكال الضَّجيج، وكأنها شـياطين تضحـك وتعكـس وتنفـخ أنوفهـا الشـيطانية".

"إنها كلابه تنبح بالطبع"، قال السكرتير.

"لمـاذا لا تكـون خَنافِسُـه السـوداء تنبـح!" قـال سـايم بغضـب، "الحلزونـات تنبـح! نباتـات الغرانيـق تنبـح! هـل سـمعت مـن قبـل كلبًـا ينبـح هكـذا؟".

أمسـك بيـده عاليًـا، وهنـا خَرَجَـت مـن الأجَمَـةِ زمجـرَةٌ هـادِرَةٌ طويلـة، بَـدَت وكأنهـا تنسـلُّ إلى مـا تحـت الجلـد وتُجَمِّـد اللحـم- زَمجَـرَةٌ مُهَيِّجـة واطئـة جعلـت الهـواء ينبـض مـن حولهـم.

"كلاب الأحد لن تكون كلابًا عاديَّةً"، قال جوجول، مُرتَعِشًا.

كان سـايم قـد قفـز عـلى الجانـب الآخـر، لكنـه وقـف منتبِـهَ السَّـمع بنفـادِ صَـبرٍ.

"حسـنًا، أَنصِتـوا إلى هـذا"، قـال لهـم، "هـل هـذا كلـب، كلـبُ أيِّ إنسـان؟".

هنـا تحطَّمَـت آذانُهـم بـصراخٍ خَشِـن كـما لـو كان صراخ أشـياء تحتـجُّ وتصطخـب بألَـمٍ مُفاجِـئ؛ وبعدهـا، كـما لـو كان صـدى، مـا بـدا كنفـيرٍ أنفـيٍّ طويـل.

"حسـنًا، لا بُـدَّ أن هـذا المنـزل هـو الجحيـم ذاتـه!" قـال السـكرتير: "وإذا كان هـو الجحيـم بالفعـل، فأنـا دالِـفٌ إليـه!"، ثـم قفـز عـبر الحواجـز الطويلـة بأرجَحَـةٍ واحـدة بالـكاد.

تَبِعَـه الآخـرون. اخترقـوا تشـبيكةً مـن النباتـات والأَجَمَـة الصغـيرة، وخرجـوا إلى مَـرْجٍ خـالٍ مـن النباتـات. لا شيءَ يبـدو أمـام نظرهـم، لكـن دكتـور بـول ضرب بيديـه معًـا فجـأة.

"يا لكم من حمقى"، صاح قائلًا، "إنها حديقة الحيوانات!".

فيـما هـم يتطلَّعـون حولهـم بجنـونٍ بحثًـا عـن أي أثـر لفريسـتهم البرِّيَّـة، تقـدَّم حـارِسٌ بِـزِيٍّ رَسـميٍّ عـلى طـول المسـار بصُحبَـةِ رَجُـلٍ بملابِـسَ عاديَّـةٍ.

"هل جاء من هذه الناحية؟" قال الحارس لاهِثًا.

"هل ماذا؟" سأله سايم.

"الفيل!"، صاح الحارس. "لقد جُنَّ جُنون أَحدِ الفِيَلَةِ وفَرَّ بعيدًا!".

"لقـد فـرَّ مـع چنتلـمان عجـوز"، قـال الغريـب الآخـر مُنقَطِـعَ الأنفـاس، "چنتلـمان عجـوز بائِـسٌ بِشَـعْرٍ أبيـض!".

"أي نوع كان من الچنتلمانات العجائز؟" سأل سايم، بفضولٍ كبير.

"چنتلـمان عجـوز ضخـم وبديـن جـدًّا بملابِـسَ رَماديَّـةٍ فاتحـة"، قـال الحـارس بحـماس.

"حسـنًا"، قـال سـايم، "إذا كان مـن ذلـك النـوع مـن الچنتلمانـات العجائـز، وإذا كنـتَ عـلى يقـينٍ تـامٍّ بأنـه چنتلـمان عجـوز بديـنٌ وضَخـمٌ بملابـس رماديـة؛ فلـك أن تتأكَّـد أن الفيـل لـن يمـضي بعيـدًا معـه. لقـد فـرَّ عـلى ظهـر الفيـل، والله لم يخلـق الأفيـال حتـى تهـرب بعيـدًا مـع ذلـك الرجـل إذا لم تُوافِـقْ عـلى الهـروب. ولكـن، بِحَـقِّ الصواعـق، هـا هـو!".

لم يراودهم أيُّ شَكٍّ بخصوصه هذه المرة؛ ذلك أنه عَبرَ مساحَةٍ مفتوحَةٍ من الأعشاب، على بُعد مائتي ياردة تقريبًا، مع حَشْدٍ يصرخ ويُسرِعُ هاربًا بلا جدوى على أعقابه- انطلق فيلٌ رَمادِيٌّ عِملاقٌ بخطواتٍ هائِلَة، بخرطومِه، مُرسَلًا بصَلابَةٍ كصاري السَّفينة المائلة، ونافِرًا نفيرَ يوم البعث. على ظهر الحيوان المندفع المُجَعْجِعِ كان يجلس الرئيسُ الأَحدُ بكلِّ الهدوء اللائق بسُلطان، لكنْ ناخِسًا الحيوان إلى سُرعَةٍ مهتاجَةٍ بجسمٍ ما في يده.

"أوقِفوه!"، صاحت الجُموعُ. "سيخرج من البوابة!".

"أوقِفوا انهيارًا سيقع!" صاح الحارس. "لقد أصبح خارجَ البوَّابة!".

وحتى بينما يتحدَّث، أعلن تحطُّمٌ نهائيٌّ وهَديرٌ من الرُّعب عن أن الفيلَ الرَّماديَّ العظيم قد حطَّم بوَّابات "زولوچيكال جاردنز" خارِجًا منها، وأصبح الآن يعدو مُسرِعًا على طول شارع ألبيني كنوعٍ جديد وسريع من الحافلات.

"يا إلهي العظيم!" صاح بول، "أبدًا لم أَرَ فيلًا بإمكانه الرَّكضُ بهذه السرعة. حسنًا، لا بُدَّ أنها عربات الخيل ثانيةً إذا أردنا اللحاق به".

بينما هم يسرعون إلى البوابة التي كان الفيل قد خرج منها واختفى، شعر سايم ببانوراما متوهِّجة من الحيوانات الغريبة في الأقفاص التي مرُّوا بها. فكَّر بعد ذلك أنه كان من الغريب أن يراها بهذا الوضوح. تذكَّر على نحوٍ خاصٍّ رؤيةَ البَجَع، بأعناقها المتدلِّية، المستحيلة. تساءل لماذا كانت البجعة رمزًا للإحسان، وقال لنفسه ربما لأن الأمر يتطلَّب قدرًا هائلًا من الإحسان حتى يُعجب المرءُ بطائِرِ البَجَع. تذكَّر طائر "أبو قرن"، الذي لم يكن سوى منقارًا أصفرَ هائِلًا بطائِرٍ صغيرٍ مربوط وراءه. في المجمَل انتابَهُ شعورٌ، لم يكن ليقدر على تفسيرِ حيويَّتِه، بأن الطبيعة دائمًا ما تُطلِقُ دُعاباتٍ في غاية الغموض.

كان الأحد قد أخبرهم أنه سيفهمونه عندما يفهمون النجوم. تساءل ما إذا كان باستطاعة رؤساء الملائكة أنفسهم فهم طائر "أبو قرن".

اندفع المحقِّقون السِّتَّة التُّعَساء إلى داخل العربات ولَحِقوا بالفيل آخِذين نَصيبَهم من الرُّعبِ الذي يَنشُرُه عبر الامتداد الطويل للشوارع. في هذه المرَّة لم يستَدِر الأحد، لكنه قدَّم لهم الامتدادَ الصُّلبَ لظهره غير الواعي، وهو ما أثار جنونهم، إنْ كان هذا مُمكِنًا، أكثر من سخرياته السابقة. إلَّا أنه قبل وصولهم إلى شارع بيكر بلحظات، كان يمكن رؤيته يُطوِّح بشيء ما بعيدًا في الهواء، كما يفعل الصِّبيانُ عادةً في الكرة مع الإشارة إلى التقاطها ثانيةً. لكن بسرعة سباقهم هذه سقَطَت الكرة بعيدًا وراءهم، بالضبط بجوار العربة التي تضمُّ جوجول؛ وعلى أملٍ خافِتٍ ما بمفتاحٍ لحَلِّ اللغز، أو نتيجة دافع ما لا يمكن تفسيره، أوقف عَرَبَتَه لالتقاطها. كانت مُوجَّهَةً لها، على شكل صُرَّة ضخمة بعض الشيء. إلَّا أنه عند فحصها، اكتشف أنها تتكوَّن من ثلاث وثلاثين قصاصة ورقية بلا قيمة، ملفوفة حول بعضها البعض. وعند تمزيقه للغطاء الأخير؛ تكشَّف في النهاية عن رُقاقَةٍ صغيرة من الورق، مكتوبٌ عليها:

"الكلمة، أعتقد، هي (وردي)".

لم يَقُل الرجل الذي عُرِفَ ذات مرَّةٍ باسم جوجول شيئًا، لكن حركات يديه وقدَمَيْه كانت كحركات رَجُلٍ يَحثُّ جوادًا على الخَبَبِ من جديد.

شارعًا إثرَ شارِعٍ، وحيًّا إثرَ حَيٍّ، انطلَقَت مُعجِزَةُ الفيل الطائر، مُناديًا الجموع إلى كلِّ نافذة، ومُسَيِّرًا العَرَبات في الشارع يمينًا ويسارًا. ورغم ذلك، عبر كل هذا الاستعراض المجنون، كافَحَت العربات الثلاثُ للَّحاق به، حتى أصبحت جزءًا من المسيرة، وربما الإعلان عن سيرك. انطلقت بتلك السرعة حتى ضاقت المسافاتُ بينها بشكل لا يُصدَّق،

وحتى رأى سايم ألبرت هول في كينسنجتون فيما كان يعتقد أنه ما زال في بادينجتون. كانت خطوة الحيوان أكثرَ سُرعَةً وحرِّيَّةً عبر الشوارع الأرستقراطية الخاوية لجنوب كينسنجتون، وفي النهاية اتَّجه نحو ذلك الجزء من خَطِّ الأفق حيث تنتصب عَجَلَة "إيرلز كورت" الهائلة عاليًا في السماء. ازدادت العجلة ضخامةً، حتى مَلأت السماوات بالكامل كعَجَلةِ النجوم.

نجح الوحش في تخطِّي العربات. فقدوا أثره حول زوايا كثيرة، وعندما وصلوا إلى واحدة من بوَّابات معرض "إيرلز كورت" اضطرُّوا إلى التوقُّف أخيرًا. أمامهم كان زحامٌ هائلٌ؛ وفي وسطه كان فيلٌ هائلٌ، مُهتاجٌ ومُضطَرِبٌ تمامًا كالمخلوقات عديمة الشَّكل. لكنَّ الرئيس كان قد اختفى.

"إلى أين ذهب؟" سأل سايم، مُنزَلِقًا إلى أرضيَّة الشارع.

"لقد أسرع الچنتلمان إلى المعرض، يا سيدي!" قال لهم أحد المسؤولين مذهولًا. ثم أضاف بصوتٍ جريح: "چنتلمان لطيف، يا سيدي. طلب منِّي أوَّلًا أن أُمسِكَ بفيلِه، وأعطاني هذه".

أخرج لهم بامتعاضٍ قِطعَةً مَطويَّةً من الورق، مُوجَّهَةً إلى: "سكرتير المجلس المركزي للفوضويِّين".

مزَّقها السكرتير، غاضِبًا، لفتحها، ووجد مكتوبًا داخلها:

"عندما تمضي سمكة الرَّنجة مِيلًا؛

لِيَبتَسِمْ السَّكرتير؛

وعندما تحاول الطيران،

فَليَمُتْ السَّكرتير.

حكمة ريفيَّة".

"لماذا بحَقِّ المسيح الخالد"، بدأ السكرتير قائلًا، "سَمَحتَ للرَّجل بالدخول؟ هل يأتي الناس عادةً إلى معرِضِكَ راكبين أفيالًا مجنونة؟ هل...".

"انظروا!" صاح سايم فجأةً. "انظروا هناك!".

"ننظر إلى ماذا؟" سأله السكرتير بوحشيَّة.

"انظروا إلى البالون المقيَّد!" قال سايم، مشيرًا إليه بجنون.

"لماذا بحقِّ الجحيم قد ننظر إلى بالونٍ مُقيَّد؟" سأله السكرتير.

"ما الغريب في بالون مُقيَّد؟".

"لا شيءَ"، قال سايم، "باستثناءِ أنَّه ليس مُقيَّدًا!".

استداروا بأعينهم جميعًا إلى حيث يتأرجح البالون وينتفخ فوق المعرض على حبلٍ رفيعٍ، كبالونِ طِفلٍ. بعد ذلك بثانِيَةٍ انقسم الحَبلُ الرفيع إلى اثنين تحت المقصورة بالضَّبط، وارتفع البالون، بعد أن انفَكَّ عِقالُه، طافِيًا إلى أعلى بِحُرِّيَّةٍ تليق بفُقَّاعةِ صابون.

"عشرة آلاف شيطان!" صرخ السكرتير. "لقد أصبح داخِلَه!" وهزَّ قَبضتَيْه إلى السماء.

وصل البالون، محمولًا برياحٍ عابِرَة، إلى فوقهم تمامًا، وكان بإمكانهم رؤيةُ الرأس الأبيض العظيم للرئيس ينطلق من الجانب ويتطلَّع بإحسانٍ إليهم من أعلى.

"لِيُبارِكْ الرَّبُّ روحي!" قال البروفسور بطريقَة العجائِزِ التي لم يتمكَّن أبدًا من فصلها عن لِحيَتِه المبيضَّة ووَجهِه رقيقِ الجِلد. "لِيُبارِكْ الرَّبُّ روحي! يبدو وأن شيئًا قد سقط على أعلى قُبَّعتي!".

رفـع يـدًا مُرتَعِشَــةً وتنــاول مــن حافَّــة القُبَّعــة قطعــةَ ورقٍ مُلتويــة، ثـم فتحهـا بذهـن شـاردٍ ليكتشـف أنهـا منحوتـة بعُقـدَةِ عاشـقٍ حقيقيَّـة، وتحمــل الكلــمات:

"جَمالُكِ لم يُخَلِّفني لا مُباليًا.

الإمضاء: قطرةُ جليدٍ صغيرة".

غَشِيَهم صَمتٌ قصير، ثم قال سايم، عاضًّا على لِحيَتِه:

""لم أهــزَمْ بَعــدُ. ذلــك الــشيء اللعــين حتــمًا ســيهبطُ في مــكانٍ مــا. لِنَتبَعْــهُ!".

الفصل الرابع عشر

الفَلاسِفَةُ السّتَّة

عَـبرَ الحقـول الخـضراء، مُقتَحِمـين السِّـياجات المزدهرة، ناضـلَ المحقِّقون السِّـتَّة المشرَّدون طـوال خمسـة أميـال تقريبًـا خـارج لنـدن. كان المتفائـل في تلـك العُصبـة قـد اقـترح أنَّ عليهـم أوَّلًا أن يتبعـوا ذلـك البالـون عـبر جنـوب لنـدن في عربـات تجرُّهـا الجِيـادُ. لكنـه تَراجَـع في النهايـة؛ نتيجـةَ الرَّفـضِ المسـتَمِرِّ للبالـون أن يتبـع الطُّـرقَ العاديـة، والرفـض الأكـثر عِنـادًا مـن جانـب سـائقي العربـات أن يتبعـوا البالـون. بالتـالي فـإن المسـافرين الذيـن لا يعرفـون الكَلَـلَ، المغتاظـين رغـم ذلـك، اقتحمـوا الأَجَمَـةَ السـوداء وزحفـوا عـبر الحقـول المحروثـة حتَّـى تحـوَّل كلٌّ منهـم إلى شـكلٍ بَـشَريٍّ مُخـزٍ جـدًّا، لِحَـدِّ أنهـم بَـدَوْا كصعاليـكَ عـلى نَحـوٍ لا يُمكِـنُ إخطـاؤه. شَـهِدَت حقـولُ "سـارِّي" الخـضراء هـذا الانهيـارَ الأخـير ومأسـاة الحُلَّـة الرَّماديَّـة الفاتحـة البديعـة التـي انطلـق سـايم وهـو يرتديهـا مـن سـافرون بـارك. انْثَنَـت قُبَّعَتُـه الحريريـة عـلى أنفـه بسـببِ غُصـنٍ مُتأرجِـحٍ،

وتَمزَّقَـت أطـراف معطَفِـه حتـى الكتـف بسـبب أشـواكٍ مُعيقَـةٍ، وانتـثر طمـيُ إنجلـترا حتـى ياقَتِـه؛ لكنـه مـا يـزال يحمـل لِحيَتَـه الصَّفـراءَ قُدُمًـا بعـزمٍ صامِـتٍ وغاضِـب، بعينَيْـه مُثبَّتَتَـيْن عـلى كُـرَةِ الغـاز الطافيـة، التـي بَـدَت في الاحمـرار الكامـل لغـروب الشـمس وقـد تلوَّنَـت كسَـحابَةٍ تحـت الشــمس الغارِبــة.

"أيًّا كان الأمر"، قال لهم، "فإن المشهد جميل!".

"إنـه جميـل عـلى نحـوٍ عجيـب وفريـد!" قـال البروفسـور. "أتمنَّــى أن تنفجـر حقيبـةُ الغـاز البهيميَّـة تلـك!".

"لا"، قــال دكتــور بــولْ، "آمــل ألَّا تنفجــر؛ حتــى لا تــؤذي الصَّبــيَّ العجــوز".

"تؤذيـه!"، قـال البروفسـور المحـبُّ للانتقـام، "تؤذيـه! لكـن ليـس بقـدر إيـذائي لـه لـو تَمكَّنـتُ مـن الصُّعـود إليـه. قطـرة الثلـج الضئيلـة تلـك!".

"لا أرغب في إيذائه، بشكلٍ ما"، قال دكتور بولْ.

"مـاذا!"، صـاح السـكرتير بمـرارَةٍ. "هـل تُصدِّقـون حكايـة أنـه رَجُلُنـا في الغُرفَـةِ المظلِمَـة؟ قـد يقـول الأَحَـدُ إنـه أي شـخص".

"لا أعـرف مـا إذا كنـتُ أصدِّقهـا أم لا"، قـال دكتـور بـولْ. "لكـن ليـس هــذا مـا أعنيـه. لا يمكننـي تَمنِّـي انفجـار بالـون الأحـد العجـوز؛ فقـط بســبب...".

"حسنًا"، قال سايم بنَفادِ صَبرٍ، "بسبب؟".

"حســنًا، لأنــه مُبهِــجٌ جِــدًّا تمامًــا كالبالــون نفســه"، قــال دكتــور بــولْ بيـأس. "لا أفهـم كلمـةً مـن فكـرة كَونِـه نَفـسَ الرَّجُـل الـذي منحنـا جميعًـا بطاقاتنـا الزرقـاء. يبـدو الأمـر وكأنـه يجعـل مـن كلِّ شَيءٍ هُـراءً لا معنـى لـه. لكننـي لا أهتـم بمَـن يَفهَمُـه؛ ذلـك أننـي دائمًـا مـا تعاطَفـتُ مـع الأحد العجـوز نفسـه، رغـم كونـه شريـرًا. تمامًـا كـما لـو كان رضيعًـا مُتقافِـزًا

هائـلًا. كيـف يمكنني تفسير تعاطُفـي العجيب هـذا؟ إنـه لا يمنعنـي مـن قتالـه كالجحيـم! هـل سـيصبح الأمـر واضحًـا إن قلـتُ إنـه يعجبنـي لأنـه بديـن جـدًّا؟".

"لا، لن يكون واضحًا"، قال السكرتير.

"لقـد فهمـتُ الآن"، صـاح بـولْ، "لقـد أثـار إعجـابي لأنـه بديـنٌ جـدًّا وخفيـفٌ جـدًّا. تمامًـا كالبالـون. دائمًـا مـا نعتقـد أن البدينـين ثقيلـون، لكنـه كان قـادِرًا عـلى منافسـة حوريَّـةٍ سَـماويَّةٍ في الرَّقـص. أرى الآن مـا أعنيـه. القـوة المعتدلـة تظهـر في العنـف، والقُـوَّة الفائقـة تظهـر في الخِفَّـة. كان الأمـر كالتنبُّـؤات القديمـة- مـاذا سـيحدث إذا اسـتطاع فيـل القفـز عاليًـا في السَّـماء كالجُنـدُب؟".

"فيلُنا"، قال سايم، متطلِّعًا لأعلى، "قد قفز إلى السماء كجُندُب".

"وبِشَـكلٍ مـا"، اسـتنتج بـولْ، "لهـذا لم يَسَـعني سـوى الإعجـاب بالأحـد العجـوز. لا، إنـه ليـس إعجابًـا بالقُـوَّة، أو بـأيِّ شيءٍ سـخيف كالقُـوَّة. أرى نوعًـا مـن البهجـة في المسـألة، كـما لـو أنـه ينفجـر دَومًـا بأخبـار جيِّـدة مـا. ألم تشـعروا بذلـك أحيانًـا في يـومٍ رَبيعـيٍّ؟ تعرفـون أن الطبيعـة تلعـب مكائِدَهـا، لكـن بشـكلٍ مـا فـإن ذلـك اليـوم أثبـت أنهـا مَكائِـدُ ذات طبيعة خَـيِّرَة. لم أقـرأ الإنجيـلَ بنفسـي أبـدًا، لكـنَّ ذلـك الجـزء الـذي يثـير الضحـك هـو حقيقـةٌ حرفيًّـا، "لمـاذا تقفزيـن، أنـتِ أيَّتُهـا التِّـلال؟" التـلال تقفـز حقًّـا- عـلى الأقـل، تُحـاوِلُ أن... لمـاذا أنـا مُعجَـبٌ بالأَحَـد؟... كيـف يُمكِنُنـي أفسِّر لكـم؟... لأنَّـه صاخِـبٌ ومَـرِحٌ لا نَحـوَ ولا مَثيـلَ لـه".

غَشِيَهم صمتٌ طويل، ثم قال السكرتير بصوتٍ غريبٍ، متوتِّر:

"لا تعرفـون الأحـد عـلى الإطـلاق. ربمـا لأنكـم أفضـل منِّـي، وأنكـم لا تعرفـون شـيئًا. كنـتُ رجـلًا مُهتاجًـا، ومُتمارِضًـا عابِثًـا. اختـارني الرَّجـلُ الـذي يجلـس في الظـلام، ذلـك الـذي يختارنـا جميعًـا؛ لأننـي كنـت أبـدو بالمنظـر المجنـون للمتآمِريـن تمامًـا- لأن ابتسـامتي كانـت مُنبَعِجَـة،

وعيناي مُتجهِّمَتَيْن، حتى عندما أبتسم. لكن لا بُدَّ أن هناك شيئًا آخر داخلي أثار أعصاب كُلِّ هؤلاء الرجال الفوضويِّين؛ ذلك أنني عندما رأيتُ الأحدَ لأوَّل مرَّةٍ رأيتُ فيه، ليس حيويَّتكم الوهميَّة، بل شيئًا ما خطيرًا وحزينًا في طبيعة الأشياء. وجَدتُه يُدَخِّن في غُرفَةٍ مُظلِمَة، غرفة ذات ستائر بُنِّيَّة مُسدَلَة، كئيبة على نحوٍ لا نهائي مُقارَنَةً بالظلام المعتدل الذي يعيش فيه سيِّدُنا. كان يجلس هناك على مقعد طويل، كومةً هائلة على شكل رَجُلٍ، قاتم بلا شكل. أنصتَ إلى كُلِّ كلماتي دون أن ينطق بكلمةٍ أو يُبدي أيَّ حركة. صببتُ عليه توسُّلاتي الأكثر اتِّقادًا، وطرحتُ أسئلتي الأكثر بلاغةً. وبعد صَمتٍ طويل، بدأ الشيء في الاهتزاز، واعتقدتُ أنه يهتزُّ بسبب مرضٍ ما خفيٍّ. كان يهتزُّ كهُلامٍ مُقزِّزٍ حَيٍّ. ذكَّرني بكُلِّ شيء قرأتُه عن الأجسام الأساسية التي هي أصل الحياة- الرُّكامات والبروتوبلازم في البحر العميق. لم يكن أمامي سوى إخبارِ نفسي، من ارتعاشاته، أن ما يحدث قد يعني أن هذا الوَحش كان بائسًا ربَّما. ثم جَفَلتُ عندما رأيتُ أن الجبل البهيميَّ كان يهتزُّ بضِحكَةِ الوحدَة، وأن الضحكة كانت مُوجَّهَةً لي. هل تطلبون منِّي أن أغفِرَ له ذلك؟ ليس من الهيِّن أن يكون المرءُ مَوضِعَ ضحكٍ من قِبَل شيءٍ ما أدنى وأقوى منه في نفس الوقت".

"بالتأكيد، أنتُم يا رفاقي تُبالِغون بتوحُّشٍ"، قاطَعَه الصَّوتُ الواضح للمُفتِّش راتكليف. "الرئيس الأحد رَجُلٌ مُريعٌ بالنِّسبة لإدراكنا، لكنه ليس مَسخًا في سيرك بارنوم كما تَظنُّون. لقد استقبلني في مكتبٍ عاديٍّ، مُرتَدِيًا مِعطفًا كاروهات رماديًّا، في وَضَحِ النهار. تَحدَّث إليَّ بطريقةٍ عادية. لكن لِأَقُلْ لكم ما هي التَّفصيلَةُ المرعِبَة بشأن الأحد. غرفته مُرتَّبة، ملابِسُه مُهندَمَة، كلُّ شيء يبدو مُنظَّمًا؛ لكنه شارِدُ الذِّهن. أحيانًا ما تُصاب عيناه البرَّاقتان الهائلتان بالعَمَى الكامِل. لساعاتٍ يَنسى أنَّنا في حَضرَتِه. لكنَّ غيابَ الذِّهن هذا قد يكون مسألةً مُخيفَةً للغاية في رجُلٍ سيِّئ؛ فنحن نرى الأشرار يَقِظين تمامًا. لا يمكننا تَخيُّل

رجُلٍ شرِّيرٍ حالِمٍ على نَحوٍ صادِقٍ ومُخلِص؛ لأننا لا نجرؤ على التفكير في رَجُلٍ شرِّير وهو وحيدٌ مُختَليًا بنفسه. رجُلٌ غائِبُ الذِّهن يعني رَجُلًا ذا طبيعة خَيِّرة. يعني رجلًا -إذا صادَفَ ورآكَ- على استعدادٍ للاعتذار. لكن هل سَمِعتُم من قبل عن رَجُلٍ غائِبِ الذِّهن على استعداد -إذا صادف ورآكَ- لِقَتلِكَ؟ هذا ما يُنهِكُ الأعصابَ، شرود الذهن مُجتَمِعًا مع القسوة. يشعر به الرِّجالُ أحيانًا عندما يمضون عبر الغابات البرِّيَّة، ويَشعرون أنَّ الحيوانات بريئةٌ وعديمةُ الشَّفَقة في آنٍ. قد يتجاهلونها أو يَذبحونها. هل تُحِبُّون قضاءَ عَشرِ ساعاتٍ قاتِلَة في رَدهَةِ استقبالٍ مع نَمِرٍ شارِدِ الذِّهن؟".

"وكيف ترى الأحد، يا جوجول؟" سأله سايم.

"لا أنظُرُ إلى الأحد من ناحية المبدأ"، أجابه جوجول ببساطَةٍ، "بأكثر ممَّا أُحدِّق في شمس الظهيرة".

"حسنًا، هذه وجهة نظر"، قال سايم متأمِّلًا. "ما رأيُكَ، يا بروفسور؟".

كان البروفسور يخطو برأسٍ مُنحنٍ وساحبًا عصاه وراءه، ولم يُجِب على الإطلاق.

"استيْقِظْ، يا بروفسور!" قال سايم بابتهاج. "أخبرنا بما تظنُّه في الأحد".

تحدَّث البروفسور أخيرًا ببطء شديد.

"أظنُّ فيه شيئًا ما"، قال له، "لا يمكنني التعبير عنه بوضوح. أو أنني، بالأحرى، أظنُّ فيه شيئًا لا أستطيع التفكير فيه بوضوح. لكنه قد يكون قريبًا من هذا. حياتي الأولى -كما تعرفون- كانت كبيرة جدًّا ومُنفَلِتَةٌ جدًّا".

"حسنًا، عندما رأيتُ وجه الأحد اعتقدتُ أنه كبيرٌ للغاية- الجميع يعتقد ذلك، لكنني اعتقدتُ أيضًا أنه كان مُنفلتًا جدًّا. الوجه كان كبيرًا جدًّا، لِحَدٍّ أن المرء لا يُمكِنُه مَلءُ نظره به وإدراك أنه وجهٌ على الإطلاق. كانت العين بعيدةً جدًّا عن الأنف، لحَدٍّ أنها لم تكن عينًا. والفَم مُفرِطًا جدًّا في حَدِّ ذاته، لِحَدٍّ أن المرء يضطرُّ للتفكير فيه بمفرده. المسألة بأكمله عَصِيَّة على التفسير".

توقَّف عن الحديث لبرهة، ساحبًا -ما زال- عصاه، ثم تابع قائلًا:

"لَكِنْ لِنَقُلْ إنها كانت كما يلي. سائرًا على طريق ليلًا، رأيتُ حَمَلًا، ونافِذَةً مُضاءةً وسَحابةً تصنعان معًا وجهًا مكتمِلًا تمامًا لا يمكن إخطاؤه. إذا تمتَّع أيُّهم بذلك الوجه في الفردوس فسأعرفه مجدَّدًا، مع ذلك، عندما سِرتُ أبعَدَ قليلًا اكتشَفتُ أنه لم يكن هناك وجهٌ، وأن النافذة كانت على بُعدِ عشر ياردات، وأن الحَمَل على بُعدِ مائة ياردة، وأن السحابة وراء العالم. حسنًا، أفلَتَ منِّي وَجهُ الأحَدِ؛ هرع بعيدًا إلى اليمين واليسار، تمامًا كما تفرُّ الصور التي تطرأ صُدفَةً على ذهن المرء. لكلِّ ذلك؛ جَعَلَني وجهُه -بشكلٍ ما- مُتشكِّكًا بشأن ما إذا كانت هناك أيَّة وجوه. لا أعرف ما إذا كان وجهك، يا بولْ، وجهًا فِعلًا أم تَجميعًا لمجموعة احتمالات في المنظور. قد يكون قُرصٌ أسودُ واحِدٌ من عُوَيناتِكَ البهيميَّة قريبًا جدًّا، والآخر على بُعدِ خمسين ميلًا. أوه، إن شكوكَ صاحب المذهب المادِّيِّ لا تساوي قمامَةً. علَّمَني الأحَدُ آخِرَ وأسوأ شكوكِ أصحابِ المذهَبِ الرُّوحيِّ، أنا بوذيٌّ، فيما أظنُّ، والبوذية ليست عقيدةً؛ إنها شَكٌّ. عزيزي البائس بولْ، لا أؤمن بأنَّ لديكَ وجهًا حقًّا. لا أتمتَّع بما يكفي من الإيمان للاعتقاد في المادَّة".

كانت عينا سايم مُثبَّتَتَيْن على المدار السَّماويِّ المنحرف الذي بدا، باحمراره في ضوءِ المساء، كعالَمٍ أكثر تَورُّدًا وأكثرَ براءَةً.

"هـل لاحَظْـتَ الـشيء العجيـب"، قـال، "بشـأن أوصافِـكَ؟ كلُّ رَجُـلٍ منكـم يـرى الأحـدَ بشـكلٍ مُختَلِـفٍ تمامًـا عـن الآخـر، مـع ذلـك فـإن كلَّ رَجُلٍ منكـم لا يمكنـه سـوى إيجـادِ شيء واحِـدٍ لمقارَنَتِـه بـه- الكـون نفسـه. يـراه بـولْ كالأرضِ في الربيـع، وجوجـول كالشَّـمس في نهـارِ ظَهـيرَةٍ. بينـما يُذكِّـر السـكرتيرِ بالبروتوبـلازم عديمَـةِ الشَّـكل، والمفتـش بـلا مُبـالاة الغابـات العـذراء. في حـين يقـول البروفسـور إنـه يُشـبِهُ مَشـهدًا طبيعيًّـا مُتغـيِّرًا. هـذا غريـب، لكـنَّ الأكـثرَ غَرابَـةً أنني أيضًـا لـديَّ فكـرتي العجيبـة عـن الرئيـس، وأنـا أيضًـا أظـنُّ في الأحـد مـا أظنُّـه في العالَـم بأكمَلِـه".

"تابـع بشَـكلٍ أسرعَ قليـلًا، يـا سـايم"، قـال بـولْ؛ "لا تَشـغَلْ بالَـكَ بالبالــون".

"عندمـا رأيـتُ الأحـدَ للمـرَّة الأولى"، قـال سـايم ببُـطءٍ، "لم أرَ سـوى ظَهـرِه؛ وعندمـا رأيـتُ ظَهـرَه، أدركـتُ سـاعتها أنـه أسـوأُ الرِّجـال طُـرًّا في العـالم. عُنُقُـه وكتفـاه كانـوا وحشـيِّين، كعُنُـقِ وكَتِفَـيِ إلـهِ القِـرَدَة. في رأسـه انحنـاءَةٌ بَشريَّـةٌ بالـكاد، كانحنـاءَةِ ثَـورٍ. واقـع الأمـر، واتَّتنـي عـلى الفـور الفِكـرَة المثـيرة للاشـمئزاز بأنـه ليـس إنسـانًا عـلى الإطـلاق، بـل بهيمـة مُتَّشِـحَة بملابـس الرِّجـال".

"تابع"، قال له دكتور بولْ.

"ثـم حَـدَثَ الـشَّيءُ الغريـب. كنـتُ قـد رأيـتُ ظَهـرَه مـن الشـارع، بينـما يجلـس في الشرفـة. ثـم دَلَفـتُ إلى الفنـدق، ومُتَّجِهًـا إلى الجانـب الآخـر منـه، رأيـتُ وجهـه في ضـوء الشـمس. أرعَبَنـي وَجهُـه، كـما حـدث مـع الجميـع؛ لكـن ليـس لأنـه كان وحشـيًّا، ليـس لأنـه كان شريـرًا. عـلى العكـس، لقـد أَرعَبَنـي لأنـه كان في غايَـةِ الجَـمال، لأنـه كان في غايـة البهاء".

"سايم"، صاح السكرتير، "هل أنتَ مريضٌ؟".

"كان وجـهَ رئيـسِ مَلائِكَـةٍ مـن الأزمنـة العَتيقـة، حاكِـمًا عـادِلًا بعـد حـروبٍ بطوليَّـةٍ. في العينـين كان ضَحِـكٌ، وفي الفـم شَرفٌ وحُـزن. كان هنـاك

نَفسُ الشَّعرِ الأبيض، ونفس الكَتِفَين الهائلتَيْن المتَّشِحتَيْن بالرَّماديِّ، اللَّتَيْن كنتُ قد رأيتهما من الخلف. لكن عندما رأيته من الخلف كنتُ متيقِّنًا أنه حيوان، وعندما رأيته من المقدِّمة أدركتُ أنه إله".

"بان"[1]، قال البروفسور حالِماً، "كان إلهًا وحيوانًا".

"وبعدها، ومُجدَّدًا ودائمًا"، تابَع سايم كرَجُلٍ يتحدَّث إلى نفسه، "كان ذلك لغز الأحد بالنسبة لي، وهو أيضًا لغز العالَم. عندما أرى ظهره المخيف، أصبح على يقينٍ بأن الوجه النبيل ليس سوى قناعٍ. عندما أرى الوجه ولو لِوَهلَةٍ، أدرك أن الظَّهر ليس إلَّا مَزحَةً مُهرِّج. السيِّئ سيِّئٌ للغاية، لحَدِّ أنه لا يَسَعُنا سوى التفكيرِ خَيرًا في الحوادث؛ والخَيِّر خَيِّرٌ للغاية، لِحَدِّ أننا نشعر بيقينٍ بأن الشَّرَّ قابِلٌ للتفسير. لكنَّ المسألة بأكملها بَلَغَت ذُروَتَها بالأمس عندما تسابَقتُ مع الأحد في عَرَبَةِ الأُجرة، وأوشَكتُ على اللحاق به طوال الطريق".

"هل كان لديكَ وقتٌ للتفكير حينَها؟" سأله راتكليف.

"الوقت؟" أجابه سايم، "نعم، من أجل فِكرَةٍ شَنيعَةٍ واحدة. تمَلَّكَتني فجأةً فكرةُ أنَّ الظَّهر الأعمى -الخاوي- لرأسه كان في الحقيقة وَجهَه- وجهًا مُريعًا، بلا أَعيُنٍ، يُحدِّق فيَّ! وتخيَّلتُ أن الشكل الذي يركض أمامي كان في الحقيقة شكلًا بشريًّا يركض للوراء، ويرقص في رَكضِه".

"مُفزِع!" قال دكتور بولْ، مُرتَعِشًا.

"مُفزِعٌ ليسَت الكلمة الملائمة"، قال سايم. "كانت بالضَّبط أسوأ لَحظَةٍ في حياتي بأكملها. ومع ذلك، بعد عشر دقائق، عندما أخرَجَ

---

(1) الإله بان (Pan): حسب الميثولوجيا الإغريقية هو إلهُ المراعي والصَّيد البرِّيِّ، بِقُرونٍ وأرجُلِ ماعِزٍ، ووَجهٍ بَشريٍّ- (المترجم)

رأسَـه مـن العربـة وتلـوَّى وَجهُـه كتماثيـل الكُرغـل[1] البشـعة النَّاتِئَـة، أدرَكْـتُ أنـه لم يكـن سـوى أَبٍ يَلعَـبُ الاسـتغمَّاية مـع أطفالـه".

"لعبـة طويلـة"، قـال السـكرتير، ونظـره إلى حذائـه الطويـل الممـزَّق عابِسًـا.

"أنصِتـوا إليَّ"، صـاح سـايم بتأكيـدٍ اسـتثنائي. "هـل لي أن أُخبِرَكُـم بِـسِرِّ العالَـم بأكمَلِـه؟ إنهـا الحقيقـة أننـا لم نعـرف سـوى ظَهـرِ العالَـم. نـرى كلَّ شيءٍ مـن الخلـف، ويبـدو وحشـيًّا. تلـك ليـس شـجرةً، بـل ظَهـرَ شَـجَرة. وتلـك ليسـت سَـحابة، بـل ظَهْـرَ سـحابة. ألا تـرون أن كُلَّ شيء ينحنـي ويُخفـي وجهًـا؟ فقـط لـو اسـتطعنا الاسـتدارةَ إلى المقدِّمـة...".

"انظُرْ"، صاح بولْ بصَخَبٍ، "البالون يهبط إلى الأرض!".

لم يَكُـن بـولْ في حاجَـةٍ للـصُّراخ مناديًـا عـلى سـايم؛ لأنـه لم يبتعـد بعينيـه أبـدًا عـن البالـون. رأى الكُـرَةَ المضيئَـةَ الهائلـة تَتمايَـلُ فجـأةً في السـماء، تُعـدِّل مـن نفسـها، ثـم تغـرق ببـطءٍ وراءَ الأشـجار كشـمسٍ غارِبَـة.

ألقـى الرَّجُـلُ المدعـو جوجـول، الـذي بالـكاد نَطَـقَ بكلمَـةٍ واحـدة طـوالَ أسـفارهم المرهقـة، بِيَدَيْـه فجـأةً كـرُوحٍ ضائِعَـةٍ.

"إنـه مَيِّـتٌ!" صـاح قائـلًا. "والآن أدرك أنـه كان صديقـي- صديقـي في الظـلام!".

"ميِّـتٌ!" نَخَرَ السـكرتير. "لـن تجـده مَيِّتًـا بسـهولة. حتـى وإن كان قـد سـقط مـن السـيارة، فسـنجده يتدحـرج كوَلَـدِ الحِصـان في الحقـول، رافِسًـا ساقَيْه مـن أجـل المتعـة".

(1) الكُرغـل أو الجرجـول هـو حيـوان أسـطوري منحـوت عـى شـكل ميـزاب في الجـدران الخارجيـة لعدد من كنائس العصور الوسطى مثل كاتدرائية نوتردام في باريس.

"تَضـارُب الحوافـر"، قـال البروفسـور. "ولـد الحصـان يفعـل ذلـك، وكذلـك بـان".

"بـان ثانيـةً!" قـال دكتـور بـول مُهتاجًـا. "يبـدو أنَّـكَ تعتقـد أن بـان هـو كلُّ شيء".

"هـو كذلـك بالفعـل"، قـال البروفسـور، "في اليونانيـة، Pan تعنـي (كل شيء)".

"لا تَنـسَ"، قـال السـكرتير، مُتطلِّعًـا للأسـفل"، أنـه أيضًـا يعنـي الفـزع (Panic)".

كان سـايم قـد انتصـب واقفًـا دون سـماع أيٍّ مـن هـذه العبـارات الانفعاليّـة.

"لقد سقط هناك"، قال بعد ذلك ببُرهَةٍ. "لِنَلحَقْ به!".

ثم أضاف بإيماءَةٍ يَتعذَّر وَصفُها:

"أوه، إذا كان قـد خَدَعَنـا بمسـألة مَقتَلِـه! فسـيكون الأمـر مُجـرَّدَ واحِـدَةٍ مـن مَزحاتِه".

خطـا مُبتَعِـدًا نحـو الأشـجار البعيـدة بطاقَـةٍ مُنتَعِشَـة، أَسـمالُه وأَشرِطَتُه تُرَفـرِفُ في الرِّيـاح. تَبِعَـه الآخَـرون بأقـدامٍ مُتقرِّحَـة وبطريقَـةٍ أكـثر تَشـكُّكًا. وتقريبًـا في نفـس اللحظـة أدرك الرِّجـال السِّـتَّة جميعهـم أنهـم لم يكونـوا بمفرَدِهـم في الحقـل الصغـير.

عـبر مُربَّـع الأرض كان رَجُـلٌ طويـلٌ يتقـدَّم ناحِيَتَهـم، مُسـتَنِدًا عـلى عصـا طويلَـةٍ غريبـةِ الشَّـكل كالصَّولجـان. كان مُتَّشِـحًا بحُلَّـةٍ راقِيَـةٍ، لكـن عـلى طـراز قديـم، بـسروالٍ يَصِـلُ إلى الرُّكبَتَـيْن، لونهـا يـتراوح بـين الأزرق، والبنفسـجي والرمـادي؛ ألـوان كان يمكـن رُؤيَتُهـا في ظِـلالٍ مُعيَّنَـة عـلى أرض الغابـة. شَـعرُه ذو لـونٍ رمـاديٍّ مُبيَـضّ، وعنـد النظـرة الأولى عليـه، ومُقارَنتـه بسرواله الـذي يَصِـلُ للرُّكبَتَـيْن، بـدا مُغبَرًّا بمسـحوقٍ رمـاديٍّ. كان

تقـدُّم الرجـل هادئًـا جـدًّا؛ ولـولا الجليـد الرمـادي عـلى رأسـه، كان بإمكانـه التَّخفـي في واحـد مـن ظِـلال الغابـة.

"يا سادة"، قال لهم، "سيِّدي ينتظركم في عَربَةٍ في الطريق المجاوِر".

"مَن هو سَيِّدُكَ؟" سأل سايم، مُنتَصِبًا بهدوءٍ ما زال.

"أُخبِرتُ أنَّكم تعرفون اسمه"، قال الرجل باحترامٍ.

غَشِيَهم الصَّمتُ، ثم قال السكرتير:

"أين هذه العَرَبَة؟".

"إنهـا تَنتَظِـرُ منـذ بضعـةِ دقائِـقَ"، قـال الغريـب. "وصـل سـيِّدي لتـوِّه إلى منزلـه".

نظـر سـايم إلى يَسـارِه ويَمِينِـه عـلى رُقعَـةِ الحقـل الأخـضر الـذي وَجَـدَ نفسـه فيهـا. كانـت الأسـيجَةُ مـن النـوع العـاديِّ، وبَـدَت الأشـجارُ أشـجارًا عادِيَّـةً؛ مـع ذلـك شَـعَرَ وكأنَّـه أسـيرٌ في أرض الجِـنِّ.

نظـر إلى المبعـوث الغامِـضِ مـن رأسـه إلى أَخمَـصِ قَدَمَيْـه، لكنـه لم يتمكَّـن مـن اكتشـاف أيِّ شيءٍ باسـتثناء أن مِعطَـفَ الرَّجُـل كان بالضَّبـطِ بِلَـون الظِّـلال الأرجوانيَّـة، وأن وجـه الرَّجُـل كان بالضبـط بلـونِ السَّـماء الحمـراء والبُنِّيَّـة والذَّهبيَّـة.

"أرشِـدنا إلى المـكان"، قـال سـايم بإيجـازٍ. بـلا كلمَـةٍ واحِـدَةٍ اسـتدار الرَّجُـلُ ذو المعطَـفِ الأرجـوانيِّ وسـار عـبر الفَجـوَةِ في السِّـياج، الـذي قادهـم فجـأةً إلى نـور طريـقٍ أبيـض.

بينـما الجوَّالـون السِّـتَّة ينسـلُّون عَـبرَ هـذا الشـارع الكبـير، رأوا الطريـقَ الأبيـض مسـدودًا بمـا بـدا أنـه صَـفٌّ طويـلٌ مـن العَرَبـات، كصفـوف العربـات التـي تنتهـي عـادةً عنـد منـزل مـا في بـارك لـين. عـلى طـولِ جانِـبِ هـذه العربـات كان يَقِـفُ طابـورٌ مـن الخَـدَم المتأنِّقـين، المتَّشـحين جميعهـم بـزِيٍّ رَمـاديٍّ أزرق، وكلهـم يتمتَّـع بخَصلَـةٍ مُعيَّنَـةٍ مـن الفخامـة

والحرية لا يتمتع بها عادةً خَدَمُ أيِّ جنتلمان، لكنها بالأحرى جديرة بمسؤولي وسُفراء مَلِكٍ عظيم. كان ما لا يَقِلُّ عن سِتِّ عَرباتٍ تَقِفُ في انتظارهم، واحدة لكلِّ واحِدٍ من العُصبَة البائسة والمنهَكَة. كان الخَدَمُ جميعهم (كما لو أنهم في بلاطٍ مَلَكيٍّ) يحملون سيوفًا، وبينما يزحف كلُّ رَجُلٍ إلى عَرَبَتِه سحبوها من أغمادها وأطلقوا تحيَّةً بانفجارٍ مُفاجِئٍ من الحديد الصُّلب.

"ماذا يعني كُلُّ هذا؟" سأل بولْ سايم أثناءَ افتراقهم. "هل هي مَزحَة أخرى من مَزحاتِ الأحد؟".

"لا أعلم"، قال سايم بينما يسترخي مُرهَقًا على وسائد عربته؛ "لكن إذا كان الأمر كهذا، فإنه واحِدَةٌ من المزحات التي سنتحدَّث عنها كثيرًا. مَزحَة خيِّرة".

كان المغامِرون السِّتَّة قد مَرُّوا بمُغامراتٍ كثيرة، لكنَّ أحدًا لم يَحمِلْهم عن الأرض على نحو مُطلَقٍ كما عرفوا في مغامرة الرفاهية الأخيرة هذه. كانوا جميعًا قد اعتادوا على أن تمضي الأمورُ على نحوٍ قاسٍ وصعب؛ لكنَّ الأمور أغرقتهم بتحوُّلها إلى السَّلاسَة والنعومة بغتةً. لم يكن بمقدورهم أن يتخيَّلوا بأيِّ شكلٍ إلى أين تمضي العَرَباتُ بِهِم؛ كان يكفيهم أن يدركوا أنها عَرباتٌ، وأنها عَرباتٌ بوسائِدَ. وأبدًا لم يتصوَّروا مَنْ هو ذلك الرَّجُلُ العجوز الذي قادهم فيها، لكن كان يكفي تمامًا أنه قد قادهم بالتأكيد إلى العَرَبات.

مَضَت عربة سايم عبرَ ظلامٍ مُنسابٍ بعُنفٍ من الأشجار في عُزلَةٍ مُطلَقَة. كان من الطبيعيِّ بالنسبة له -حامِلًا ذَقنَه الملتَحِيَةَ للأمام باهتياجٍ لأطولِ حَدٍّ مُمكِنٍ، بعد أن خرَجَت المسألةُ بأكملها من يَدِه- أن يتراجَعَ ساقِطًا على الوسائد بانهيارٍ وإجهادٍ واضِحَيْن.

على نحوٍ تَدريجيٍّ جدًّا وغامِضٍ جدًّا أدرك إلى أيِّ طُرُقٍ وافِرَةٍ كانت تحمله العربة. رأى أنهم مرُّوا بالبوَّابات الحجريَّة لما قد يكون

حديقـةً، وأنهـم بـدؤوا تدريجيًـا في صعـود تَـلٍّ كان بشـكلٍ مـا، بأشـجار علـى جانبَيْـه، أكـثر سلاسـةً مـن الغابـات. وهنـاك بـدأ يـراوده، كـما لـو كان رجـلًا يخطـو ببُـطءٍ مُسـتَيقِظًا مـن نـومٍ قريـرٍ، شـعور باللَّـذَّة في كل شيء. شـعر أن الأَسْـيِجَةَ كانـت كـما ينبغـي أن تكـونَ عليـه الأَسْـيِجَة: جـدران تغـصُّ بالحيـاة، أن الأسـيجة كجيـشٍ مُنضَبِـطٍ مـن البَشَر، وفـوق كل هـذا: أكـثر حيـاةً. رأى أشـجار الـدِّردار السَّـامِقَة وراء الأسـيجة، وفكَّـر عـلى نحـوٍ غامـض كيـف يمكـن للصِّبيـان السـعداء أن يتسـلَّقوها. ثـم اتَّخـذَت عربتُـه مُنعَطَفًـا عـلى الطريـق، ورأى بغتـةً وعـلى نحـوٍ هـادئ، كسـحابة غـروب ممتـدَّة واطئـة، منـزلًا ممتـدًّا واطئًـا، يانِعًـا في ضـوء الغـروب الرقيـق. قـارن الأصدقـاء السـتة جميعهـم بـين آرائهـم بعـد ذلـك وتعاركـوا؛ لكنهـم اتَّفقـوا جميعًـا عـلى أن تلـك البُقعَـة -بطريقـةٍ مـا، لا يُمكِـنُ تَفسـيرُها- تُذكِّرهـم بصِباهـم. عـلى الأَخَـصّ قِمَّـة شـجرة الـدِّردار تلـك، أو ذلـك الممـشى المتعـرِّج، أطـلال ذلـك البسـتان أو شـكل تلـك النافـذة؛ لكـنَّ كُلَّ رَجُـلٍ منهـم اعـترف أنـه سـيتذكَّر هـذا المكانَ قبـل أن يتمكَّـن مـن تَذكُّـر أُمِّـه.

عندمـا درَجَـت العربـاتُ أخـيرًا إلى مدخـلٍ كبـير، واطـئ، غائـر، تقـدَّم لاسـتقبالهم رَجُـلٌ آخـر بنفـس الـزِّيّ، لكنـه يرتـدي نَجمَـةً فضِّيَـةً عـلى الصـدر الرمـادي لمعطفـه. ثـم قـال هـذا الرَّجُـلُ المثـير للإعجـاب لسـايم المذهـول:

"ستُقدَّم لكم المرطِّبات في غُرفَتِكم".

انطلـق سـايم، تحـت نفـس تأثـير التنويـم المغناطيـسيّ للدَّهشـة، صاعِـدًا عـلى دَرَجِ البلُّـوط الكبـير في إثـر الخـادم المحـترم. دَلَـفَ إلى جنـاحٍ فَخـمٍ مـن الغُـرَف، بَـدَت وأنهـا مُصمَّمـة خصِّيصًـا مـن أجلـه. خطـا إلى مـرآةٍ طويلـة، بالغريـزة المعتـادة لطبَقَتِـه الاجتماعيـة؛ لِضَبـطِ رَبطـةِ عُنُقِـه أو تشـذيب شـعره، وهنـاك رأى الشَّـكلَ المرعِـبَ لمـا أصبـح عليـه- الـدَّمُ يسـيل عـبرَ وَجهِـه مـن الموضـع الـذي أصابـه الغُصـن، وشَـعره مُنتَصِـبٌ

كالأسـمال الصَّفـراء في صفـوف العُشـب، وملابسـه مُمزَّقـة إلى مزقـاتٍ طويلـة، مُتمايِلَـة. عـلى الفـور انبثـق الُلغـزُ بأكملـه، وكذلـك السـؤال كيـف وصـل إلى هنـا، وكيـف لـه أن يخـرج ثانيـةً. وفي نفـس اللحظـة بالضَّبـط قـال لـه رَجُـلٌ مُتَّشِـحٌ بـالأزرق، كان قـد تَـمَّ تعيينـه كخـادِمٍ لـه، بوَقـارٍ شـديد:

"لقد أخرجتُ ملابِسَك، يا سيِّدي".

"ملابِـسُ!" قـال سـايم بطريقـة سـاخرة. "لا أمتلـك أيَّ ملابِـسَ باسـتثناء هـذه"، ورفـع المزقَتَـيْن الطويلتـين مـن معطَفِـه الصُّـوفيِّ كحِبـالِ زينَـةٍ بديعـة، وأبـدى حركـةً كـما لـو كان لإدارة فتـاةٍ في رقصَـةٍ باليـه.

"يطلـب منـي سـيِّدي أن أُخـبِرَك"، قـال الخـادم، "أننـا سـنُقيم حفلـةً راقِصَـةً تَنكُّرِيَّـة الليلـة، وأنـه يرغـب أن ترتـدي الـزِّيَّ الـذي أعددتُـه. في أثنـاء ذلـك، سـيِّدي، توجـد قِنِّينـة بورجنـدي وبعـضٌ مـن لحـم طائِـرِ الـدَّرَّاج البـارد، وهـو مـا يأمـل ألَّا ترفضـه، حيـث أن العشـاء لـن يُقـدَّم قبـل بضـعِ سـاعات".

"الـدَّرَّاجُ البـارد شيءٌ طيِّـب"، قـال سـايم مُتأمِّـلًا، "والبورجنـدي شيءٌ طيِّـبٌ هائـل. لكننـي لا أرغـب حقًّـا في أيٍّ منهـما بقـدر مـا أرغـب في معرفـة مـاذا يعنـي كل هـذا بحـقِّ الشـيطان، وأي نـوع مـن الأزيـاء قـد جَهَّزتَـه لي. أيـن هـو؟".

رفـع الخـادِمُ مـا يشـبه قماشًـا عُثمانيًـا طويـلًا من الجـوخ، ذا لَـونٍ أزرق مُخضَرٍّ كالطـاووس، يشـبه قطعـةَ دومينـو بالأرجـح، عليـه كانـت شَـمسٌ ذهبيَّـةٌ كبـيرة مُزَركَشَـة تنتـثر حولهـا نجـومٌ وأهِلَـةٌ مُتوهِّجـة.

"سترتدي زِيَّ الخميس يا سيدي"، قال الخادم مُلاطِفًا بعضَ الشيء".

"مُتَّشِحٌ بِزِيِّ الخميس!" قال سايم بتأمُّلٍ. "إنه لا يبدو زِيًّا مريحًا".

"أوه، نعم، يا سيدي"، قال الآخر بحماس، "إن زِيَّ الخميس مُريحٌ تمامًا، يا سيِّدي. إنه ينغلق حتى الذَّقن".

"حسنًا، لا أفهم أي شيء"، قال سايم، مُتنهِّدًا. "اعتَدتُ طويلًا جدًّا على المغامرات المرهِقَة لِحَدٍّ أنني قد أُصعَقُ من أيِّ مُغامَرَةٍ مُريحة. رغم ذلك، اسمَحْ لي بالسؤال لماذا يُفتَرَضُ أن أكون كالخميسِ في معطَفٍ أخضرَ مُرقَّطٍ بالشُّموس والأقمار من كُلِّ جانب. هذه المدارات، في رأيي، تَسطَعُ في أيامٍ أخرى. أتذكَّر أنني رأيتُ القمر يوم الثلاثاء ذات مرَّة".

"معذرةً، سيدي"، قال الخادم، "نقدِّم لك أيضًا الكتابَ المقدَّس"، وبإصبعٍ غارقةٍ في الاحترام والتَّصلُّب أشار إلى فقرة في الإصحاح الأوَّل من سِفر التَّكوين. قرأه سايم مُتسائِلًا. كانت الفقرة التي تحكي عن ارتباط اليوم الرابع من الأسبوع بخَلْقِ الشَّمس والقمر. إلَّا أن هذا كان انطلاقًا من نهاية الأسبوع في يومِ أَحَدٍ مَسيحيٍّ.

"الأمر يزداد غموضًا أكثرَ وأكثر"، قال سايم، بينما يجلس على مقعد. "مَن هؤلاء الناس الذين يُقدِّمون لحوم الدُّرَّاج الباردة والبورجندي، والملابس الخضراء والأناجيل؟ هل يُقدِّمون كلَّ شيء؟".

"نعم سيِّدي، كُلُّ شيء"، قال الخادم بوَقارٍ. "هل لي أن أُساعِدَكَ في ارتداء زِيِّكَ؟".

"أوه، أَمْسِكْ بالشَّيء اللعين!" قال سايم بنَفادِ صَبرٍ.

لكن رغم أنه كان مَيَّالًا لازدراء هذه المسرحية الصامتة، إلَّا أنه شعر بتلقائيَّةٍ وحُرِّيَّة عجيبة في حَرَكاتِه، بينما الرداء الأزرق والذهبي يَنسلُّ حول جسده؛ وعندما اكتشف أنه مُضطَرٌّ لحَملِ سَيفٍ، أثار ذلك فيه حُلمًا صبيانيًّا. وبينما يخطو خارِجًا من الغرفة طوَّح بالثُّنيات على كتفه بحَرَكةٍ واحِدَة، وبرز سيفُه مائِلًا، ثم انطلق بكُلِّ خُيَلاء وغرور الشُّعراء الجَوَّالين؛ ذلك أن هذه الملابس التَّنكُّريَّة لا تخفي، بل تَكشِفُ.

الفصل الخامس عشر

الرَّجُلُ مُلقي الاتِّهامات

خطا سايم على طول الردهة وفي أثناء ذلك رأى السكرتير واقفًا على قمَّة دَرَجٍ مُتطاوِلٍ هائل. أبدًا لم يَبدُ الرجل بهذا النَّبالة من قبل. كان ملتفًّا بحبلٍ طويل من أسوَدِ لَيلٍ بلا نجوم، في منتصفه يَنسابُ رباطٌ أو شريطٌ عَريضٌ من الأبيض النَّقيِّ، كعمود ضوءٍ وحيد. في المجمَلِ بدا كرداءٍ كهنوتيٍّ شديد التَّزمُّت. لم يكن سايم في حاجَةٍ إلى البحث في ذاكِرَته أو في الإنجيل حتى يتذكَّر أن اليوم الأول في الخَلْقِ شَهِدَ خَلقَ النُّور من الظَّلام فحسب. وأن هذا الرِّداء كان كافيًا في حدِّ ذاته للإيحاء بالرَّمز؛ وشعر كم أن هذا الشكل ذا الأسود والأبيض النَّقيِّ يُعبِّر تمامًا عن السكرتير الشاحب والزَّاهد، بكل حقيقته غير البشريَّة وهَيَجانِه البارد، الذي كان أداتَه في شَنِّ الحرب على الفوضويِّين، والتَّخفِّي مع ذلك كواحِدٍ منهم. بالكاد اندهش سايم أن يلاحظ -وسط كلِّ هذه الأريحية والحفاوة في كل ما يُحيطُ بهم- أن عينَيْ الرَّجُل كانتا

مُتجهِّمَتَيْن رغم ذلك. لا رائِحَة جعَّة الشعير ولا بساتين الفاكهة كان بمقدورها أن تُوقِفَ السِّكرتير عن طرح أسئلة عقلانيَّة.

إذا كان سايم قادِرًا على رؤية نفسه، فسيدرك أنه -أيضًا- كان يبدو كنفسه لأوَّل مرَّةٍ، وليس كأيِّ شخصٍ آخر؛ ذلك أنه إذا كان السكرتير يُمثِّل الفيلسوف الذي يُحبُّ الأصل والنُّورَ عديمَ الشكل، فإن سايم كان من نوع الشُّعراء الذي يبحثون دائمًا عن خَلقِ النور بأشكالٍ مُميَّزة، عن شقِّه وفَصلِه إلى الشَّمس والنجوم. قد يُحبُّ الفيلسوفُ "اللانهائيّ" أحيانًا، ولكن الشَّاعِرَ يعشق "النهائيّ" دائمًا. بالنسبة إليه، فإن اللحظة العظيمة ليست خَلقَ النُّور، بل خلق الشمس والقمر.

بينما هما يهبطان الدَّرجات الواسعة رَأَيا في الأسفل راتكليف، الذي كان مُتَّشِحًا بأخضرَ ربيعيٍّ كالصَّيَّادين، والشكل الذي على ردائه كان تَداخُلًا مُخضَرًّ من الأشجار. ذلك أنه يُمثِّل اليومَ الثالث الذي خُلِقَت فيه الأرض والأشياء الخضراء، ووجهه العقلاني مُتناسِق الملامح، بشكوكيَّته التي لا تخلو من الحميميَّة، بدا مُناسِبًا للغاية لذلك اليوم.

اندفعوا خارجين من مَمَرٍّ آخرَ عريضٍ وواطئ إلى حديقةٍ إنجليزيَّة قديمةٍ وكبيرة جدًّا، تغصُّ بالمشاعل ومصابيح النِّيران، تحت ضوئها المنكَسِر كان كرنفالًا هائِلًا من الناس يرقصون بأزياءَ مُتنافِرَة. بدا لسايم أنه يرى كلَّ شيءٍ في الطبيعة وقد أصبح مُجرَّد مُحاكاةٍ عَبرَ أزياءَ مَجنونَةٍ ما. أمامه كان رَجلٌ يرتدي زيَّ طاحونَةٍ بأشْرِعَةٍ هائلة، ورَجُلٌ في زيِّ فيلٍ، وآخر على شكل بالون؛ واثنان آخران، بَدَوا معًا وكأنهما يحافظان على مجرى مُغامراتهما الهَزليَّة. بل إن سايم رأى، بارتعاشةٍ غريبَةٍ، راقِصَة ترتدي ما يشبه طائِرَ "أبو قرن" ضخم المنقار، بمنقارٍ أطول منه شخصيًّا بمرَّتَيْن- الطائر الغريب الذي كان قد استقرَّ بقوَّةٍ في خياله كسؤالٍ حيٍّ بينما كان يندفع عبر الطريق الطويل في "زولوچيكال جاردنز". كان أمامه أيضًا ألفُ كائِنٍ آخر بهذا

الشَّكل. عمـود إنـارةٍ راقِـصٌ، شـجرة تفـاح راقصـة، سـفينة راقصـة. كان للمَـرءِ أن يتخيَّـل أن الأنغـام الهائجـة المتمـرِّدة لموسـيقيٍّ مجنـون مـا قـد وَضَعَـت كلَّ الكائنـات العاديـة في الحقـول والشـوارع في رقصَـةٍ سريعـة أبديَّـة. وبعـد ذلـك بزمَـنٍ طويـل، عندمـا أصبـح سـايم هادئًـا في منتصـف العمـر، لم يتمكَّـن أبـدًا مـن رؤيـة واحـدٍ مـن تلـك الكائنـات بعَينِهـا: عمـود الإنـارة، أو شـجرة التُّفَّـاح، أو الطاحونـة- دون أن يُفكِّـر أنـه ليـس سـوى عِربيـدٍ ضَـلَّ طريقـه مـن عَربـدَة الحفلـة التَّنكُّريَّـة هـذه.

عـلى أحـد جانِبَـيْ هـذا المـرج، الغـاصّ بالراقصـين، كان يوجـد مـا يشـبه مُرتفعًـا أخضـر، يشـبه الشُّرفـات في الحدائـق قديمـة الطـراز.

عـلى جوانبهـا، فيـما يُشـبه الهـلال، انتصَبَـت سـبعةُ كَـراسٍ عظيمَـةٍ، عـروش الأيـام السـبعة. كان جوجـول ودكتـور بـولْ قـد جلسـا عـلى مقعدَيْهـما بالفعـل؛ والبروفسـور في طريـق صعـوده إليـه. جوجـول، أو الثلاثـاء، ببسـاطته قـد تجسَّـدت جيِّـدًا بـرداء مُصمَّـمٍ عـلى شـكل تَشـعُّب الميـاه، ينفصـل عنـد جبينـه وينسـاب إلى قدَمَيْـه، بالرَّمـاديِّ والفـضِّي، كصفحـة مـن الأمطـار. بينـما يرتـدي البروفسـور، الـذي كان يومـه ذلـك الـذي خُلِقَـت فيـه الطيـور والأسـماك -أشـكالُ الحيـاة الأكـثر بدائيـةً- زيًّـا ذا لـون أرجـوانيٍّ قاتِـم، تنتـشر عليـه أسـماك ذات أعـين جاحظَـةٍ وطيـور اسـتوائية وحشـيَّة، بمـا يُمثِّـل اتحـاد الخيـال الغامـض والشَّـكِّ داخلـه. وارتـدى دكتـور بـولْ، آخِـرُ أيـام الخلـق، معطَفًـا مُغطًّـى بحيوانـاتٍ شِـعاريَّة باللَّونَـيْن: الأحمـر والذهبـي، وعـلى شـعار نبالتـه إنسـانٌ جامِـحٌ. اسـتلقى مسـترخيًا في مقعـده بابتسـامة عريضـة؛ صـورة المتفائـل مُجسَّـدةً.

واحـدًا بعـد آخـر ارتقـى الجوَّالـون المرتفـع واسـتقرُّوا في مقاعدهـم العجيبـة. وأثنـاء جلـوس كُلٍّ منهـم انطلـق صخـبٌ حـماسيٌّ مـن الكرنفـال، صَخَـبٌ جديـر بحشـودٍ تسـتقبل الملـوك. قُرِعَـت الكـؤوس وارتعشـت المشـاعل، وتطايَـرَت قُبَّعـاتُ الريـش في الهـواء. الرجـال الذيـن هُيِّئَـت لهـم

تلك العروش كانوا رجالًا مُتوَّجين بأكاليلَ استثنائية. لكن الكرسي في المنتصف كان شاغِرًا.

كان سايم على يسار ذلك الكرسي، والسكرتير على يمينه. تطلَّع السكرتير عبر العرش الشَّاغر إلى سايم، وقال زامًّا شفَتَيْه:

"لا نعرف بَعدُ ما إذا كان مَيِّتًا في أحد الحقول".

فور أن سمع سايم هذه الكلمات بالكاد، رأى على بحر الوجه البَشريِّ أمامه تَبدُّلًا مُرعبًا وبديعًا، كما لو أن السماء قد انفتحت وراء رأسه. لكنه الأحد قد مرَّ بصمتٍ فحسبُ على طول المقدِّمة كظِلٍّ، وجلس على مقعد المنتصف. كان مُتَّشِحًا بملابِسَ بسيطة، بأبيضَ نَقيٍّ ومُرعِب، وشَعرُه كَلَهبٍ فضِّيٍّ على جبينه.

لزَمَنٍ طويل -بدا كساعات- تَمايَلَت حفلةُ تَنكُّر النَّوع البشري الهائلة تلك، وخَطَت بقوَّةٍ أمامهم على وَقْعِ موسيقى زاحِفَةٍ ومُبتَهِجَة. بدا كُلُّ زَوجٍ راقص كغراميَّاتٍ مُتنافِرَة، قد تكون جِنِّيَّةٌ ترقص مع صندوق بريد، أو فتاة مُزارِعَة ترقص مع القمر؛ لكنَّ الأزواج جميعها -بشكلٍ ما- بَدَت عَبثيَّةً كأليس في بلاد العجائب، ومع ذلك وقورة وحانية كقِصَّة حُبٍّ. أخيرًا، رغم ذلك، بدأ الحشد السميك في التلاشي وتفكيك نفسه. الأزواج يمضون بعيدًا إلى مماشي الحديقة، أو يبدؤون في الاندفاع نحو نهاية المبنى حيث تنتصب قُدورٌ هائلة كأوعية السمك، تنبعث منها أدخِنَةٌ خلائِطُ، حارَّةٌ، ذاتُ روائِحَ من الشعير أو النبيذ. وفوق كل هذا، على ما يشبه إطارًا أسود على سقف المنزل، كانت شُعلَةٌ عملاقَةٌ تزأر في سَلَّتها الحديدية، مضيئةً الأرض لأميالٍ. كانت تُطوِّح بالتأثير البيتي لضوء النار على وجه الغابات الشاسعة ذات اللون الرمادي أو البني، بل وبَدَت أنها تملأ بالدفء خواءَ الليل الأعلى. مع ذلك، فهذه أيضًا، بعد بُرهَةٍ، بدأت في الخفوت، واحتشَدَت الجماعات الشَّاحِبَةُ أكثر وأكثر حول المراجل الهائلة، أو

مَضَـت، ضاحِكَـةً وصاخِبـةً، إلى الممـرّات الداخليـة لذلـك المنـزل القديـم. سرعـان مـا لم يتبـقَّ سـوى عـشرة تقريبًـا مـن المتسـكِّعين في الحديقـة؛ ثـم أربعـة. في النهايـة هـرع صانِـعُ البهجـة المتـشرِّد الأخـير إلى داخـل المنـزل زاعقًـا لمنـاداة رفاقـه. خَبَـت النـيران، وظهـرت النجـوم المتباطِئـة، القويـة، وتخلَّـف وراء كل ذلـك الغُربـاءُ السَّـبعة وحيديـن، كسـبعةِ تماثيـلَ حجريَّـة عـلى مقاعدهـم الحجريـة. أيٌّ منهـم لم يكـن قـد نطـق بكلمـة.

لم يكونـوا في عَجَلـةٍ مـن أمرهـم في التحـدُّث بكلمـة، لكنهـم أنصتـوا في صَمتِهـم إلى هَمهَمَـةِ الحـشرات وإلى الأغنيـة البعيـدة لطائـرٍ وحيـد. ثـم تكلَّـم الأحـد، لكـن بشـكل حالِـمٍ جـدًّا لحَـدِّ أنهـم اعتقـدوا أنـه يُكمِـلُ حديثًـا بـدأه في خيالـه.

"سـنأكل ونـشرب لاحِقًـا"، قـال لهـم. "لِنَبْـقَ معًـا قليـلًا، نحـن مَـن أحببنـا بعضنـا البعـض بـكل هـذا الحـزن، وحاربنـا معًـا طويـلًا. يبـدو لي أننـي لا أتذكَّـر سـوى قـرونِ الحـرب البطوليـة، التـي كُنتُـم فيهـا أبطـالًا دومًـا- ملحمـة بعـد ملحمـة، إليـاذة بعـد إليـاذة، وإخـوةً متشـابِكي الأذرع دومًـا. ربمـا حـدث هـذا بالأمـس القريـب ليـس إلَّا (فالزمـن لا شيء) أو في بدايـة العـالم ربمـا، لكننـي أرسـلَتُكم إلى الحـرب. جلسـتُ في الظـلام، حيـث لم يُخلَـقْ أيُّ شيء، وبالنسـبة لكـم لم أكُـن سـوى صـوتٍ يأمركـم بالشـجاعة والفضيلـة الاسـتثنائية. سَـمِعتُم الصـوت في الظـلام، ولم تسـمعوه ثانيـةً أبـدًا. الشـمس في السـماء أنكَرَتـه، الأرضُ والسَّـماء أنكَرَتـه، وكلُّ الحكمـة البشريـة أنكَرَتـه. وعندمـا واجَهتُكُـم في وَضَـحِ النَّهـار أنكَرتُـه بنفسي أيضًـا".

اضطـرب سـايم بحِـدَّة في كُرسـيِّه، لكـن بخـلاف ذلـك كان الصمـت مُحيطًـا بهـم، وتابَـعَ الملَغَّـزُ الغامِـضُ حديثَـه.

"لكنَّكـم كنتُـم رجـالًا. لم تغفلـوا عـن مَوضِـع شَرَفِكـم الـسِّرِّيّ، رغـم أن الأكـوان بأكملهـا تحوَّلَـت إلى محـرِّك عـذابٍ لانتزاعِـه منكـم. أدركـتُ كـم اقترَبتُـم مـن الجحيـم. أدركـت كيـف تقاتَلْـتَ، أيُّهـا الخميـس، بالسَّـيف

مـع الشـيطان الملـك، وكيـف أنَّـكَ، أيُّهـا الأربعـاء، قـد ناديـتَ باسـمي في لحظـة الاحتيـاج بـلا أَمَـلٍ".

كان الصَّمـتُ المطبِـقُ قـد غَشِـيَهم بالكامـل في تلـك الحديقـة الغارقـة في ضـوءِ النجـوم، ثـم اسـتدار السـكرتير، الأسـمر كثيـف الحاجبـين، حَرونًـا، في مقعـده ناحيـة الأحـد، وقـال بصـوتٍ مبحـوحٍ:

"مَن، وماذا أنتَ؟".

"أنا السَّبتُ المقدَّس"، قال الآخَرُ بلا حراكٍ. "أنا سَلامُ الرَّبِّ".

جَفلَ السكرتير، وانتصب في مكانه ساحِقًا رداءه الثمين في يَدِه.

"أُدرِكُ ما تعنـي"، صـاح قائـلًا، "وهـو بالضَّبـط أننـي عاجـز عـن الصَّفـح عنـك. أعـرف أنَّـكَ الرِّضـا، التفـاؤل، بمـاذا تدعـون ذلـك الـشيءَ، المصالحـة المطلَقَـة. حسـنًا، لسـتُ مُتصالِحًـا. إذا كنـتَ حقًّا الرَّجُـلَ في الغرفـة المظلِمَة، فلـماذا كنـتَ الأَحَـدَ أيضًـا، إهانـةً لنـور الشـمس؟ إذا كنـتَ مـن البدايـة أبانـا وصديقَنـا، فلـماذا كنـتَ أيضًـا عَدوَّنـا الأكـبر؟ لقـد بَكَينـا، وفرَرنـا في فـزع؛ والحديـد قـد دخـل إلى أرواحنـا- ثـم تقـول إنَّـكَ سـلامُ الـرَّبِّ!، أوه، باسـتطاعتي الصَّفـحُ عـن غضـب الـرَّبِّ، رغـم أنـه دمَّـر أُمَـمًا كثـيرًا؛ لكنَّنـي عاجِـزٌ عـن الصَّفـح عـن سـلامه".

لم يُجِـب الأحـدُ بكلمـة، لكـنْ بطيئًـا جـدًّا أدار وجهًـا مـن حَجَـرٍ إلى سـايم كـما لـو كان لسـؤاله.

"لا"، قـال سـايم، "لا أشـعر بمثـل ذلـك الغضـب. بـل أنـا مُمـتَنٌّ، ليـس فقـط مـن أجـل النبيـذ وحُسـن الضيافـة هنـا، لكـن مـن أجـل كلِّ ذلـك الهـروب الراقـي والقتـال الحُـرِّ. لكـن أُحـبُّ أن أعـرف. روحـي وقلبـي سـعيدان وهانئـان هنـا في هـذه الحديقـة العتيقـة، لكـنَّ عقـلي يـصرخ طالِبًـا الحقيقـة. أحـبُّ أن أعـرف".

تطلَّع الأحد إلى راتكليف، الذي قال بصوتِه الواضح:

"يبدو من العبث جدًّا أن تكون في صَفِّ الجانِبَيْن، وأنَّكَ قاتَلتَ نفسَكَ".

ثم قال بولْ:

"لا أفهم شيئًا، لكنني سعيدٌ. في الحقيقة، سأخلد إلى النوم".

"لستُ سعيدًا"، قال البروفسور ورأسه بين يديه، "لأنني لا أفهم. تركتني أهيم حتى اقتربتُ كثيرًا من الجحيم".

ثم قال جوجول، ببساطَةِ طِفلٍ مُطلَقَة:

"أنشُدُ معرِفَةَ سبب إيذائي بشدَّة".

ما زال الأحد لم يَقُل شيئًا، لكنه جالِسٌ فحسب بذَقنِه الهائل مُستَنِدًا على يده، ومُحدِّقًا إلى البُعد. ثم قال أخيرًا:

"لقد سمعتُ شكايتَكم جميعًا. وهنا سيأتي آخَرُ للشكوى، وسنسمعه أيضًا".

ألقَت النَّارُ الخابِيَةُ في المشعل الهائل بآخر وَهَجٍ طويل، كقضيبٍ من الذهب المحترق، على العُشب المظلِم. على يده المتوهِّجة كان تظهر بالأسود الحالك ظِلالُ السِّيقان المتقدِّمة لشكلٍ بَشريٍّ مُتَّشح بالسَّواد. بدا وأنه يرتدي حُلَّةً مُكتَنِزَة أنيقةً بسروالٍ يَصِلُ إلى الرُّكبَتَيْن كذلك الذي ارتداه خَدَمُ المنزل، فقط بفَرقِ أنه لم يكن أزرقَ، بل من فَروِ السَّمُّور الأسود. كان يحمل، كبقيَّة الخَدَم، سيفًا في جنبه. وفقط عندما اقترب بما يكفي من هلال السَّبعَة وطوَّح بوجهه للنظر إليهم، تمكَّن سايم، بجلاءٍ صاعِقٍ، من رؤية أن الوجه كان نفسَ الوجه العريض، شبيه القردة، لصديقه القديم جريجوري، بشَعرِه الأحمر المفروق وابتسامته الشَّامِتَة.

"جريجـوري!" قـال لاهثًـا، وموشِـكًا عـلى القيـام مـن مَجلِسِـه، "يـا للعجـب، هــذا هــو الفوضـويُّ الحقيقــيُّ!".

"نعـم"، قـال جريجـوري، بضبـط نَفْـسٍ عظيـم وخطـير، "أنـا الفوضـويُّ الحقيقـيُّ".

"(وكان ذات يـومٍ)"، غمغـم بـولْ، الـذي بـدا وأنـه سـقط نائمًـا حقيقـةً، "(أن جـاء بنـو الله ليمثُلـوا أمام الـرَّبِّ، وجاء الشَّـيطانُ أيضًا في وسـطهم)[1]".

"أنـتَ عـلى حَـقٍّ"، قـال جريجـوري، وحـدّق فيهـم جميعًـا. "أنـا مُدمِّـر، وسـأدمِّر العـالم إن اسـتَطَعتُ".

اسـتولى عـلى سـايم شـعورٌ بالشَّـفَقَة مـن أعـماق الأرض، وتحـدَّث بكلـماتٍ مُتكـسِّرة.

"أوه، أكـثر الرِّجـال تَعاسـةً"، صـاح قائـلًا، "تحـاول أن تكـون سـعيدًا! لديـكَ شَـعرٌ أحمـرُ كشَـقيقَتِكَ".

"شَـعري الأحمـر، كاللهيـب الأحمـر، سـيحرق العـالم"، قـال جريجـوري. "اعتقـدتُ أننـي أبغِـضُ كلَّ شيء أكـثر مـمَّا يمكـن للرَّجُـل العـادي أن يبغـض أيَّ شيء؛ لكننـي اكتشَـفتُ أننـي لا أمقـتُ شـيئًا بقـدر مـا أمقُتُـكَ!".

"أبدًا لم أبغِضْكَ"، قال سايم بحُزنٍ شديد.

ثُمَّ مِن هذا المخلوقِ المستَغلِق انطلَقَت آخِرُ الصَّواعق.

"أنـتَ!" صـاح قائـلًا. "أبـدًا لم تُبغِضنــي لأنَّـكَ أبـدًا لم تَعِـش. أعـرف أنكـم جميعًـا، مـن أولكـم لآخركـم- أنتـم أنـاسُ السُّـلطة! أنتـم الشرطـة: الرجـال البدينـون، الضِّخـام، المبتسـمون ذوو الأزرار الزرقـاء! أنتـم القانـون، أبـدًا لم تنكـسروا. لكــن ألا توجـد روحٌ حُـرَّةٌ حيَّـة لا تتـوق إلى كَسرِكُـم، فقـط لأنكـم أبـدًا لم تنكـسروا؟ نحـن في ثورتنـا نتحـدَّث عـن كل أنـواع

(1) سِفرُ أيوب، الإصحاح السادس، الآية 1.

الهُـراء بـلا أيِّ شَـكٍّ عـن هـذه الجريمـة أو تلـك الجريمـة للحكومـة. وكل هـذا مـا هـو إلَّا حماقـة! الجريمـة الوحيـدة للحكومـة أنهـا تَحكُـم. الخطيئة التـي لا تُغتَفَـرُ للسُّـلطَة العليـا هـي أنهـا عُليـا. لا ألعنكـم لكَونِكُـم قُسـاة. لا ألعنكـم (رغـم أننـي قـد أفعـل) لكونِكُـم رُحَـماء. ألعنكـم لأنكـم آمنـون. تجلسـون عـلى مقاعدكـم الحجريـة، وأبـدًا لا تهبطـون منهـا. أنتـم ملائكـةُ السـماء السـبعة، لا تُعانـون مـن أي مشـاكِلَ. أوه، بإمـكاني أن أغفـر لكـم كُلَّ شيء، أنتـم مَـن تحكمـون النَّـوعَ البـشريَّ، فقـط إذا شـعرتُ أنكـم عانَيتُـم ألمًـا حقيقيًـا لسـاعَةٍ واحـدة كـما عانيـتُ أنـا...".

وَثَبَ سايم ناهضًا، مُرتَعِشًا من رأسه إلى قدمه.

"أرى كُلَّ شيء"، صـاح قائـلًا، "كلُّ شيء موجـود. لمـاذا يتحـارَبُ كُلُّ شيءٍ عـلى الأرض ضِـدَّ كُلِّ شيء آخـر؟ لمـاذا يضطـرُّ كلُّ شيء صغـير في العـالم أن يتقاتَـلَ مـع العالَـمِ ذاتـه؟ لمـاذا ينبغـي عـلى الذُّبابـة أن تُحـارِبَ الكـونَ بأكمَلِـه؟ لمـاذا ينبغـي عـلى نَبتَـةِ هِنْدِبـاء برِّيَّـة أن تُحـارِب الكـون بأكملـه؟ لنفـس السـبب الـذي اضطـررتُ مـن أجلـه أن أكـون وحيـدًا في مجلـس الأيـام الرهيـب. حتـى ينـالَ كُلُّ شيء ينصـاع للقانـون مَجـدَ وعُزلَـةَ الفَوضـويِّ. حتـى ينـالَ كُلُّ رَجُـلٍ يحـارب مـن أجـل النِّظـام شـجاعَةَ وخَـيرَ مُفجِّـري الديناميـت. حتـى يُمكِـنَ قَـذفُ كذبَـةِ الشَّـيطان الحقيقيـة في وجـه هـذا المجـدِّف؛ حتـى ننـالَ، بالدُّمـوع والعـذاب، الحَـقَّ في أن نقـول لهـذا الرَّجـل: "أنـتَ كاذِبٌ!". لدينـا عذابـات تكفـي لـشراء الحـق في القـول لملقـي الاتهامـات هـذا: "لقـد عرفنـا المعانـاة"".

"ليـس حقيقيًـا أننـا أبـدًا لم ننكـسر. لقـد انكسرنـا عـلى العَجَلَـة. ليـس حقيقيًـا أننـا أبـدًا لم نهبـط مـن عروشـنا. لقـد هبطنـا إلى الجحيـم. نشـكو مـآسي لا تُنـسَى حتـى في هـذه اللحظـة التـي دَلَـفَ فيهـا هـذا الرَّجُـلُ لاتهامنـا بالسَّـعادة بِـكُلِّ وَقاحَـةٍ. أرفـض الافـتراءَ والبُهتـان؛ لم نكـن سُـعداءَ.

باستطاعتي الإجابةُ باسم كُلِّ حارسٍ من حُرَّاس القانون العِظام الذين ألصق بهم التهمة. على الأقل...".

كان قد استدار بعينيه حتى ينظر فجأة إلى وجه الأحد الكبير، الذي كانت تعلوه ابتسامةٌ غريبة.

"هل عَرفتَ"، صاح بصوت مُرعِب، "المعاناة من قبل؟".

بينما هو يحدِّق، تَعاظَمَ الوَجهُ الكبير إلى حَجمٍ مُرعِب، حتى أصبح أكبر من القناع الهائل لتمثال مِمْنون[1]؛ ما جعله يصرخ كطِفلٍ. تَعاظَمَ الوَجهُ أكثَرَ وأكثر، مالِئًا السَّماء بأكملها؛ ثم اسودَّ كُلُّ شيء. في السَّواد فحسب قبل أن يتهشَّم دماغه بالكامل بدا وأنه سمع صوتًا بعيدًا يقول نصًّا معروفًا سمعه من قبل في مكانٍ ما، "هل يُمكِنُكَ أن تشرب من الكأس الذي أشرب منه؟".

* * *

عندما يستيقظ الرِّجالُ في الكُتُبِ من رؤيةٍ ما، فعادَةً ما يجدون أنفسهم في المكان الذي كانوا قد استغرقوا في النوم فيه: يتثاءبون في مقعد، أو ينهضون بأطراف مرضوضَةٍ من حقل. لكنَّ تجربة سايم كانت شيئًا ما أكثر غرابَةً بكثيرٍ من الناحية السيكولوچية بالمعنى الأرضيِّ، هذا إذا كان في المسألة أيُّ شيءٍ غير حقيقيٍّ بالفعل بشأن الأشياء التي مرَّ بها. لفترة من الزمن كان قادرًا دائِمًا على التَّذكُّر أنه غُشِيَ أمام وجه الأَحَدِ، لكنه لم يتذكَّر أبدًا أنه استردَّ وَعيَه على الإطلاق. لم يكن بإمكانه سوى تَذَكُّرِ أنه، تدريجيًّا وتلقائيًّا، أدرك أنه استمرَّ لفترة في السَّير عبر طريقٍ ريفيٍّ مع رفيق مُتَبَسِّطٍ يحب الحديث. ذلك الرفيق كان جزءًا من مغامرته الأخيرة؛ كان جريجوري الشَّاعِرَ ذا الشَّعْرِ الأحمر. كانا يسيران كصديقَيْن حميمَيْن، في خِضَمِّ مُحادَثَةٍ عن

(1) تمثالان ضخمان شُيِّدا تخليدًا لذكرى أمنحتب الثالث- (المترجم)

أمرٍ تافِهٍ ما. لكن سايم لم يكن بمقدوره سوى الشُّعور بنشاطٍ وخِفَّةٍ استثنائية في جسده، وصَفاءٍ بِلَّوريٍّ في عقله، بما يفوق كلَّ شيء قاله أو فعله. شعر أن في حَوزَتِه أخبارٌ طَيِّبَة مستحيلة ما، جعلت كلَّ شيء آخرَ بالمقارَنَةِ تَفاهَةٌ، لكنها تفاهَةٌ فاتِنَة.

كان الفَجرُ المنبَلِجُ يُلقي على كُلِّ شيء بألوانه الرَّائِقَة والمتردِّدة في آنٍ؛ كما لو أن الطبيعة قد حاوَلَت في المرَّةِ الأولى بالأصفر، وفي الثانية بالورديِّ. هَبَّ نَسيمٌ شَديدُ العُذوبَةِ والصَّفاء، لِحَدِّ أن المرءَ يَعجَزُ عن تَخيُّل أنه قد هَبَّ من السماء؛ بل عبر ثُقبٍ ما في السماء. شعر سايم بدَهشَةٍ بريئَةٍ عندما رأى الأبْنِيَةَ الحمراءَ المشعَّثة لسافرون بارك ترتَفِعُ من حَولِه على جانِبَيْ الطَّريق. لم يخطر بباله أنه سارَ حتى اقترب من لندن لهذا الحدِّ. مضى بحسِّ الغريزَةِ على طول طريقٍ أبيضَ، عليه كانت الطيورُ المبكِّرَةُ تتقافَزُ وتُغنِّي، ثم وجد نَفسَه خارِجَ حَديقةٍ بأسوار. هناك رأى شَقيقَةَ جريجوري، الفتاة ذات الشَّعرِ الذَّهَبي- الأحمر، تقطِفُ زُهورَ الَّليلَكِ الأرجوانيَّةَ قبل الإفطار، بالوَقارِ العظيمِ غير الواعي لفَتاةٍ.





الرجل الذي كان الخميس

"عليكَ أن تعذر طريقتي"، قال البروفسور بكآبة، "وضعي عجيب بعض الشيء. من الداخل أنفجر حقًّا بمرح صبيانيٍّ؛ لكنني انغمست في تقمُّص دور البروفسور المشلول حتَّى لم أعد قادرًا على الخروج منه؛ لذلك عندما أكون بين أصدقائي، ولا أحتاج بأي بشكل إلى التَّنكُّر، أعجز رغم ذلك عن منع نفسي من التحدُّث ببطءٍ وتجعيد جبيني- كما لو كان جبيني فعلًا. بإمكاني أن أكون سعيدًا حقًّا، لكن فقط بطريقة مشلولة نوعًا ما. أكثر الاندهاشات بهجةً تتقافز في قلبي، لكنها تخرج من فمي على نحوٍ مختلف تمامًا. قد تسمعني أقول، «ابتهِجْ أيُّها الزعيم العجوز!» لكنها كلمات، في الحقيقة، ستجلب الدموع إلى عينيك".

الغلاف:
عبد الرحمن الصواف


ISBN 978-977-313-832-5



